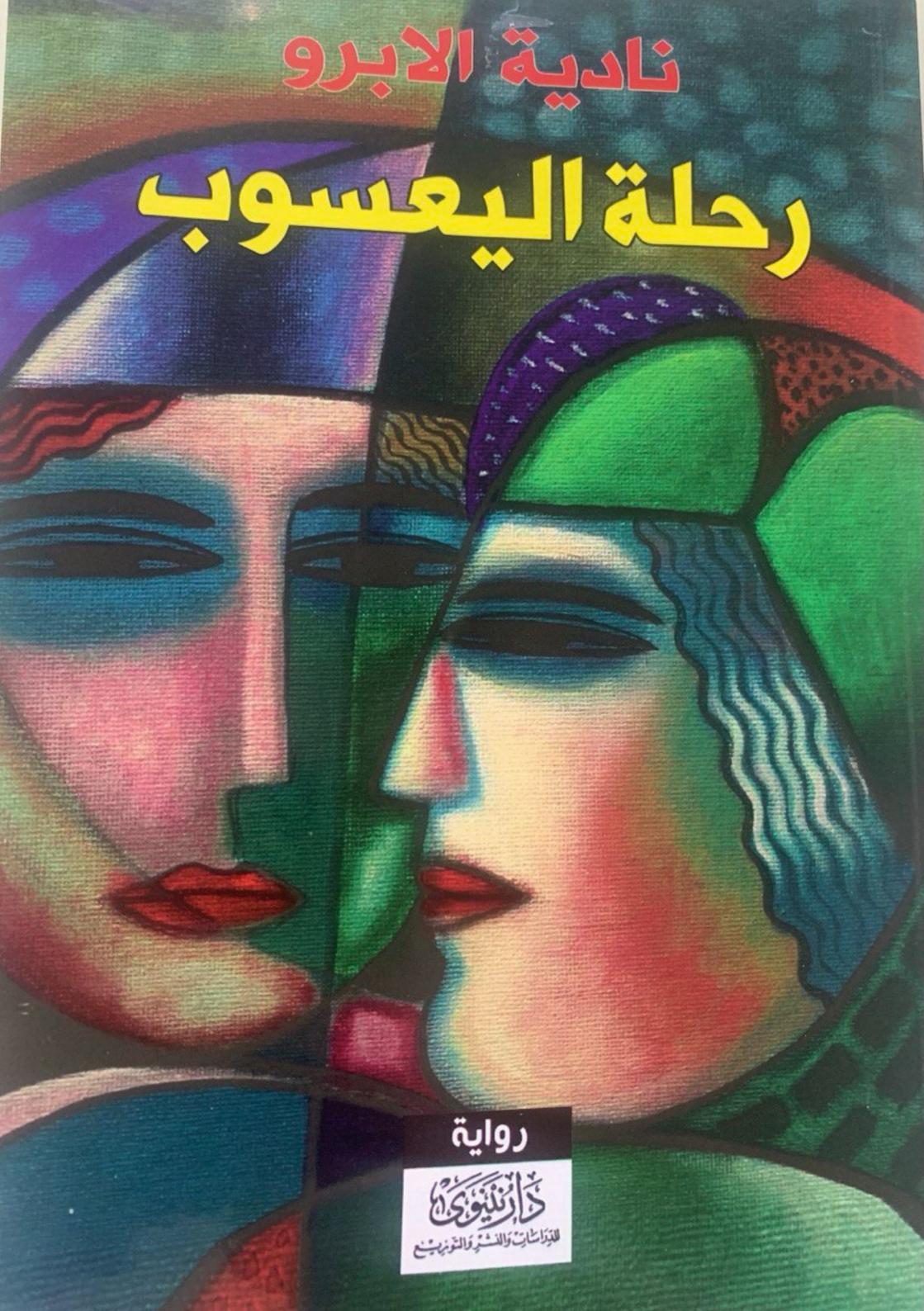

نادية الابرو

رحلة اليعسوب

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

رحلة اليعسوب

عنوان الكتــاب: **رحلة اليعسوب**

اســم المؤلــف: **نادية الابرو**

المـوضـــــــوع: **روايــة**

عدد الصفحات: **240 ص**

القيـــــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**

الطبعـة الأولى: **500 /كانون الثاني 2021 م - 1442 هـ**

ISBN: 978-9933-38-262-9

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**

تلفاكس: **+963 11 2314511**

هاتـــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،

بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

للتواصل مع المؤلفة على الايميل: **nada.sunflower44@gmail.com**

نادية الابرو

رحلة اليعسوب

رواية

إلى الأرواح التي حصدها فايروس كورونا...

وإلى المعاطف البيض في حربها الشرسة ضدّه...

١

الصوت يلاحقني... أعجب من أمره للغاية، كيف! كيف لا يزال... يتسرب الى مسامعي، يوقد نار الذكرى، كيف لم يته عني؟ وأنا نفسي بت أتيه عنها! أقف أمام المرآة، أطيل النظر، فلا أراها، يزداد شحوبي، تختلط ملامحي، كرسوم التكعيبيين تبدو، أتلمسها بأطراف أصابعي، أقارن وأتفحص... حقاً مللت، ماذا أريد؟! وماذا صنعت؟ أشد بشرتي بتأنٍ، أرفع بقايا شعيرات قصيرة لحاجب كان يوماً في موضعه، أتحسس شفتيّ المتصلبتين، أمطهما بصعوبة، ذقني الجديد البارز بإنحناء متقن متناظر دقيق، فأشعر ببعض من الرضا ولن أسمح اليوم لذلك الصوت أن يؤرقني.

آخذ حماماً منعشاً بعد طول إنتظار، أتوخى الحذر في السير على أرضيته... كانت آثار السهر والشراب تلف برأسي دوائر لا تنقطع عن مركزها، حتى إنزلقت قدماي متكومة على الأرض بعد أن إرتطم أنفي بطرف المغسلة نازفاً بغزارة، على رخام الحمام حبوت مستنجدة بالإسعاف، وانأ أرتعش من منظر الدم الذي لون بقطرات كثيفة بقعاً من قميص نومي الأزرق، حينها فقط تأكدت أن اللون البنفسجي يتوالد من عناق الأحمر بالأزرق، شدني هذا العناق فيا لسذاجتي!

لا أعلم كم من الوقت إنتظرت، إضطجعت على بركة الدم، رأسي يثقل وأصابعي تتنمل مع أطرافي، الضوء الأحمر يدور على نفسه أعلى سقف

سيارة الإسعاف، ورائحة الدم الصدئ آخر ما علق بذهني قبل أن أفتح عينيّ من بين الضمادات في المستشفى.

أنهي حمامي على عجالة متوجسة، الحمد لله، لا يزال كما هو متناظراً جميلاً، أتفحصه برقة، كيف وصلت الى هذا الحال؟... كيف؟!

وعدتِ الطبيبة أن لا تطيلي الوقوف أمام المرآة، ولا تقعي فريسة تلك الهواجس... لا تخشي عليّ، لن أركن اليها ثانية... وأنا لن أثق بكلامك حتى أرى العكس.

نهارات الإجازة لا تنقضي مع الوحدة وهذا الصمت الخانق، أفتح باب الشرفة، أتنسم بعض النسمات الهادئة.

من هنا، لا شيء يبدو في الأسفل له قيمة، فما بال الله كيف يرانا؟... ماذا وعدتني قبل قليل؟... نعم، نعم، لا بأس سأكف عن طرح مثل هذه الأسئلة.

لن يمر هذا الصباح بيسر، لا أدري هل أنزل الى البحر؟ لكني أشعر أحياناً بالكآبة حين أجالسه، فلأكتفي منه من هذه المسافة.

تفحصت جدول أعمالها للشهر القادم، بعد أن أجلت الكثير من المواعيد والجلسات، مصغية الى نصائح طبيبتها بضرورة أخذ قسط من الراحة لهذا الجسد الذي يتداعى من شدة الإرهاق والتعب: حان الوقت أن تنعمي بإجازة، بعيداً عن كواليس العمل ومتطلباته الثقيلة.

لا إرادياً جلبت هاتفها المحمول تبحث عن إسمه، فتراجعت قبل أن تنقر عليه... إياك أن تتصلي به، لقد أمليت عليه كل طلباتك، وهو كفيل

بإدارة الأمور على أسلم وجه فلا تقلقي، أم هناك شيء آخر؟!... صه صه، أصمتي ألم تسمعي الطبيبة ماذا قالت؟

حسناً فلأشرب القهوة هنا وأراقب البحر، عجيب أمر الوقت!

ما كان عليّ أن أكون متغطرسة الى هذا الحد، وأطلب منه بشكل قاطع أن لا يتصل بي بأي شكل من الأشكال، ما كان علي أن أستمع الى نصيحتها هذه، وأخذت هاتفها تقلبه آملة أن يخالف هو كلامها ولو برسالة صغيرة من كلمتين.

بصعوبة أوقفت أصابع يدها من أن تنقر على أسمه، فأمسكت بقبضتها رادعة ضعف نفسها، إلا أن أصبعها السبابة كان مراوغاً (مرحبا رحيمة، شلونك، إن شاء الله بخير، أمي وكرم شلونهم؟ كلشي تمام؟ لا تنسين أن تراقبيه، وتمنعيه من الإنشغال عن دروسه بمواصلة اللعب أكثر من الوقت المحدد، لا تنطلي عليك حيله، وبوسيه عني... مع السلامة).

قدمت أوراقي وكل الوثائق المطلوبة الى مديرة الملجأ، الإنتظار بالدور لأجل مراجعة طلبات التبني إستنزفت وقتي وحماسي للفكرة برمتها، فتركت أمرها بعد مضايقات المديرة وأسئلتها الخبيثة المناوئة في قصد واضح لإحراجي بعد أن تعرفت على هويتي، فجأة أمسيت الغولة وصارت هي الأم تيريزا بنصائحها المغالية حول أساليب التعامل مع الأطفال، وكأني من كوكب آخر. كنت أصغي الى كلامها، طريقة لفظها وهي تلوك الكلمات في إستعراض مزيف لثقافة وإنسانية أهلتها لهذا المنصب، عيناها الجاحظتان بشكل نافر عن طرف وشاحها وهما ترمقاني بنظرات حارقة، رغم أني كنت مرتدية ملابس محتشمة لائقة، تساءلت في نفسي مرات عدة هل يشفع الذكاء للمرأة إذا ما قوبل بقبحها المستفحل؟!

تجاوبت مع كل فنونها في المماطلة أملاً بإمضاء موافقتها على طلب التبني.

لا أعلم لمَ كان كل ذلك النفور مني الى حد التغاضي عن مصلحة الطفل والدار! لم تستسغ رغبتي في الأمومة، أكانت حارسها؟

سؤال ظل يلح عليّ حتى بعد هذه السنوات، ولم يتح لي أن أجرب حظي ثانية مع دار أخرى وأم تيريزا ثانية، يكفي أنها تزورني أحيانا في منامات غامضة لا أعرف تفسيرها أو سببها كذلك لا أحمل تفسير الطبيبة لها على منحى مقنع دائماً، رغم أني أثق بحصافة رأيها، وها أنا اليوم أجلس وحيدة في هذه الشرفة متقيدة بتعليماتها (إنتِ بحاجة الى سفرة راحة وإستجمام وحدك دون أي رفقة) فما عساني فاعلة بهذه الوحدة وضجيج صمتها؟! كدبيب نمل يتصاعد في رأسي... يا الله، ما السبيل الى...؟

كنت حينها في الأستوديو، بكامل حيويتي وجمالي، أضج بسعادة متفردة إستثنائية لأجل تسجيل أغنيتي الأولى، جذبتُ إنتباه العاملين هناك وفضولهم، وعلى الأخص صاحب الأستوديو الرجل الخمسيني الذي علت على ملامحه آثار الثراء والفخامة، بنطال جينز ماركة Lee، قميصه المقلم، القطعة الأصلية لبولو، حذاءه الصندل الإيطالي الطراز، نظارته الراقدة فوق خصلات شعره المنسابة الى الخلف والتي تخللها نتف من الغمام على الجانبين زادت من بهاء محياه، وتلك الإبتسامة الماكرة وهي تلون عينيه فتضفي سحراً غامضاً على شخصيته.

رحب بي كثيراً، وأشرف على توفير كل سبل الراحة لي حتى أنهيت التسجيل مطمئنة الى حسن أدائي بعد إنقطاع. دعاني الى فنجان قهوة في

غرفة أنيقة الأثاث في محاولة منه للإحتفاء بي وإبهاري بالمكان الذي هو صاحبه، فشربت قهوتي تحت أنظاره التي تفحصتني بدقة، ومن ثم إستأذنت هاربة لآخذ نفساً عميقاً خارج الأستوديو بعد أن كاد جو تلك الغرفة وأضوائها الخافتة بستائرها الثقيلة الداكنة اللون يثير هواجسي.

كان وطء حضوره في المرات اللاحقة أقل، إلا أني ما أزال أشعر بالتوتر من عينيه الملاحقتين لي، واثقة أني لم أكن المرأة الأجمل التي يلتقيها، ومع تكرار قدومي الى الأستوديو أدركت أني قد إستوليت على عقله، وباتت نظراته المتفحصة مصدراً إضافياً لشحذ غرور إنثوي يتصاعد داخلي يوماً إثر يوم.

لم ألقَ معاناة في نجاح ألبومي الأول فقد حققت أغلب أغنياته نسبة مشاهدة مرتفعة في الأيام الأولى لصدوره، بالأخص بعد اللغط الذي رافقه، مثيراً حفيظة وفضول الجماهير الذي طالني بأسئلة كثيرة وقفت أزائها صامتة دون أي تعليق، حينها لم يكن لدي مدير أعمال حقيقي يوجه ويصوب أفعالي وتصريحاتي، لكني بحدس المرأة إنحنيت أمام العاصفة حتى تمر، موقنة في نهاية الأمر أن الجمهور سيجذبه أخيراً الفن الجميل لا الإشاعات التي يذكيها الإعلام.

كان حريصاً على عدم ثبوط همتي، رافعاً معنوياتي بكلمات مؤازرة حنون أخمدت بعضاً من غيضي وإرتباكي في مواجهة ما يجري، لكني بالحدس ذاته لم أستطع أن أطمئن الى نواياه وتعاطفه المبالغ فيه معي، فحاولت أن أتغاضى عن تلك الخواطر والركون الى العقل والحكمة التي كنت بحاجتهما في تلك المرحلة، فلا مزيد من الخذلان والمغامرات غير محسوبة العواقب.

نعم للخذلان طعم قوي لا ينسى، ما زلت أتذكره للآن بعد مرور ربع قرن عليه.

ذهبت اليه بكامل زينة الأنثى وبهائها بعد أن تأكدت بصورة قاطعة من عدم ممانعته في قدومي إليه يدفعه الفضول أكثر من أي شيء آخر، وفعلاً كانت مفاجأته بي كبيرة لحد الذهول، الذهول الذي منعه من إستقبالي وتحيتي بالشكل اللائق، حين وقف متردداً، أيحضنني أم يصافحني؟ ففضل هو أن يمسك يده بجيبه ويتمتم ببضع كلمات جاد بها لسانه متلعثماً.

دهشته الكبيرة مني عقدت لسانه وزادت من خيلائي وثقتي خاصة وأنا أجلس أمام ناظريه الذين لم يمنعهما خجله وتوتره من تفحصي وإستراق النظرات إليّ طوال لقائنا.

لم تصدق عيناه ما يرى، فتحول ذهوله الى بلادة شديدة، أفقدتني بعضاً من حماسي ولهفتي فعذرته، ليس بالأمر السهل...

أووووه... ما كان عليّ أن أتبع نصائح الطبيبة هذه المرة، الذاكرة لا ترحم، فيتزاحم الأمس باليوم، ليتني ما وافقتها، لا أطيق هذا الضجيج في رأسي.

تناولت قرص أسبرين من حقيبتها، إقتربت من المرآة ترمق إنعكاسها من زوايا مختلفة لقوامها وجسدها الذي يحارب ضراوة السنين بمشقة، لا تريد أن تستجيب لوطأة العمر رغم ما أنفقته من مال وجهد في دروس اليوغا وكل ممارسات علم النفس والطب الروحاني.

عشت أشهراً مع قبائل منفية عن وجه الحضارة، شاركتهم أكلهم النيء معظم الوقت، وتدثرت بإغطيتهم الجلدية البسيطة على أمل أن تروض النفس وتهجع، لم أمسك حينها مشطاً أو أنظر في مرآة، كادت روحي أن تستقر وترضى لولا ذلك الثقب الأسود الذي ينخر فيها كل حين، ذلك

الصوت البغيض، كدت أتشافى منه بعد أن أوغلت في تلك الحياة المتقشفة الخاضعة لأحكام الطبيعة وقسوة تقلبها، عالم كل همه البقاء يوماً آخر على أرض ثلجية بيضاء تنشد دفء الشمس الشحيح ونورها.

عدت منهم بأفكار سامية ونفس خلاقة متسامحة مع كل ما حصل ويحصل، لكن الوقت كفيل بإزاحة القشرة عن معدنها، فرجعت الى سابق سيرتي، وظلت تلك الرحلة مجرد ذكرى وحنين الى ذواتنا الحقيقية المفرغة من الزيف.

وهي تطارد ثنايا جسدها خشية من ترهلات لا تلتقطها عين المرآة، خطر في بالها: ماذا لو حُطمت كل المرايا، وتخلى العالم عن رؤية إنعكاسه فيها؟ المرآة أصل الشرور ومنبعها، الناقد الذي لا يبحث إلا عن مواطن الضعف، ليتني أرسلها جميعاً الى الجحيم، واثقة أننا سنكون أفضل حالاً دون تلك الصور التي تغذي نرجسيتنا.

كان اللون إرجوانياً رائعاً، ظهرت للمرة الأولى فيه على خشبة المسرح لإحياء جزء من حفلة ليلة رأس السنة في أحد فنادق دبي المشهورة، أدرك ذلك المصمم ما أريده جيداً، فأظهر مفاتن جسدي بطريقة ذكية للغاية، لم يخبئ منها شيئاً ولم يظهرها بوضوح، ترك للعقل مساحة للخيال والرغبة في رؤية الأكثر، إنتظرت دوري وبدا التعب يرشح من مسامات التردد والخشية من الظهور أمام الجمهور في بث حي.

إصطكت أسناني، وشعرت بالبرد يسري في أطرافي رغم دفء غرفة الإستراحة، هي المرة الأولى منذ... حقاً كنت خائفة وتمنيت أن أدير ظهري

وأترك المكان لولا تشجيع كامل الزاهر لي وإيمانه بفراسة إكتسبها من سنوات العمل الطويلة مع الفنانين بأني سأكون مختلفة: تملكين حنجرة ذهبية، وخامة صوت متفردة تهدر بالدفء والعذوبة.

تضاءلت ثقتي بنفسي، خشيت ملاقاة الجمهور بهذا الشكل، وفي لجة هواجسي جاءني أحدهم يسألني أن أصعد الى المسرح لأقدم وصلتي قبل موعدها لسد فراغ تأخير ذلك المغني الذي علق بالزحام، فتعلق الجمهور بي مطالبين أن أكرر على أسماعهم الأغنية التي شدتهم من أولى الدقائق، شعرت حينها بنشوة غريبة أتاحت لي أن أغني بصوت رخيم حر واثق متمكن من عربه وقفلاته.

لن أنسى تلك الحفلة ولا ذلك الفستان الذي شهدت معه أبلغ سروري ولحظة إنطلاق روحي من القفص، فظل اللون الإرجواني مبعث تفاؤلي وفرحي.

وددت أن أحلق الى رحاب عالية سماوية بالجمهور، الذي إنشد الي وأمطرني بوابل من التصفيق والصفير، نزلت دموعي... أمن شدة الفرح أم لأن كلمات الأغنية كانت لقصيدة من نضمه والتي لا تزال تنبض في روحي رغم...

كتبها ذات مرة على قصاصة ورق وهو نصف شارد مع سيجارته يمزقه الحزن، لم يهتم لأمرها، فقد إعتاد أن يبث هنا وهناك لواعج قلبه، فحفظت تلك القصاصة بين أشيائي، لم يدر بخلدي حينها أني سأغنيها ذات يوم، كلماتها عنت لي بالكثير، فما شعر به من حزن وخيبة بضعة أيام أو حتى شهوراً، لا يعد شيئاً أمام ما أحسست به أزاءه كل يوم.

هي جميلة ولا أحد يستطيع إنكار ذلك، لكني لمحت في عينيها تلك اللمعة اللعوب المغوية، إنجذابه لها أعمى بصيرته فلم يلحظ أنها تتلاعب به وما هو سوى رقم في قائمة معجبيها التي تطول، فأغدق عليها طوال فترة تعارفهما التي قاربت ثمانية أشهر فيض مشاعره وهداياه الثمينة دون مراجعة كشف حساب ليكللها برغبته الشديدة في الإرتباط بها.

سمعة عائلته ومكانتها الاجتماعية سرعت بالإيجاب لطلبه، فلبست الخاتم الذي إخترناه بعناية لها في حفلة بدت فيها كإحدى الأميرات، إلا أنها ما تفتأ ترمقني بنظرات حاولت تفسيرها على نحو مغالط تماماً لما شعرت به، مكذبة إحساسي متغافلة عما يصدر منها من حركات وإيماءات مغالبة إدراكي القوي بما تجهد نفسها كل مرة في إيصاله إليّ.

أحمي وجهي من الشمس بقبعة كبيرة، وأختفي تحت نظارات سوداء واسعة، للمشي بين الغرباء لذة وشعور بالإنعتاق من تلك العيون الفضولية المتلصصة، آه كم أفتقد هذا الشعور! ... لكن لا تنسي عزيزتي أن لكل شيء ثمناً... لست بناسية أني من طرقت باب الشهرة فأجزل عطائي، إطمئني لا أحتاج الى تذكيري بالثمن الذي أدفعه... كذلك لا تخرجي هاتفك المحمول كل حين وتنظري فيه... أستعلم الوقت ليس إلا... دعك من الكذب، وأتركي عنك هذا الضيق الذي يلازمك في كل مرة تبصرين شاشته، ولا تجدين منه رسالة، إنه يلبي طلبك ليس إلا... نعم أحتاج الى مزيد من الوقت والتأمل... إذن فكفي عن إختلاق الذرائع، أنا أفهمك للغاية، حبورك وإتساع حدقة عينيك حين تلمحينه، وخيبتك المتوارية خلف زم شفتيك للأعلى في حركة سريعة تشي بلامبالاة كاذبة، أظنه هو الآخر قد فهم

تلك التعابير من زمن... تعالي نشاهد هذه القلائد الخرزية بألوانها الزاهية، فلأجرب واحدة.

وإندفع نحوها البائع يساعدها في الإختيار ويعرض عليها المزيد والمزيد من تلك الحلي والاكسسورارات المشغولة باليد في أناقة وجمال يثير رغبة النساء بإقتنائها، فخرجت من عنده بعلب صغيرة لامعة أودعتها قعر حقيبتها القماشية المطبوع عليها صورة البحر الذي تطيل الجلوس قربه على أمل التخفيف من هواجسها بأن تقرضه بعضاً منها.

لم أخطط لإيذائها أو الوشاية بها، لكن عندما وافتني الفرصة ركبتها وتركته يلعق دمعه المغمس بالغضب حين إلتقط واحداً من كتبي الموجودة على الرف، تابعته عينيّ وهو يجول بنظره على الكتب ممرراً يده نحو ذلك الكتاب الذي إحتوى بين صفحاته على رسالة من خطيبته وهي تبث شوقها ورغبتها الحرى على تركه مقابل...

تظاهرت بإنشغالي وهو يقلب صفحات ذلك الكتاب، وخرجت من صالة الضيوف لا ألوذ إلا بأمل أن يقرأ رسالة تلك الفتاة التي شغف بها قلبه حباً.

أتراني تعاملت بخبث مع أعز صديق لي أم سمحت له أن يعرف الحقيقة؟!... الأمر لا يخلو من لؤم وخبث نسائي، كان بإمكانك أن تلفتي إنتباهه الى كتاب آخر أو تشغليه بأمر ما عنه، لكنك وقفت صامتة تبتهلين لله أن يدرك أمنيتك، فلا تدعي البراءة والنبل... لا أدعي ذلك، بل كان من حقه أن يعلم... آه من هذا الدهاء، أرجوك لا... لم أفعل شيئاً، الله من ألهمه، فلا تلقي اللوم عليّ، كل منا يستحق أن يعرف الحقيقة ولو كانت

عاصفة مريعة، لن أنسى وقعها عليه حين تجرأت بعد سنين من التحضير والتجرد لتلك اللحظة الفارقة في تاريخ حياتي والى الأبد، صوته الأجش المخنوق لا يزال يطاردني محيلاً كل ما حققته من نجاح الى محض هراء لا قيمة له... عار، عار، أنت عار، يخترق عظامي يهز كياني، كسعفة نخيل تجتاحها ريح ليل الشتاء، ليتني كنت أصم حتى لا أسمعك، لكني أسمعه بروحي يدور كرحى.

ليتك مت... ليتك مت، قبل أن تجلب هذا العار لنا.

رائحة الهال العطرة تنبعث من دكان الحلويات وتبعث فيّ الذكرى، طفت على ثغري الإبتسامة ذاتها، كم كنت مولعة بالحلوى التي تصنعها جدتي من طحين الرز! وكيف تخلط المكونات وعلى نار هادئة تفوح رائحة ماء الورد والهال، لم يكن يروق لها الإجابة عن أسئلتي حول الطبخ مكتفية بشراهتي في تذوق كل ما تصنعه يداها الماهرتان، دون أن تسمح لتلك الرجفة الخفيفة فيهما أن تعوقها عن طهو كل ما يحبه أحفادها.

أصبحت الشمس أقرب، ولم تعد القبعة القشية العريضة كافية في حجب حرارتها، فدلفت الى أحد المطاعم في شارع مارينا المطل على بحر مرمرة في شهية حفزتها روائح الأطباق الزكية، فإختارت طبق سمك مشوي مع قليل من الرز، إستحسنت طعمه إلا أنه لم يكن بمذاق السمك المشوي بالتنور العابق برائحة الحطب لغداء يوم الجمعة من كل أسبوع، كنت أجلس على يمين والدي في الغالب، فيوليني عنايته حارصاً على أن أكمل طبقي حتى النهاية وهو يتلو على مسامعي فوائد الأكل المنوع والبصل الذي يكون سيد السفرة ذلك اليوم، فلا طعم للسمك دون بصل على حد قوله.

حمداً لله أن السمك في هذه البلاد بلا شوك، فلطالما فقدت الرغبة في تناول بعض أنواعه بسبب كثرة شوكها الذي إعتادَ والدايَ على نزعه لي من السمك، فكل واحد منهما يحضر لي لقمة، الأمر الذي أثار حفيظة شقيقاتي وسخطهن في مواقف كثيرة، ولربما في وقت لاحق شماتتهن، أفسداني دلالاً تحت رعاية جدتي التي ضعف بصرها قبل أن ترحل الى الله، لكنها أبداً لم تخطئ مرة رائحتي، وحفظت دبيب خطواتي على الأرض، وحين غادرت تركت فراغاً في قلبي لم يسكنه أحد، مثلما تركت في حجرتها صندوق عرسها الخشبي الكبير، أثواب (الهاشمي)، قلادتها بالليرات الذهبية، قوارير المسك ودهن العود، مسواكها، (شيلات البريسم) السوداء الفاخرة التي تلف بها رأسها في المناسبات، علبة سكائرها الفضية اللون الغارقة بالتبغ.

كانت رائحتها تعبق في البيت حتى بعدما رحلت، وأغلبنا قد لمح طيفها يمر متجولاً في أرجائه، ومع الوقت تناءى طيفها وإبتعد، عندها شعرت أنها قد ماتت فعلاً هذه المرة وكأني كنت دوماً أترقب قدومها، أن تطل من فتحة الباب لتقول لي بصوت ناعس متثائب يكفي سهراً، وأحياناً يخيل اليّ أنها تنادي فأهب من مكاني نحو حجرتها ناسية أنها قد رحلت قبل أن ينفطر قلبها مثلما... أوه ما لي أقلب جمر القلب، أنفث فيه كل حين؟!

الشاي هنا طعمه غريب، فلا أشهى من (إستكان) شاينا وصوت الملعقة يرن، فلأشرب كوبي وأنهض.

كم الساعة يا ترى؟ وأخرجت هاتفها من حقيبتها تستطلع الوقت... بربك هل معرفة الوقت هو ما يهمك؟ الساعة بيدك!... زمت شفتيها في حركة لا إرادية تدفع بها إرتباكها، حقاً نسيت أنها بيدي، الرابعة إلا ربعاً...

لا رسائل ولا نداءات إستغاثة ولا إشعارات بفيض الفقد، هاتفك صامت... لا أفهم ما تقصدين!... اممممممممم أظنك فاهمة للغاية، فلا تحاولي كل مرة النظر فيه بدوافع غير تلك التي تقصدينها، أنت بحاجة الى الوقت، الكثير من الوقت...

ليس بي رغبة الآن في التجوال والسير فلأذهب الى الفندق، سوت قبعتها ونظارتها الشمسية ونسائم الهواء تطارد ذيل فستانها مغازلة أزهاره الغافية.

من نافذة الشرفة أدركت آخر خيوط الشمس البرتقالية الشاحبة، الصمت يطبق على صدرها، الفراغ يواصل حفر هوته الكبيرة في أعماقها، تلملم مع نفسها أفكارها المتنازعة سادلة الستار على بعضها في محاولة جاهدة لإكمال اليوم دون دموع، تفحصت نفسها أمام المرآة، نظرت الى كل إنحناءة، تلمست بكفها خطوط رقبتها، مرت على جبينها، متوجسة شدت الوجنتين، دارت حولها، من زوايا مختلفة تترصد أي عيب عابر قد تلمحه عيناها، إبتسمت مستهجنة، إبتعدت عن زاوية إنعكاسها في المرآة ولاذت بالشرفة، على كرسي فاره عريض جلست تنفث دخان سيگارتها.

أطفأت عقب السيجارة بهدوء ووقفت متحاشية تدفق سيل هواجس ليلية متكررة، لا أظن أن الوحدة تناسب أمثالي، يا إلهي كيف طاوعت إقتراحها هذا؟ الضجيج يزداد ويرتفع صوته في أعماقي، وذاك الصوت ما يفتأ يهز كياني.

حازت الوصلة الغنائية على إعجاب الجمهور والنقاد، عرضتها أكثر من قناة على التلفاز، فبدأت الأضواء تميل ناحيتي، طلبت مني بعض القنوات

تسجيل لقاء معها ليتعرف الجمهور عليّ عن كثب، لاسيما أن طبيعة وطبقة صوتي قد أثارت حيرة الكثيرين وشكوكهم.

راجع معي زاهر الكامل الأسئلة التي وجهتها لي المذيعة فيما بعد، كان لقاء قصيراً في برنامج صباحي لفت أنظار الناس الى مغنية ثلاثينية خلف حنجرتها تكمن تساؤلات، نوهت الى بعض منها المذيعة، فكانت إجاباتي حذرة مقتضبة لم تتعدَ الى أبعد من الجوانب الفنية والمشاريع المستقبلية القادمة، بعيداً عن حياتي الشخصية ومفرداتها اليومية إلا من تلك الخطوط العامة العريضة.

لم أستطع نسيانه أو حتى التفكير بخسارته، فذهبت اليه ثانية رغم أن لقائي الأول به لم يكن مشجعاً، معاملته الباردة، نظراته المتوجسة المتهكمة كلها أطاحت بأحلامي في لقاء بعد أكثر من أربع سنوات غياب، عذرته أو لعلي إلتمست لنفسي باب أمل آخر أطل منه إليه. بعد نجاح الفيديو كليب الأول لي وتصدره المراكز الأولى وعلى مدى أسابيع في قائمة الأغاني العربية، إستعدت بعضاً من ثقة كنت قد فقدتها، فحزمت حقيبتي مسافرة الى البصرة.

في الطريق أخبرته بموعد وصولي، فوجدته واقفاً بإنتظاري، الأمر الذي عزز معنوياتي ورفعها عن سقف الإحباط الذي منيت به في المرة الماضية.

أخذني الى شقته بدلاً من الفندق، شعرت بحنين كبير إليها فوافقت على الفكرة دون أدنى إعتراض، وطأتها بهدوء خشية أن تستيقظ كل أشواقي والذكريات، حبست دموعاً شارفت على الإنهمار، أوووه سنوات مضت والشقة كما هي فوضوية مزدحمة بدخان السكائر وأعقابها، الأواني المركونة

هنا وهناك، ملابسه المتناثرة، أزواج الأحذية المتخالفة، أوراق مبعثرة وكتب، وكأني تركتها بالأمس، حاول محرجاً أن يجمع بعضاً من الكؤوس والصحون المزروعة على الطاولة فزاد إرتباكه وهو يخطو بها نحو المطبخ، فبادرته: لا عليك تلك ليست أول مرة.

شعرت بالندم على تفوهي بمثل هذه الملاحظة بعدما رمقني بنظرة ذات مغزى، فإنكمشت على نفسي مؤنبة تسرعها. حمل حقيبتي الى الغرفة الأخرى التي كانت أقل فوضوية من باقي المكان، جلست على حافة السرير لبضعة دقائق صامتة لا أَجِد ما أقوله فشرعت بخلع حذائي.

كان هو أكثر إضطراباً مني، فبرح مقعده ليحضر لي كأس ماء، بدونا كأغراب نتعارف لأول مرة، إعتذر عن خطئه المتكرر في نطق إسمي، وضع مترين مسافة أمان بيننا، تلعثم لسانه وتبعثرت أفكاره، ورغم ذلك لم يتوانَ في التأخر عن أية فرصة في الحملقة والنظر إليّ، شعرت برغبته القوية في تقصي أبعادي، حتى خلته في مرات عدة أنه قد تعمد المساس بي ليستدرك بحواسه الأخرى ما يصعب على عينيه تمييزه وتصديقه، على حافة قميصي المفتوح أعلى الصدر لمحت عينيه واقعة تستنطق، فأقفلت الزر على فضوله، تأمل أصابعي وصبغ أظافري، حمرة شفاهي، وحقيبة يدي، عذرته... وأحببت فضوله في إستكشاف وتقصي من أنا، لكن...

٢

كانت الولادة عسيرة وقد أفضت بعد ساعات من الطلق الى عملية قيصيرية، لتتلقفني جدتي بين يديها بعد طول إنتظار وتهجد ودعاء بولد لإبنها الذي شارف على الخمسين، فوليت برعاية ودلال كبيرين، فأنا من سيحفظ لإسم أبي ذكره وإستمرار نسل أبيه وجده. لم يمضِ أبي وقتاً في إختيار إسمي الذي لمعت عيناه حين تلفّظه، فها هو يصبح حقيقة بعد أن كنّاه أصدقاؤه به منذ سنين، أبو غيلان.

لم تأنس جدتي بالإسم حينها كثيراً، كانت ترغب باسم نبي أو ولي حتى تطرح البركة في حامله، إلا أنها أذعنت لرغبة إبنها وكنيته القديمة، وقيل أن أمي كانت مسرورة فرحة بالنتيجة أياً كان الإسم.

تربع على عرش قلب أبيه، وهو يرقبه كل يوم في إنتظار حميم أن يصبح رجلاً ويتسلم عنه تجارة العائلة، غداً سيكبر غيلان ويزيح الحمل عن ظهري ويرعى أخواته من بعدي، لطالما عاش أبي على هذه الفكرة مردداً إياها على مسامع الجميع بغبطة، فيتهلل وجه أمي وهي ترد عليه: طيلة العمر لك يا أبو غيلان.

أمسى غيلان مبعث سرور وبهجة للبيت، بسيمائه الدقيقة الجميلة، شعره البني الناعم، وعينيه اللوزيتين برموشها الكثيفة المعقوصة، أنفه المرتفع الحاد، وفمه المكتنز، بهذه الصفات نافس شقيقاته، حتى أن بعض الأقارب والجيران أجمعوا أنه الأجمل بينهن، خشيت أمي وجدتي عليّ من أعين

الحساد، ومع كل نوبة حمى أو إنفلاونزا، تبخر أمي البيت بالحرمل والشب، ولا تكف عن تحصيني كل يوم بالمعوذات.

كذلك لم تسمح لي باللعب خارج البيت كسائر الأطفال، وإن إنتهزت في أحيان كثيرة إنشغالها عن مراقبتي فأجري مهرولاً الى الشارع نحو الفسحة القريبة التي إتخذ منها الأطفال ساحة للعب كرة القدم.

لم يكن أدائي مقنعاً لبقية الصبية، فكان نصيبي أن أجلس على دكة الإحتياط أو جلب الكرة حين تخرج من الساحة، ولا أنسى كرمهم في السماح لي بالمشاركة معهم في آخر الدقائق، في قرارة نفسي كنت مكتفياً بهذه الدقائق ولم أطمع بأكثر منها رغم سخرية شقيقتي وإستشاطتها غضباً مني محرضة إياي على المطالبة باللعب معهم كل الوقت.

كنت ألمحها من النافذة العلوية تراقبنا كصقر متأهب، فهي من أقنع والدي بشراء كرة قدم مميزة لي تشبه كرات المحترفين لتسيل لعاب الصبية وتحثهم على دعوتي للعب معهم رغم خيبتي الواضحة في هذه اللعبة، وما أسببه من خسارة للطرف الذي العب معه، وكتسوية يرضى بها الجميع عرضت عليهم أن أكون حامي المرمى، الذي لطالما راودته الكرة مشاغلة فدخلت مرماه، على وقع صياح وشجب الصبية.

آه أختي كم كنت حنوناً معي! وكم أنا آسف لما سببته لك من ألم وحسرة، أفنان شقيقتي الغالية هل تغفرين لي كما عهدتك دوماً متسامحة مع هفواتي وزلاتي؟ أدرك أن خطأي في تلك المرة كان كبيراً لا يغتفر، لكني لا أزال أطمع بصفحك رغم كل ما حدث، لا أدري كيف إنسقت خلف عاطفة غير ناضجة، لكن ما حدث لا تفسير له سوى ذلك المضي المجنون

وراء رغبات جسد يتضور، وفضول أكبر لمعرفة الآخر، ليس هناك ما يبرر خسة فعلي، كنت حينها وحيداً في المنزل عندما طرق الباب، ففتحته وأنا بملابس بيتية خفيفة تروح عني حر الصيف، لمحت تلك الرغبة المستفيضة في عينين كادتا تلتهم مستكشفة كل سنتمتر في جسدي، إمتقع وجهه بحمرة وتلجلج صوته... لم أكن المبادر أبداً، وفِي الوقت ذاته لم أمانع ذلك... خذلتكِ أختي... خذلتكِ مثلما خذلت الجميع.

التجوال في الغربة وحيداً يبعث في النفس شعوراً مقيتاً بالقهر والعزلة، لكني أحث خطاي وأقتفي أثر ما رسمه لي القدر، حاولت مراراً التغاضي عن نداءاته، طمرت رأسي في التراب كالنعامة، إلا أنه كان أقوى من أن أتجاهله، من أن أعيش مع غيري.

تمر هنا الأيام ثقيلة خانقة، لا شيء ألوذ به منها سوى الصمت، والقليلين ممن تعرفت عليهم بحكم ظروف التغرب المشتركة وما تفرضه علينا من إملاءات، لا شيء يبعث على الشعور بالأمان أو الراحة، أسير نحو قدري بكامل إرادتي لكني خائف... سلسلة طويلة مؤلمة، كابوس لا ينتهي، فلماذا يا ربي كل هذا؟... لماذا؟!

حاولت أن أساير ما أنا عليه، سنوات من الكبح والضغط المتزايد، التصبر والدعاء، الصوم، إجهاد النفس بأنواع من الرياضة والتمارين الشاقة لعلي أوقف ذلك الرفض وإذلل تلك الحاجة، أخرج من تلك الإزدواجية المهينة وما يرافقها من ألم نفسي وتوتر لا طاقة بي على تحاشيه أو تجنبه، لم يدر في خلدي يوماً أن حياتي ستنحو الى هذا المفترق الصعب، من يظن أن غيلان

الإبن المدلل وولي عهدها هو الفراشة التي ستخرج من الشرنقة، هل أغدو فراشة يوماً؟

لا أتوقف عن سؤال الله لماذا كل ما أنا فيه، أقرب أحياناً من الكفر والإلحاد في الإلحاح على معرفة الجواب، ولا أسمع سوى بكاء روحي ونشيجها، رغبتها العارمة في الإنعتاق والتحرر من كل هذه القيود، ليتني أموت... ليتني... الموت صعب على أمثالنا، ألا يعرف هويتنا هو أيضاً؟!

المدينة مكتظة بالوجوه المتشابهة الصفراء الى حد الضجر، أصوات الباعة المتداخلة بالضجيج، صنوف من أطعمة معروضة تقرف منها النفس، كائنات تدب في الوعاء تؤكل نيئة، كل شيء صالح للأكل هنا، أتسكع في هذه الأسواق الشعبية المتراصة ببسطاتها، يلاحقني الباعة المتجولون، بت معروفاً لدى البعض منهم بسيمائي المختلفة، والحمد لله أني لا أفهم كل ما توسوس به أنفسهم، أكتفي بمساومة بعضهم والشراء من الآخر لأجل إمضاء الوقت الثقيل، وإزاحة العقل الى ضروب أخرى.

في البدء وجدت صعوبة في التأقلم على هذا المكان وهذه الأجواء الغريبة عني كلياً، لكن الأيام تلاحقت جارة أياي الى الأزقة والأسواق، وبتحفظي المعهود جالست بعضهم في الأماكن العامة والحدائق، وعلى وجه التحديد نزلاء الفندق المقيمين بشكل شبه متواصل وعلى فترات طويلة.

الرحلة شاقة للغاية، ما كنت أظن أن الضريبة مرتفعة هكذا، في العزلة لا أَجِد ما أفعله سوى الإنكماش على نفسي والتقهقر داخل قشرة اليأس والكآبة، تحكم الأدوية مزاجي بشكل كبير، تتلاعب بأعصابي ومديات

قتامة روحي، فتعلو وتهبط على سلم إنفعالاتي، أدور في الدائرة ذاتها منذ سنوات، منذ سنوات وروحي لا تعرف الهدوء، لا شيء معي يؤنس وحشتي، حتى الذكريات تؤلمني في أحيان كثيرة، فأعود الى غلق مسرى تدفقها مصمماً على المضي الى هدفي، الإنعتاق من سجن ولدت فيه، وقضبان المجتمع تحيطني.

في الدراسة الإعدادية كان لأصدقائي معجبات وحبيبات، يتبادلن معهم الصور والرسائل الورقية المعطرة بالحب واللهفة، فهذا حبيبته طالبة إعدادية وذلك في المنزل تركت الدراسة، وآخر إبنة الجيران، كنت بينهم كالمعتوه وأنا أصغي لأحاديثهم ولواعج قلوبهم الصغيرة التي سخرت منها، لم أندهش حينها بأن قلبي لا يزال معي، ولم أهبه الى أي فتاة بعد، ظن الكثير من زملائي أن وسامتي البالغة تقف حائلاً أمام الفتيات دون الإقتراب مني، فكنت موضع تندرهم ومقارنتهم مع الفتيات.

لم أعر إهتماماً لتلك النوادر السخيفة، وأوليت السبب الى أنني صغيراً على تلك الأمور التي يشغل الصبيان بها أنفسهم، فقد أخذت دروس الموسيقى وولعي الشديد بآلة القانون مني معظم وقت فراغي المسروق من أهلي ورعايتهم المستفيضة.

توقفت شاحنة نقل كبيرة أمام بيت الجيران الذي ظل فارغاً على حكايات الأشباح والجن تلوك أهل المحلة قصصها، وبدأوا بتفريغها من الأثاث ونقلها إليه، فهرعنا نحوهم نراقب ما يحدث عن كثب، بعد أن أجلنا لعب كرة القدم، مضى بعضنا مقدماً المساعدة، وجلست أنا وآخرون على حافة الرصيف القريبة نكتفي بالمشاهدة، تتبع عيوننا حركاتهم.

تعرفنا على الصبي الأسمر بقامته الممشوقة التي تشي بنضج صاحبه المبكر، وأخته كما حسبنا للوهلة الأولى، وهي تمسك بطرف مرفقه مستنجدة من الوجوه التي تحلقت حولها مبحلقة.

أولى أهل المحلة عناية بالجيران الجدد، فتناوبت صواني الغداء والعشاء على بيتهم على مدى ثلاثة أيام، ولم تتوانَ النساء عن تقديم أي مساعدة أو إستشارة الى الجارة الجديدة.

بت مشدوداً الى سماع أخبارهم حيث أمي تسردها على المائدة لأبي، وهو يتناول طعامه مستعجلاً كعادته في سباق يومي مع الوقت لأخذ قيلولة الظهر قبل أن يخرج الى العمل ثانية في نسق حياة لا يتغير غالباً.

كان والده قد أملى عليه تلك الحياة، وحين توفي لم يستطع أبي الخروج من ذلك الحيز الضيق الذي إختصره له جدي منها بعد أن ترك الدراسة في المرحلة الثانوية لأجل مساعدته في العمل، وأن (الشهادة ما توكل خبز) حسب رأيه، فإكتفى أبي بالمطالعة في الكتب والمجلات سراً، مشبعاً هوايته وملكته الشعرية التي جاهد جدي بنجاح في وأدها، مشدداً على أن تلك الأمور من شأن التافهين الحمقى، من ليس لديهم عملٌ سوى إنتقاء كلمات ورصفها بأخرى في رتابة أيام لا تنتهي، ولا تحمل لأصحابها سوى الفقر والكسل. كان مؤمناً للغاية أن في الحركة بركة وأن القلم والكتاب ليسا من أعمال الرجل الحقيقي.

بقسوته المفرطة أمسك بزمام حياة أبي، مركباً إياها كقطع الدومينو، زرقاء، حمراء أو صفراء، تدخل في إختيار أصدقائه، فقاطعه أغلبهم مستائين من ضعف شخصيته أمام والده الذي طالما قابلهم بوجه عابس نكد.

عملك هو صديقك الحقيقي، أموالك من ستسند نفسك إليها، وقت الضيق لن ينفعك أحد، ما هم سوى أفواه كبيرة تجعجع بالترهات لا تلقى ما تأكله، فتقتات الكلمات، لا عليك منهم يا ولدي... لا عليك، فأبوك أحرص الناس على مستقبلك وأكثر دراية منك بأولئك الفاشلين، أصبر وسترى هول مكابدتهم لحياة لا تحترم إلا من يلقمها الدنانير. كم أنا آسف عليك أبي، لا تستحق كل ما عانيته، حاولت... بحياتك الغالية أبي أقسم أني حاولت التصبر... الرضا بما كتبه الله لي، لكن من قال أن هذا ما كتبه الله!... أغفر لي، أدرك أني اليد التي صفعتك، وخذلتك، أبي إغفر لي لأجلك... لم أعهدك متقهقراً بائساً، يا إبن داود تماسك، كن صلباً كما رباك أبوك، تماسك أبي، لا أطيق فكرة أن أكون سبب ألمك وجرحك الغائر، سبب رقودك على فراش المرض هذا، أبي... لقد حاولت، فإشفع لنفسك ولا تعاقبها بجريرة إبنك، يا أبو غيلان لا أدري ماذا أقول لك، لعلمي أن ما من كلمات تطيب خاطرك، لكن إصفح عني لأجلك... لأجلك فقط.

كفكف دموعه التي إزدحمت بها مقلتاه، وهو يرقب خطوات الرجل المبتعدة تحت ضوء الشمس ممسكاً بيد إبنه ذي الثمانية أعوام تقريباً، وهو يردد هامساً بين شفتين مرتجفتين: لا تخذله، لا تخذله. وإنخرط بين الجموع مع دموعه المتزاحمة على خده الشاحب.

بعد حب غامر ومشاعر جياشة ألهبت صدرها طوال سنوات الدراسة في الكلية، فسخت شقيقتي خطبتها من حبيبها الذي كان يوماً ما غاية وأقصى أحلامها، فوجيء الجميع برغبتها هذه التي قوبلت بإصرار شديد على معرفة السبب.

لم تتفوه أفنان بأية كلمة، ورفضت الإجابة عن كل الفرضيات التي طرحها أهلي أمامها، وكذلك عن الحلول، حين إجتمع بها أبي في غرفة الضيوف، مطالباً إياها بمعرفة السبب الفعلي وراء ذلك، ولا أظنها باحت له بشيء سوى الدموع.

فأرجعت أمي الهدايا وكل ما يتعلق بالمهر الى أهل الخطيب، وتكفلت أفنان بتمزيق فستان حفلة المهر الوردي اللون الى قطع صغيرة، تحاكي شظايا فؤادها.

ولم يجرؤ أحد بعد شفائها من المرض الذي أطاح بها ناخراً عافيتها ومسبباً الهزال لها أن يفتح أو يشير ولو ضمنياً الى الخطيب الذي جاء اليها أكثر من مرة متوسلاً طالباً الصفح.

يا لتلك الأنانية التي دمرت أحلام الآخرين وحياتهم، لم أستطع أن أكون بعدما حدث وجهاً لوجه معها، وتجنب كلانا التواجد مع الآخر في المكان ذاته حتى سافرت.

أتحاشى أعين المارة، ألبس الثياب الفضفاضة المحايدة الألوان والتصميم، ألملم نصف وجهي تحت نظارات سميكة، فأكثر ما أحتاجه هو الهدوء والسكينة الداخلية، سنوات الغربة والترحال من مكان لآخر لم تجر عليّ سوى فراغ مقيت يعتصر وجداني كل حين، في تركيا شاركت مرة العيش في شقة أحد أصدقاء المهجر كنوع من كسر روتين العزلة والصمت الذي يلفني بردائه الثقيل، مضت الأشهر الأولى بسلام مع أخذي بكافة الإحتياطات اللازمة، لكن عندما أدرك بفضوله وحاسته الرجولية النفاذة، أخذ بملاحقتي وملاطفتي طامعاً فيّ.

لم أستسغ عينيه المتحريتين المصوبتين نحوي، ورغبته التي بدت تحتلهما، فتعمد في مرات عدة ملامسة يدي أو فخذي دون قصد.

لا أحد بجانبي أثق به، حتى الباعة أقرأ في عيونهم ذلك الإستفهام، وحين تضايقني نظراتهم أعمد الى تغيير المكان، أن تقضي كل الوقت مع ذاتك لهو أمر مرير للغاية ويبعث على التفكير ملياً في إنهاء معاناتي، فما أنا سوى كائن منبوذ لا تُعرف هويته، أحمل على كتفي أوزار أخطاء لم أتعمد حدوث أغلبها، فتراكمت فوقي كجحيم.

أمسى التخلي عن كل شيء والمغادرة غاية أستعذب بها وجودي المقيت هذا، ساعات من الإستغراق في عقل خيم الظلام على ثنياته، بإنتظار لحظة حاسمة يصدر فيها قراره، كنت قد غرقت في نوم عميق بفعل قرص (الفاليوم) بعد أن قطعت وريد الرسغ مستلقياً على السرير، ولم أفق بعدها إلا ونور وأخيلة وجوه تحيط بي ظننتها لوهلة ملائكة، الدم الذي نزفته أدخلني في غيبوبة لثلاثة أيام، كنت خلالها في العناية المركزة بعدما دخلت إحدى عاملات الفندق بالصدفة الى غرفتي لأجل تنظيفها فهالها المنظر، غرقت في حزن شديد بعدما صحوت مرة أخرى على واقعي، يا الله لِمَ كل هذا؟ لِمَ يصعب عليك موتي! مثلما صعُب عليك تحديد من أنا؟ أحقاً كان خياراً صعباً عليك؟... أحقاً صعُب عليك ذلك؟!... يا الله أنا أتيه في معصيتي، لا أَجِد السبيل اليك، لا أَجِد، ما عساني أفعل!... ما عساني أفعل بهذه الحياة، وكل من حولي يعافني مشمئزاً أو طامعاً بي، أنا إنسان، أنا إنسان ولست كما يظن الكثيرون... أنا إنسان.

وإنخرطتُ في موجة هيجان وذعر من مواجهة ألم واقعي ثانية بعدما ظننت أني قد عبرت الحدود الى مملكة الله ليعلمني من أكون؟ لم يوقفها سوى حقنة دواء مسكن.

قوة شخصيته وشكيمته جعلته يبدو أكبر منا عمراً وأكثر نضجاً، فتحلق حوله صبية الحي طالبين وده، بالأخص بعد أن أبدى مهارة ملحوظة في لعب كرة القدم والمراوغة مع الخصم، كان بيتنا الأقرب الى الجيران الجدد لا يفصلنا عنهم سوى بيت واحد، فشعرت أن لي الأولوية في كسب صداقته مع إبنة عمه الصغيرة التي عبثنا معها مرات مغافلين إياها تعد حتى المئة مغمضة العينين لتفتحها دون أن تجد لنا أثراً، فتعود الى البيت باكية شاكية هروبنا الى عمها الذي يمسح برفق على رأس إبنة أخيه المرحوم.

أصبح فاروق صديقي الأقرب من بين الجميع ومحط ثقة أهلي، كان جواز المرور الذي أخرج به من البيت دون أن ترافقني الى الباب نصائح أمي المطولة وتحذيراتها القلقة، ولا تنسى في كل مرة أن تختم بالقول "رجلك على رجل صاحبك، مو تغيب عن عينه".

"وينج يمه تجين تشوفين شنو صار بيه!"

ومسح دمعة خاطفة بالعاً ريقه على غصة.

أمي كيف إستطعتِ غض الطرف عني؟ هل أقنعتك بناتك بضرورة التخلي عن إبنك؟ لا أكاد أصدق أنك قد نبذتني، وإنزلقتِ خلف لوائهن، أحقيقة ما قالته وجدان لي؟ أكانت رغبتكِ أنت أيضاً؟!

لن أنسى نظرتها المزدرية تلك، لن أنساها، وهي تتفحصني من أخمص قدميّ الى رأسي بإشمئزاز واضح وكأني بضاعة عفنة تسربت رائحتها، يالله كم كانت قاسية! وكم كنت غبياً حين هرعت اليها فاتحاً ذراعيّ! فأشاحت بوجهها عني متجهمة، جلست على طرف المقعد، رمت كلماتها الباردة مع مغلف ورقي أسمر اللون بعجالة على الطاولة، إبتعدت بناظرها عني قاصدة وهي تقول: هذه النقود لك، خذها وأرحل بعيداً عنا.

شعرت بوضاعة بالغة، ككلب تلقمه عظمة ليكف نباحه، ألهذا القدر أمسيتن تخجلن بي؟ حتى أنت يا أمي تشعرين بالعار من غيلان! هل هذا هو ثمن إبتعادي؟

وأكملت حديثها المقتضب بملامح صفراء: أعتقد أن هذه النقود تكفي للفترة القادمة، وإستأذنت خارجة دون أي وداع ولو بنظرة خاطفة. كنت قد لمحت قسوتها من قبل معي، لكن أبداً لم أتوقع أن تحشد كل هذه الكراهية والحقد تجاهي، ما تلبث تذكر أن ولادتي كانت كلمة الفصل لأولئك الذين كانوا يطلقون كنية أم وجدان على والدتي، رغم أن أكثرهم لم يفقد الأمل بقدوم غيلان.

أمعقول أن تستحوذ مشاعر الغيرة على قلبها الى الحد الذي ينسيها فيه روابط الدم والأخوة؟!

وجدان هل إتخذت على عاتقك أمر عرض هذا الاتفاق عليّ؟! وأين البقية؟ وماذا عنك يا أم غيلان هل راقت لك بنوده؟! لكم أعجب مما جرى، لكم أعجب؟... لا أفهمك، لِمَ العجب؟! وأنت العجب ذاته... صه صه لا أودّ سماعك اليوم، أنا في إجازة منك، فهلا صمت رجاءً.

وإتجه الى الثلاجة يصنع له لفافة خبز مع الجبن والخيار يأكلها واقفاً كعادته معظم الأيام، لا مائدة ولا كراسي أنتمي اليها.

أعمد أحياناً كثيرة الى تبرير موقفه مني، وجمع ذرائع وأعذار تفلح في إقناع نفسي الثائرة ضده بعضاً من الوقت، لتنهار بعدها تلك الحجج أمام سيل غضبي المتوحش مما يحصل لي، تحاشى اللقاء بي في الفترة الأخيرة، متعللاً بضيق الوقت وإنشغاله بالعمل الجديد ومتطلباته، سافرت دون أن يودعني، مكتفياً بمكالمة هاتفية قصيرة، يحثني فيها على توخي الحذر ملمحاً الى عدم التسرع في قراري ومراجعة النفس.

لم أَجِد كلمات ترد عني شوق إفتقاد صديقي الوحيد، فإكتفيت (بأن شاء الله)، وددت أن أسأله هل يكون موجوداً حين أعود؟ خشيت أن يجيبني بدافع الحرج أو الشفقة، فختمت هامساً: كن بخير صديقي.

تلك المرة الأولى التي نفترق بها عن بعض، في المدرسة عانيت من رؤوس الطلاب الشاخصة أمامي، وأنا أجلس كل سنة في الرحلة الأخيرة مع فاروق الذي كان في الغالب أطول تلميذ في الصف، عجز المعلمون على إقناعي بالجلوس على المقاعد الأمامية، فتركوا لي حرية الوقوف على قدميّ معظم الدرس لأجل رؤية ما على السبورة.

تمتع هو بذكاء فطري وحقق درجات جيدة في الرياضيات والفيزياء، وتمكنت أنا من تمرير شتائم كثيرة عليه باللغة الإنكليزية، كانت لديه محاولات جميلة في كتابة القصيدة رغم أني من كان المولع بدرس الأدب وبشعر السياب على وجه الخصوص بعد أن عرفت من جدتي أن والدي قد

أطلق أسم غيلان عليّ تيمناً باسم إبن السياب، لم أكتب بيتاً واحداً، لكني أبديت إهتماماً ملحوظاً بالموسيقى، فجارى أبي ذلك الشغف ولم يجهضه تلبية لرغبة أمي المتخوفة على مستقبلي الدراسي، وإتفق مع أحد الموسيقيين أن يدربني على عزف القانون، الآلة التي عشقت صوتها، وطريقة تموج الأنامل بإنسياب رقيق عذب على أوتارها، ملمس خشبها الدافيء راقداً في حضني، كنت نبيهاً الى ملاحظات المعلم، وتمكنت من إتقان العزف عليها بعد خمسة أشهر من التمارين اليومية الجادة، إلا أنه قد تنبه الى جمال صوتي، وأشار عليّ بتطوير وتمرين طبقاته والسيطرة عليها، مضيفاً أن لصوت شجي كهذا مستقبلاً زاهراً في عالم الغناء،

فبدأت شحذ تلك الموهبة بسماع أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب ومغني المقام العراقي وناظم الغزالي وداخل حسن وآخرين، والغناء لهم في الحفلات المدرسية مثيراً إعجاب المدرسين والطلاب على السواء، كذلك لم يتوانَ الأهل والجيران في مطالبتي بالغناء في حفلات أعراسهم على مضض من أبي الذي لم يقف عائقاً أمام طموحات ورغبات ولده الوحيد، معوضاً إياي كل ما إفتقده في أبيه، فغمرني بعطفه ودلاله... وأنت ماذا صنعت له بالمقابل؟ ماذا صنعت سوى؟!... أصمت، ما بالك ألا تعرف أن تخرس!؟

كانت الدراجه الهوائية الزرقاء هدية والدي لي بعد إنتهاء السنة الدراسية الأولى في المدرسة، عارضت أمي بشدة خياره وخشيت عليّ أن ألعب بها خارج البيت في الشارع الفرعي، فإستغلت أفنان الفرصة وأخذت تلعب بها في فسحة الكراج والحديقة، ولم تتوانَ عن ركوبها خارج البيت ليلاً هي

وصديقاتها، كنت أَجِد متعة أكبر في أن أجلس خلف أفنان وهي تقود الدراجة، أمسكها بكلتا يديّ لئلا أسقط أرضاً، إلا أن ذلك لم يحل دون وقوعنا وتضرج أجسادنا بالجروح والخدوش خاصة ركبنا التي ظلت تحمل آثار تلك المغامرات الطفولية حتى الآن، كنّا ننهض ضاحكين، بعد أن تتأكد أفنان من سلامتي وعدم إصابتي الى الدرجة التي تقرعها فيها أمي وتمنعها من إمساك الدراجة التي وهبتها لها سراً مقابل مشاركتها عالمها الوردي المخملي.

كبر كلانا وصدئت الدراجة التي شهدت فصولاً طويلة من المطر، ترزح خلف البيت مع بقية ألعابنا التي بقيت صغيرة لم تكبر.

أفنان أختي الحبيبة، كيف حالك؟ أرجو أن تنعمي بالراحة والهدوء، ألا تزالين شغوفاً بنجمنا ذاك الأحمر الذي يلمع من بعيد؟ هل تلمحينه من نافذتك؟ من مكاني هنا لم أعد أراه يبرق كما السابق في إشارات ملوحة نكركر على إثرها راكضين خلف بعض في لعبة شرطي وحرامي، ما أفتأ أسمع صدى صياحنا وزعيقنا كلما صادفت أطفالاً يجرون لاعبين.

كوني بخير صديقتي... وإغفري لي، كما كنت تفعلين دوماً، إغفري لشقيقـ... لا أظنها تغفر بشاعة صنيعك معها... إخرس.

كيف أمضي ما تبقى لي من الوقت معك بهذا الأسر؟ الهواء ثقيل، الساعات تجر بعضاً، أرتجف خوفاً من تلك الساعة رغم إنتظاري المرير لها، ترتعد أوصالي حين أفكر بتفاصيلها، نعم أنتظرها لكن...

لم أهتم لدروس السباحة التي أولاها والدي إهتمامه، وأدركت خطأ إهمالي لها في تلك اللحظات التي كدت أختنق فيها غرقاً، حين حاول أثنين من الصبية التحرش بي وبكلمات نابية ناداني أحدهم، حاولا الإمساك بي عند جانب النهر المستظل بشجرة الصفصاف العجوز، أمسك أحدهم يديّ الى الخلف بقبضته الشديدة والآخر حاول نزع... كنت خائفاً أصيح، إلا أن صوتي تقطع، غطى الماء أنفي، شهقت روحي، بالكاد كنت أتنفس وأنا أركله بقدميّ مستغيثاً بصديقي فاروق الذي إبتعد مع الصبية الاخرين عند الطرف البعيد من النهر، للحظة توجست من قدرتي على مقاومتهما والماء الذي ملأ فمي بطعم لزج مالح ومر وأنا أنتظر.

الإنتظار بدأ يأكل روحي ويصيب عواطفي بالبلادة، أنام لأصحو وأصحو ولا أَجِد ما أفعله سوى التفكير والتفكير، وهنت عضلاتي في غرفة صغيرة، أتمدد معظم الوقت على سرير لم يعد يسع هواجسي وشكوكي، ما أنا فاعلـ...؟! ما عادت المرآة ترد، أصابها خرس مقيت، رائحتي كريهة وقد تشبع أنفي بها، أمسى الإستحمام أمراً مزعجاً لجسد متراخ هزيل، شعري ينمو أربطه بخيط بلاستيكي على شكل ذيل الحصان، وقد خاصم المشط أغلب الوقت، تمضي أيام ولا يكاد يلمسني ضوء الشمس، تتنازع ساعات الليل مع النهار، وكسلي يمنعني أن أزيح طرف الستارة لأتأكد من ظنوني، فعتمة الوحدة تغرقني بظلالها، لا أدري كيف أكمل، من أنا؟!... سؤال بات يلح عليّ أكثر مما مضى، أفقد معه التركيز، يطن في أذنيّ كنحلة، من عسايَ أكون؟... من أكون؟! لا بد أن الدواء الذي وصفه الطبيب هو السبب، جسدي ما عاد قادراً على حمل أوجاعي، هشة هي الحياة، كابوس لا أصحو منه.

الغربة صعبة مدمرة، ولا يصلك من الأهل سوى النزر اليسير من أخبارهم في رسائل بعيدة متقطعة تحمل بين سطورها ذلك العتب واللوم المغلف بالخشية والحرص عليّ، خصوصاً بعدما قص أحد المعارف على والدي وأضاف الكثير من التوابل والمبالغات على صدفة لقائي إياه في ميدان تقسيم بإسنطبول، وكيف أن الزمن قد فعل فعلته بغيلان الشاب الوسيم من شحوب ونحول باد عليه الى نحو مثير للشفقة والتعاطف. ليلتها تراجعت صحة والدي أكثر من ذي قبل، ونقل قبيل الفجر الى المستشفى في جلطة قلبية أخرى (أبوي راح يموت بسببك يا غيلان) كان الموت عليّ أهون من قراءة رسالة سوزان المقتضبة وسطورها المؤلمة.

لا أستطيع الجزم بأن ذلك الرجل قد بالغ في ردة فعله ووصفه حينما لمحني بين تلك الحشود غريباً منهكاً يلاحق مبتغى بات مثاراً للتعاسة والريبة والأسى.

عاملة النظافة تشكو إهمالي، ورائحة الغرفة العطنة بالأطعمة التي تعفنت في الأكواب والصحون المركونة هنا وهناك بشكل مزعج، جعلتها تتغافل متعمدة عدم المرور بغرفتي، وقد شكتني الى المالك عدة مرات، تضع الكمامة على أنفها من قبل أن تدخل، ولا تكمل التنظيف إلا وفمها غاصٌ بالشتائم، كببغاء ترددها على عجل لا أفهم إلا القليل منها، هي الأخرى تشك بي، فتجلدني بأرذل الصفات، وهي تلملم ثيابي المتناثرة بتصاميمها المختلطة الأشكال والمختلفة في نفور بالغ ألمحه على وجهها حين تضعها في سلة الغسيل، الحمد لله كنت أدعي عدم الفهم فلا أرد على أسئلتها التي تمادت في الفضول والوقاحة.

أترك شعري منسابا خلف أذني تحت قبعة، أرفع قليلاً طرفا ياقة القميص الفضفاض المقلم، وأخرج قبيل المغرب، تاركاً خلفي عيون بعض المارة الفضوليين، عند المقهى المجاور أجلس منزوياً قريباً من النافذة المطلة على الشارع الفرعي الأقل إزدحاماً، بات النادل ملماً بطلبي، فيأتي به الى طاولتي قبل أن أسأله، في البداية كان متحفظاً في التعامل معي، أبصر في عينيه ريبة زال أغلبها مع الوقت، وحل نوعٌ من الإحترام لخصوصيتي دون أدنى إستفسار، فألفت هذا المقهى وصرت من رواده الذين يُحتفى بقدومهم، أحاول أن لا أشرب بشكل يومي، فكؤوس الخمر لا تجلب لي سوى البكاء والحسرة على حالي.

لا ألومهن... لا ألومهن... لكني أعتب عليك أمي، كيف إستطعتِ؟! كيف هنت عليك؟ كيف هان عليك غيلان! أيعقل أن حديثهن المؤلب ضدي قد أصاب مرماه في قلبك!... لا تنكر أنك كنت السبب في وفاة أبيك... لا أودّ أن أسمعك، فهلا خرست.

الغد يوم آخر يشبه ما قبله، ولا يقل مللاً عما بعده، فلأخلد الى النوم. لا عزاء لمثلي، حتى أمي لم تستطع أن تتفهم فلذة كبدها، وإنساقت خلف أنانية أمومتها... لأخلد الى النوم... الى النوم.

٣

لماذا لا أشعر بالراحة؟! وقد تحقق جل ما صبوت اليه في حياتي، فراغ معتم يخيم على روحي، ثقب لا أستدل اليه لكني أحس به يتسع في أعماقي، سوسة لا تنام تنخر في قلبي وتقض مضجع سعادتي، عقلي يرزح تحت وطأة إسئلة تتبرعم وتزهر يوماً إثر يوم دون أدنى أمل بقطع تلك الشجرة أو تشذيب أغصانها المثقلة.

بت واثقة أن أعواد ثقابي قد أوشكت على النفاد قبل أن أستدل على مصباحي، أحياناً أفقد الأمل في وجود ذلك المصباح وانا أحث سيري متعثرة في الظلمة بحثاً عنه، لا أطاوع وساوس عقلي، لكني أستسلم في مرات كثيرة أمام أمواج كآبته حين تجتاحني ولا أرى بصيصاً لضوء.

النجاح عصي عنيد يراوغ أصحابه، يقطع بهم السبل اليه ولا يأتي، إلا أنه قد وفى بوعده هذه المرة، فإرتفعت وتيرة هواجسي في كيفية الحفاظ عليه بعد نجاح أغنيتي الأولى الى مراحل لم أكن لأحلم بها، لكن هكذا هو النجاح يأتي مكفولاً بحظ كبير، وصار لزاماً عليّ أن أحافظ عليه بمزيدٍ من الحرص في إختيار الأشعار والألحان التي تناسب شخصية صوتي وجمهوري.

إنشغلت بالعمل المكثف عني وعن ذلك الصوت الذي يتسلل الى أحلامي لأصحو مبتلة بعرق الضيق والإذلال، لكني أسير الى جادة النجاح والشهرة في توق هائل للتعويض عن كل ما قاسيته من رفض وإزدراء.

أضحى إهتمامه بي جلياً واضحاً، تعدى حدود العمل والمجاملة، لم ألقَ بالاً الى نظراته المنفلتة نحوي متقصية، تظاهرت بعدم الإنتباه والإنشغال عنه بدعوى البحث عن قصائد وملحنين لألبومي الجديد بعد تصدر أغنيتن فيه وعلى التوالي الى المراكز الأولى وصار يشار الى إسمي بالبنان في الأوساط الفنية.

حاول التلميح مرات عدة بكلمات مقتضبة وغزل يمارسه أغلب الرجال لكني لم ألتفت لأي منها، فأمامي هدف أهم وأكبر من متابعة تموجات مشاعر كامل الزاهر وقصص غرامه مع الفنانات، كما أني لست جاهزة لمجاراة هكذا عواطف وعلاقة بعدما حصل معي هناك في البصرة مع...

ما بالي اليوم؟ أفتح جرار الماضي بحثاً عن عسل الذكرى رغم أني لم أذق إلا مرارتها، تقول لي الطبيبة في كل لقاء دعي عنك الماضي لا تراجعي معه التفاصيل والأخطاء، إغلقي عليه الأبواب ولا تفتحي له، الكلام سهل يا دكتورة... سهل هو الكلام، العبرة في التطبيق، العبرة في التطبيق يا دكتورة إخلاص.

إشتد الحر على ساحل البحر، وتزاحمت الذكرى، فلأنهض... لست من هواة التمدد تحت سطوة الشمس والإصطباغ بلونها... أمامي حفلة الشهر المقبل، فلا مزيد من المفاجأت.

مشت فوق الحصى والرمال الناعمة تجد طريقها الى أصابع قدميّ غفران عبر خف البحر الخفيف البلاستيكي، شدت قبعتها البنية بأطرافها المتسعة على جانبي وجهها وهي تصعد نحو فندقها المطل بنوافذه الكبيرة وشرفه الأنيقة على البحر.

الوحدة تؤلم الروح، ليتني ما إستمعت الى نصائحك، إلا إنها كانت محقة رغم كل شيء، أحتاج الى الوقت لفض نزاعات ومساومات تكدست في قاع الذات حتى أثقلتها، ما عاد الهروب مجدياً... نعم أعترفتِ أخيراً أنك طوال نصف قرن كنت هاربة... ليس هروباً، بل عدم مواجهة... بلى هو هروب ولا تعودي الى غيك ثانية... إذن سمه ما تشائين، فلست اليوم بمزاج حسن لتقبل نزقك هذا، فإصمتي... هاهاهاهاها إذهبي، سأبقي لك الباب مفتوحاً، فلا تجزعي... إخرسي هيا، لا أظنني سأدق بابك اليوم، فهيا أصمتي.

إبتعدت عن بوابة الفندق، ثم إستدارت تكمل طريقها مستعينة بظلال المباني والمحلات، ما من وجهة محددة لها سوى الإبتعاد عن طقس روحها وغيوم العتب والسؤال، لكنها أبداً لا تستطيع صم أذنيها عن ذلك الصوت المجلجل.

يا له من وقح! أخذ بحذافير النصيحة وكأنه بإنتظار أن أسديها اليه، وقح... دعك منه الآن، وإتركي عنك التقصي في هاتفك النقال كل فترة، إطمئني لن يرن... هذا أفضل، بنغمة غضوب ردت وألقت به الى قعر حقيبتها، رادة عن نفسها التهم المنسوبة اليها.

من كان يظن أن تلك الرسالة قد تقع بين يديه! يا الله لا أزال أتذكر ذلك الموقف كأنه اليوم، تصلبت بطة ساقاي، ثقل لساني بدعاء تأخر في الوصول الى الله، فما كان أن فتح تلك الورقة الوردية المطوية بين الصفحات، فضوله كان كبيراً في تعقب تلك السطور القاتلة: لا أشعر بالإنجذاب الى فاروق،

فقد إستدرجت كل مشاعري اليه، لكن دون جدوى، لا أستطيع التوقف عن التفكير...

أكمل قراءة تلك السطور القاسية وحده، ومضى مسرعاً، لا شيء خلفه سوى صوت الباب المرتعش، لم تسعفني أية كلمة حينها، فأمسكت قلبي وصمتّ.

كان قد مضى شهر على تلك الرسالة بين أوراق الكتاب، وكدت أنسى أمرها لولا لحظة إمساكه بذلك الكتاب متصفحاً... مصائب قوم عند قوم فوائد، فرصة من ذهب... لكني لم أفكر بهذا الأسلوب الرخيص... لا تنكري، أنها جاءت لصالحك، إياك والإنكار أمامي... لا أنكر، لا أنكر لكن ما وددت أن يصدم بهذه الطريقة... مشيئة الله وتدبيره... مر حينها أكثر من أسبوع دون أن ألتقيه في الكلية، أو عند طرف المحلة، إختفى تماماً، خشيت عليه إلا أني لم أطرق عليه الباب، وفضلت الإنتظار، لا يرغب فاروق أن يطلع أحدٌ على ضعفه وإنكساره، وفِي اليوم العاشر رأيته عند باب الكلية بأبهى حلة، حليق الذقن، أخفى ببشاشته الشحوب والفتور الذي بدا على وجهه وعينيه، لم أنبس ببنت شفة معه حول موضوع خطيبته.

هو أيضاً لم يستفهم مني أية تفاصيل أخرى، رغم أني لمحت على طرف لسانه أسئلة وإستفهامات منعته كرامته من الإسترسال والتحري عنها. نسينا الأمر برمته كما كنت أظن لولا شروده وتلك النظرة الخذلى التي أخذت حيزاً في عينيه.

من الصور في قائمة الطعام طلبت (دولمة) وتفاجأت أنها مكتوبة باللغة التركية بذات الإسم مع إختلاف ربما قليل في اللفظ، النادل فهم ما قلته قبل

أن أشير الى الصورة، ضحكت في قلبي من تداخل المفردات وإنتقالها من لغة الى أخرى دون أي خشية أو وجل، وأمسكت دمعة حرى في مقلتي، تسللت الى خدي بعد حين وأنا أستجمع صوراً بعيدة ظننتها قد تلاشت بفعل تعريات الزمن على قلبي ووجداني، عندما كانت أمي تجلس بقرب القدر الكبير وحولها شقيقاتي يساعدنها في تحشية ورق السلق أو العنب ولفه على شكل أصابع أنيقة، وكم وددت أن أشاركهم هذه الطقوس الإحتفالية إلا أني كنت أجابه بالرفض دوماً لتقتصر مشاركتي معهن على النظر أو جلب بعض الأشياء اليهن من البقال المجاور.

إعتدت أن أكون أول من يتذوقها ويعطي رأيه، بعدها ترسلني والدتي بصحون الى الجيران الذين ملأت أنوفهم رائحة دولمة أم غيلان التي إشتهرت بنفسها الطيب في الطبخ ودرايتها العالية في أغلب الأكلات العراقية ومشاركتها الطبخ في معظم مناسبات الجيران في أفراحهم وأتراحهم، آه يا أم غيلان... لم يتبقَ لك منه سوى الإسم، الإسم الذي لم ينزلق من لسانك كما فعل الزهايمر في بقية الأسماء والذكريات.

كنت أختلس من تلك الصحون المهداة الى الجيران قطعة أو قطعتين من الدولمة رغم تحذيرها إياي من العبث بها، أوووه ما تفتأ رائحتها الشهية تمسك بتلابيب ذاكرتي وحليمات لساني، ولا يسد محلها دولمة أرقى المطاعم.

نظرت في ساعة يدها تستطلع الوقت بعد أن أنهت غداءها، وبحركة لا إرادية أخرجت هاتفها الجوال... ما بالك تتقصين إشعاراته؟... لا أتقصى شيئاً فقط أنظر الى الساعة... وما بها ساعة يدك؟ ألا تفي بالغرض!

وضعت ثمن الطعام في الحافظة المخصصة لذلك مع بقشيش للصبي المنشرح التعابير، وقفلت عائدة الى الفندق تتحامى بواجهات المحلات والأبنية من شمس لا يتوانى فضولها عن بعث خيوط أشعتها نحو قبعتها الأنيقة والى الأجساد العارية الممددة تحت المظلات الملونة على ساحل البحر.

أصوات أمواجه تأتيها من شرفة غرفتها وهي تضطجع على السرير ممسكة برزمة أوراق ملأت سطورها قصائد وكلمات لشاعر شاب زكاه حسن اليها ممتدحاً خياله الخصب وشاعريته، لتغفو بعد أقل من ربع ساعة تاركة الأوراق جنبها تنام.

ضجيج وجلبة يأتي من الشرفة، جرجرت قدميها متثاقلة نحو مصدر الصوت، عروسان بسيارتهم المزينة بالبالونات والأشرطة الملونة مع جمع من الأصدقاء يهللون مغنين على ساحل البحر وهم يلتقطون الصور التذكارية لهذه المناسبة، كل الخشية أن تُمسح هذه الصور بعد حين من الزمن، كما فعلت شقيقتي وجدان عندما مزقت صور زفافها وصور المناسبات الأخرى التي جمعتها مع زوجها، أبن الجيران الذي إمتنعت عن الأكل معتصمة من أجله حين رفضه والدي، معللاً بأنه كسول إتكالي لا يستقر في عمل واحد، فما باله مع الزواج، إلا أنه وافق على مضض تحت إلحاح والدتي بضغط من وجدان التي كانت تبدأ صباحاتها مع فاصل من البكاء والتوسل لأمي، وقد بدت هي الأخرى غير مقتنعة به ألبتة زوجاً لإبنتها البكر بعد أن رفضت من الخطاب من هم أفضل منه بكثير.

وجدان تملك القليل من العقل والتفكير الصائب مقابل جمال أبدع الله في تصويره، فخلب فؤاد شباب المحلة بأسرهم، لكن ضيق أفقها أوقعها في

حب مع شهاب تكلل بزواج فيه من الشد والجذب ما أمات الحب وأذبله قبل أن يمر عليه حول، لتأتي بين فترة وأخرى مشدودة الشعر مزرقة الوجه إثر ضربات تلقتها منه في نزاعات تشتعل لأتفه سبب حتى بعد أن أنجبت منه ثلاثة أولاد، هددت برغبتها بالطلاق منه مراراً ومع أول كلمة مسترضية منه تحمل حقيبتها وتذهب معه رغم إصرار أمي عليها في أن تضع حداً حاسماً له، حتى بات البيت بأجمعه يتململ من سماع شكواها وقصص زعلها الكثيرة... فليبارك الله لكما هذا الزواج، وأن تحفظا هذه الصور بعيداً عن متناول أيديكم، هاهاها.

تحلي بالأمل يا غفران ما بالك؟ لا بأس أن نتعثر في المسير الأهم الوصول... وهل تظنين أني وصلت؟ بت أرتاب من حصيلة أفعالي... خذي دواؤك وكفي عن هذه الهواجس، ماذا أوصتك الطبيبة؟ هيا غيري ملابسك وإنزلي، الهواء عليل والأجواء على الساحل أخاذة.

أتعتقدين أن وزني قد إزداد هذه الفترة؟ وأخذت تطيل النظر الى تفاصيل جسدها الظاهرة من تحت الفستان، تقرص نفسها عند الخواصر وأسفل الكتف، وتشد بطنها الى الداخل وهي تستدير يميناً وشمالاً أمام المرآة... لا أظن أن هذا الجسد يستحق كل تلك التضحيات؟ فيا لك من أنانية! وأكملت تتفحص متأنية جيدها تخادع دمعة لتوقفها عن السقوط.

يوقعن باللوم عليّ دون أدنى حياء أو خجل: أنت أخذتِ أمنا بعيداً عنا، ما عدنا قادرين على رؤيتها كما السابق، لقد أبعدتها عن جذورها، لكني أحمد الله وأشكره على نعمة النسيان، تلك النعمة الحقيقية التي تدفع عنك ألماً كبيراً، حين ترى فلذات قلبك يطرحونك الى أحد أسرة دار المسنين والعجزة لا حيلة لك غريباً تواجه نوبات نسيانك وصحوك على بؤس

وكآبة العجائز، كم نحن قساة دون أن نشعر؟ ليتني جئت بكما معي وما إستمعت الى كلامها، يفوت الأطباء أحياناً التعلم من الحياة وخبراتها، لا أدري بت متضايقة من وحدتي هذه، منذ... أووووه لا تقلبي أوجاعك على جمر الذكريات، الطقس منعش في الخارج، هيا لا تضيعي فرصة الخروج بعد أن تزينتِ بهذا المظهر البهي المدهش.

ألقت نظرة أخيرة على ثوبها الأبيض المفعم بزهر سمائي عند الحاشية والأكمام، ولم يفتها أن تقلب في هاتفها المحمول بحجة معرفة الوقت والساعة حول معصمها تحاول إخبارها أنها هي من يلملم الدقائق بالثواني على عقربين كسولين يلهثانِ حول نفسيهما دوراناً.

ضاعت خطواتها مع زحام السياح على كورنيش بحر مرمرة الجميل، وجوه مختلفة، ألوان وأزياء غريبة، جلست على دكة قريبة من عربة لبيع قرون الذرة المشوية، حدثت نفسها بشراء واحد... واحد لا ضير منه، لا لن أكمله، آكل نصفه فقط أو حتى ربعه... امممممممم يبدو أني قد أكلته كله، كان صغيراً فلا ضير منه، وأخذت تتحسس معدتها خشية أن تجرها الى المزيد من التبريرات فتقع في فخ شهية محرومة.

كنّا نجري الى بسطة بائع الذرة (العرنوص) عند نهاية الدوام المدرسي، ولا نتركه إلا وفِي يد كل واحد منا قرن ذرة ننفخ فيه، حمر اليدين متقافزين، ما كان يحبه بقدري، فكنت أكمل قرنه بعد أن يأكل نصفه، إلا أن ثريا كانت تنافسني عليه، آه ثريا لقد نافستني عليه في أمور شتى، وكثيراً ما حسدتك وأبغضتك أحياناً أخرى... وما يزال أثر بصاقها رطباً على وجهك حين لمحتك آخر مرة، لن تغفر لك ما فعلته بها... نعم للأسف لا أظنها قد سامحتني أو حتى تفهمت وضعي... أية نرجسية أنت! بالله عليك كيف

تودينها أن تتفهمك! وهي ماذا عنها؟ ألم يدر في خلدك حجم وفداحة موقفها أمام الجميع وأنت تتباهين بأنوثة متقدة أمامها؟... لا تقسي عليّ بأحكامك هذه، وأنت أدرى بي، أرجوك، ليس اليوم، دعينا نعش اللحظة هذه، ألا تنظرين أمامك الى الجموع الغفيرة! ما لك تديرين ظهرك اليها وتحصين أنفاسي؟ أنظري الى الأمام ما عاد مجدياً ما تصنعينه معي لم يعد مجدياً، أرحمينا. وأكملت سيرها على ساحل البحر بحذر بين الصخور المشرئبة لضوء القمر.

لا يسكن شارع مارينا ولا تغفو مصابيحه إلا قبيل الفجر بعدما يهرع آخر رواده ملتحقين بساعات النوم الأخيرة.

يغالبني النعاس أحياناً كثيرة، وأنا أجلس في الشرفة أرقب غدوهم وإيابهم الصاخب المفعم بالحياة فأشعر بالحسد على نعمة الرضا والسلام التي فقدتها، يبدو أني قد فقدت الكثير مني حتى هذه اللحظة، يا الله أعني، أشدد تمزقي بخيوط عطفك ورحمتك.

تأخر الوقت على مكالمة رحيمة، في الغد عليّ أن أستطلع منها أخبار أمي وكرم... أنت تخرقين تعليمات الطبيبة... وإن يكن، لا يؤلم الجرح إلا من به ألم... هيا خذي قرص الدواء قبل أن تخلدي الى النوم.

لم يعرف الوسيلة الناجعة للتعامل معي، أو يكن على طبيعته، بقي مضطرب الوجدان رغم محاولاته المتواصلة في إنكار ذلك طوال فترة بقائي معه في شقته، أفكاره مشتتة، لا يلوذ الى رأي واحد، تناوب في معاملتي بشكل متغاير بين مرة وأخرى حتى بت أنا الأخرى مرتبكة بماهية من أكون! حاول

إستبعاد التحدث عن ذكرياتنا السابقة فما توفق في محو تاريخ طويل بيننا والبدء من الصفر، خانته الكلمات منزلقة تسترجع ماضياً لا سبيل لنا على مجاراته أو تجاوزه، فإقترب مني الى حد الدهشة، وإبتعد الى حد الألم، أضحى تشوشه الذهني والعاطفي أزائي واضحاً كل يوم أكثر من سابقه، فإرتبكت وتشنجت أعصابي من تذبذب سلوكه وتضاربه، لم أستطع فهم من أكون أنا بالنسبة اليه، تداخل كل شيء في نسيج معقد صعب أن نتقبله نحن الأثنين أو نتعايش معه، فأمست الأيام التي قضيتها معه ثقيلة محبطة مكرورة الى حد خانق، تهرب فيها كلانا عن مواجهة الآخر، ولم يتعدَ حديثنا في معظم الأحيان عن الأمور السطحية العامة كغرباء تعارفوا للتو، رغم أن الفضول يقتات في عينيه ويشرب وعلى طرف لسانه لجم أسئلة كثيرة.

آه... كيف تهنا عن بعض، لم تنقذنا كل قواميس الكلام ولا ألبومات الصور والذكريات، ما عساني أقول لك؟ ما عساني! وأنت تقف على الحياد مني، كأني تمثال شمع تحاول إستكشاف ثناياه، أبعاده، ومدى حقيقته وقربه من الأصل، فماذا أقول لك؟ وماذا أخبرك! وأنت تضع الحواجز تلو الأخرى في طريق تقدمي نحوك، يبدو أنه قرأ ما في عينيّ، ولم يرف له سوى جفن الفضول، وحتى حينما لامسني لم نشعر ببعض، لا أدري أكان حبي له أم فضولي هو مبعث تلك الرغبة؟!

ما بال هذه الكلمات! لساني لا يستسيغ لفظها، عليّ أن أكلم الشاعر برغبتي في تغييرها، وألقت جانباً الكراس بتململ، عليّ أن أسجل هذه الأغنية حال عودتي لأضمها مع الألبوم الجديد، فقط ذلك الشطر ثقيل على لساني. لاحظ كل عاملي الأستوديو إهتمامه المبالغ فيّ، ووجوده قربي طوال

وقت تسجيلي للأغاني في الأستوديو، تناهى الى سمعي تلميحات الموسيقيين المحذرة وتندرهم عليه، لم ألقِ له إهتماماً، ولا أنكر أنه قد حرك غريزة الأنثى وأثار غروري وغبطتي في الوقت ذاته، إلا أني تماديت في تجاهل عباراته المغازلة ودعواته للخروج معي في المناسبات واللقاءات الفنية أو الشخصية.

إلتقطت أذناي الكثير من الإشاعات من على بعض القنوات والصحفيين الذين لمحوا بسماع أنباء طيبة عنا في قادم الأيام، إستلطفته لن أنكر، أحببت إهتمامه بي وحرصه عليّ، أخذ على عاتقه كافة الأمور والشكليات المتعلقة بالأغنية من تسويق ودعاية، كمدير أعمال من الدرجة الأولى، رغم إنشغالاته الكثيرة المتنوعة، بت ألمح إبتساماتهم وهمسهم حين يروننا معاً، لكني تجاهلت الجميع حتى هو، لم يستوقفني قلبي أو يباغتني بالسؤال عنه، لم تسرِ رعشة في أوصالي حين ألقاه، ولم ترتبك خطواتي، لكني تركت له أمر الإنفراد بالتغزل والعزف على أوتار أنوثة لم أختبرها من قبل.

أمسكت بهاتفها تفتش بين الأسماء بحثاً عن إسم الشاعر، ثم إرتأت أن تكلم حسن بشأن تغيير ذلك الشطر وحال أن وصلت لإسمه... أصبحتِ تغشين، لا تظني أني غافلة عنك... أنا، أنا فقط أودّ أن أخبره برغبتي في تعديل ذلك الشطر... نعم، أحاول أن أصدقك، أحاول... هذا ما كنت أنويه صدقيني... هاهاها إياك والغش، إفسحي الفرصة أمام عواطفك أن تهدأ... وهذا ما جئت لأجله، لا أغشك كوني واثقة.

ورفعت سبابتها عن إسمه قبل أن تجري الإتصال به، على أمل أن يلعق وعده ويبادر هو... سأتصل بالشاعر، وأخذت تبحث عن إسمه ثانية.

لم أحمل معي الكثير في حقيبة ملابسي عندما تركت البيت، فكان أنيس وحدتي هو كراس أشعاره الصغير الذي رماه يوماً وإلتقطته يداي بطريق الصدفة من سلة مهملاته زارعةً إياه قرب رأسي، فإخضوضرت بساتين النخيل المثقلة بعذوق الرطب، وبت أحفظ كلماته عن ظهر قلب، كواجب مدرسي، تماماً مثلما حفظنا جدول الضرب سوياً. تلك الذكريات وحدها كانت زادي في ليل الغربة الموحش الطويل، أجتره كلما قرص وجداني الحنين وباعدت بيننا المسافات، لاقت أغنيتي الأولى نجاحاً لم أتوقعه، فأوعزت ذلك الى صدق كلماتها، لكن الجميع أكد أن صوتي وأدائي من أنعش فيها الروح والحياة، وإدرك أنا وحدي أن كلماته هي من تشعل جمر روحي وتفجر بركاناً من الأحزان رغم درايتي جيداً أنه لم يقصدني يوماً بتلك المشاعر ولا لأجلي خط تلك الكلمات، فأرسلت له شريط الكاسيت عبر البريد ممتنة للحظات الغضب تلك.

للآن أشعاره تحظى بأرق الألحان وأصدق أداء، فلا تخلو إصداراتي من أغنية بكلماته من دفتري الأثير، وقلما تدمع عيناي لسواها من القصائد... لم تكوني المقصودة بها يوماً... لا تكوني سخيفة، تمنيت أن يخصني بواحدة يوماً... أحلام عابرة من زمن بعيد.

- ألووو... مساء الخير، شلونك أستاذ، أن شاء الله بخير؟

- أهلاً وسهلاً ست غفران، أنا بخير ما دام أنت بخير.

- هاهاها... تسلم

- تفضلي ست

- لا العفو منك، فقط أرغب أن نعدل قليلاً الشطر الخامس من القصيدة، أحسه صعب مو مألوف.

- تدللين.. وما يصير خاطرك إلا طيب.

- ممنونه منك، مع السلامة.

- الباري يحفظك ست، مع ألف سلامة.

الحمد لله أني لم أطاوع طبيبتي المجنونة في طلبها بالتخلي عن هاتفي في البيت وعدم التواصل مع أي أحد ولأي سبب، لولا أني أقنعتها بعدم إستخدامه إلا في الحالات الطارئة... وهل الإتصال بهذا الشاعر يدخل ضمن هذا النطاق؟... لا تكوني مثلها مجنونة، تعلمين صعوبة إستساغتي لمثل هذه الكلمات وحفظها، فيها ما يزعجني... ولماذا لا تتصلين به هو الآخر كنوع من الحالات الطارئة؟... لن أرد على هذه التفاهات التي تتفوهين بها... لا عليك، لا أحتاج الى رد، أنا فقط أنتظر إنهيار شوقك الذي تعتقينه في دهاليز عقلك بمنأى عن القلب العطش... أرجو منك تغيير هذا الموضوع المتعب.

وقامت الى المرآة تتفحص ذقنها وأسفل رقبتها، لتخرج بعدها بملابس جينز مريحة دون أن تتبرج كعادتها إلا بالقليل مع قبعة القش مخفية أغلب ملامحها.

بدأت أضيق بتودد كامل الزاهر، وغزله المبالغ فيه، فأحس بضجري وباغتني بطلب يدي منحنياً أمامي على مرأى من الجميع، فوافقت مترددة على وقع تصفيق وصفير موظفيه الذين تحمسوا لمديرهم. لم أتوقع منه هذه المبادرة لما له من سمعة سيئة في إجتذاب الفنانات ومواعدتهم.

له ولد وبنت يعيشان مع أمهما بعد إنفصالهما منذ ما يزيد عن عشر سنوات، لم أسأله عن أسباب الطلاق لدرايتي شبه المؤكدة أن علاقاته المشبوهة كانت هي السبب، رغم أنه قد ألصقها بزوجته السابقة وغيرتها التي لا تطاق، وصفها بعدم التفهم لطبيعة عمله وإنشغالاته التي تحتم عليه التواجد قرب نساء جميلات جذابات، وغمز بعينه في محاولة منه لإثارة غيرتي وتحريك مشاعري التي لا تزال غامضة إزاءه.

رأيتها تجلس على سريرها صامتة محدودبة على حزنها وضعفها في قاعة طويلة ترقد الأسرة على جانبيها في جو هادر بالضيق والخشية مما يخبئه لنا المستقبل من صدمات.

أذهلني المنظر، فلم أمسك بدموعي التي جرت على خدي متدحرجة قبل أن ألحق بها، هالني أن تكون أم غيلان واحدة من نزلاء هذا المكان الغاص بالعجزة وخيبات الآمال. إقتربت منها بهدوء وتوجس من ردة فعلها التي نبهتني اليها المسؤولة عنها، ألم عميق يجتاحني، شعرت بالإختناق، غصة كبيرة تعلق بحلقي، تسد الطريق على صوتي، فلا أعود قادرة على نطق حرف، جلست متصلبة الأطراف على حافة السرير الحديدي القاسي، أتحسس بيدي كفها الناعم الأبيض، عروقها النابضة، النمش المنثور، معصمها الناحل الضعيف، أجاهد في لملمة دموعي أمامها، بإبتسامتها الوادعة تحيني، ترمش بعينيها بصورة لا إرادية سريعة كدأبها دائماً حينما تفرح، يا الله كم أنت جميلة.. أمي! شعاع شفيف من الدفء ينير وجهك، خصلات شعرك البنية المبيضة من ثنايا حجابك تستقبلني، عيناك لا تلبثان تأسران من يبصرها بمسحة الحزن الرقيقة، تهللت ملامحك، فشعرتُ

بالأمان، آه أمي مهما كبرنا سيبقى حضنك الأوفر حظاً في إثارة شهية الذكري، لا أظنها ميزتني... لكنها همست بصوت متهدج خافت: غيلان...

ليس من عادتها أن تتصل بي أو تحدثني إلا حينما يشتد ضيقها ولا تجد أمامها من تنكد عليه وتعلق أخطاءها سواي، كنت أشعر بالشفقة عليها رغم كل شيء، مسكينة هجرها أكثر من إتكلت عليه في حياتها زوجها، لم تصدق أنه قادر على الزواج بغيرها، ومشاركته مع أخرى، فخرت على نفسها إثر نوبة قلبية إستفاقت بعدها ودموع الخيبة تملأ مقلتيها، أبعدت يده عنها مشمئزة، ومع الوقت إبتعدت كلها تاركة أياه لغريمتها بعد أن تعلمت الدرس، فإزدادت قسوة وحقداً، إبتعد عنها حتى أبناؤها، وكنت من أوائل الذين طالهم شررها، فحدثتني حانقة عن شقيقتنا سوزان حين إدعى بعض الجيران أنهم شاهدوها على التلفاز مع نساء داعش يحكمن طوق الأزيديات، وبعثت لي بالصورة التي أُرسلت لها، تمعنت فيها، ولم أستطع أن أستوثق من شخصيتها، الصورة بعيدة والوجه جانبي، وليس هناك من دليل قاطع على صحة إدعائهم، هذا ما حاولت إقناعها به، لأهدأ من روعها وخشيتها من غضب الجيران وسلاطة لسانهم، مؤكدة لهم أن سوزان قد إلتحقت بأفنان وألحان في السويد نافية صلة شقيقتنا بتلك الصورة التي أثارت حفيظتنا وشكوكنا نحن أيضاً.

لم أصدق أن بالإمكان أن تتحول سوزان الفتاة الناعمة الخجول الى هذا الكائن المتوحش لتبطش ببنات جنسها، حقاً لا أودّ أن أصدق، لا أودّ... كيف لها أن تنزع عنها رداء الحملان، لا لن أصدق أن شقيقتي قد فقدت

إنسانيتها، وما هذا إلا تشابه صور، حتماً هو تشابه، ولا شيء سوى ذلك، أووووه وجدان أصبحتِ ضليعة بمضايقة الآخرين وفض سلامهم الروحي، عن أي آخرين أتحدث! وحدي أنا من تبقى، بعد أن تهربوا من بذاءة لسانها، وحدة طبعها الذي إزداد سوءً مع تقدم العمر وإنحسار جمال قد أخذ يوماً بلب أهل الحي وكان المقياس للجمال عندهم، ففرض عليها والدي أن تلبس العباءة، ومنع أمي من إصطحابها معها الى الأعراس والمناسبات لدرء عروض الزواج المتزايدة على إبنته التي لم تكمل عامها الخامس عشر.

حصدت وجدان من أمي الكثير من الشبه والشكل الجميل اللافت، حتى أن بعضهم ظنهما شقيقتين، لكنها أبداً لم تستطع أن تقطف شيئاً من عذوبة روح والدتي وطبعها الهاديء المنساب كنهر في الربيع.

ألوم نفسي الآن كيف تخاذلت عن تعلم السباحة رغم إصرار والدي على ذلك، إكتفيت معظم الوقت بمشاهدة الصبية يسبحون في النهر، ويرمون بأنفسهم من الجسر الصغير الى وسطه، فأرقب في فرح موجات الماء وهي تتشكل في دوائر على وجهه، وفقاعات تتلاشى وتذوب بين طياته، ليتني تعلمت السباحة، لكنت الآن بين الجموع العائمة في هذا البحر، جلست أتابع وأتقصى ضربات يديه في الماء وهو يقطع النهر ذهاباً وإياباً في خيلاء بجسم مشدود أسمر يلمع تحت أشعة الشمس في بهاء سافر طالما سحرني... إذن إكتفي بالجلوس على الساحل الساعة ولا تتأففي.

٤

شعرت بجفائه وحسياسته مني وعذرت إبتعاده عني بعض الوقت، جاريت أعذاره وإحترمتها على أمل تحسنه وشفائه من صدمة خطيبته، التي بعثت لي بلواعج قلبها وكامل رغبتها في التخلي عن فاروق.

لم يكن الحب من سبب له تلك الصدمة، بل إعتداده بنفسه وكبريائه، إلا أني من دفع الثمن شهوراً من الترقب والإنتظار والمسايرة لمزاج نزق وطبع حاد حكمه.

وكأنني مجبول على الإنتظار منذ ذلك الحين، أوشكت فترة العلاج أن تنقضي، ويحدد الطبيب موعد العملية، ترتجف أوصالي، ساعات طويلة سأكون فيها تحت المخدر، ونتائج فيها من المفاجآت ما يستدعي القلق، لكن حان أن أكون أنا، أن أخرج من شرنقتي، أن أواجه العالم. أي فضيحة تنتظرنا؟! يا رب، كيف...؟! كيف تقوى على مواجهتي بهذا الكلام؟ أهذا جزائي!... أهذا جزائي؟! أخرج لا بارك الله لك في دنياك وفِي أخراك، ستصمنا بالعار، أنا بريء منك الى يوم الدين... لعنك الله... أخرجـ... أخرجـ... تداعت قواه، وتهدج صوته ضعيفاً متلاشياً، أمسك بطرف الكنبة مستنداً عليها بيد والأخرى تقبض على صدره وهو يصارع الإختناق والألم بما تبقى لديه من قوة قبل أن يخر على الأرض متكوماً.

كثيراً ما نازعتني نفسي الى العبث والتفتيش بين أغراضهن، عالم سحري أخذت تماماً بنمنماته وخرزه، علب من القلائد والإكسسورات تثير فضولي ورغبة جانحة في تجربة إرتدائها قاومتها مرات وإنصعت اليها مرات أخرى بطريقة ممازحة أضلل بها نفسي وشقيقاتي، مرتدياً على مرأى من أعينهن ووقع ضحكاتهن ملابسهن وأحذيتهن الملونة ذات الكعوب العالية، متمايلاً بينهن كعارضة أزياء، مثيراً حسداً أنثوياً ألمحه على وجوههن: حمداً لله أنك لم تكن فتاة وإلا لبار سوق شقيقاتك، حتى وجدان المستغرقة في نرجسيتها وإعجابها بنفسها تعترف بعد أن ترمقني متفحصة متمتمة: أي... الحمد لله، لكان سرق الأضواء مني.

ولا يتوانين عن جلب أمي الى حجرهن أو سحبي أنا إليها لتتعرف بإبنتها الخامسة، فتقابلني بالولولة والتهديد بأبي، ساخطة على شقيقاتي على تحريضهن لفتى صغير وترغيبه بأشياء الإناث، لكنها هي الأخرى لا تقاوم نفسها من الضحك وهي تراني أتعثر بكعب وفستنان إحداهن... كم آلمتك أمي! وكفكف دمعة تناوره منذ فترة.

الشارع يزدحم بأصوات الباعة في مساومة مزعجة وعروض مغرية للمارة، وعقلي يضج بعشرات الأفكار في نزاع متواصل مع روحي، ولا أجيد التحكيم بينهما فتنتابني نوبة صداع حادة، أعزو السبب الأكبر لها لدواء الهرمونات وما يثيره في النفس من ضيق وطبع حاد كئيب، نعم لم أستطع الصبر عليه أكثر، ما عاد التغاضي عن تحرشه وملامساته ممكناً بعد أن باتت تلميحاته واضحة، ونواياه بائنة، كنت قد سمعت وقع أقدامه المتسللة، أغمضت عينيّ وتأهبت، ثواني قليلة ودبيب يده على كتفي وظهري، فما تمالكت نفسي إلا بعد أن سددت الى وجهه الركلات مستغلة

ضعفه وعدم تركيزه بسبب الخمر، فهرب من غرفتي صارخاً شاجباً عدوانيتي غير المبررة عليه، في الصباح رميت حقيبة ملابسه وكل ما يخصه في وجهه المزرق الأحمر طارداً إياه خارج شقتي الى غير رجعة، فنأيت بعدها عن المشاركة مع أي أحد في السكن، مفضلاً الوحدة على أعين طامعة تسترق النظر إلي من ثقب الباب، فلتذهب مثل هذه الرفقة الى الجحيم، الى الجحيم كل أولئك الذين حاولوا تجريدي من إنسايتي، الى أداة رخيصة لإختبار شبقية نزواتهم وتغذية فضولهم، إذهبوا الى الجحيم.

- إسمع لحظة، أرجوك لا تتهور، تستطيع جني مالِ أكثر بشكلك هذا، فكر، لا تتسرع.
- هيا غادر شقتي على الفور.
- أعرف من سيدفع لك الكثير، فقط طاوعني.
- إخرس، إخرس يا إبن الكلب.
- عموماً أنت تعرف أين تجدني في حال غيرت رأيك.

نعم أدرك ما سببته لكم من ألم، لكن لا مفر من الهروب من أنا، وكل تلك السنوات في محاربتها وتجاهلها، مديراً ظهري لكل رغبة تجتاحني، كان قد طرق الى سمعي من حديث أمي مع جارتها برغبة أهل فاروق في تزويجه من إبنة عمه ثريا، لأجل إخراجه من أجواء الليل والسهر وكل تلك العلاقات المشبوهة، فبادرت برغبتي في الزواج منها، لم يكن والدايّ في البداية واثقين من صدق طلبي، لكنهما سارعا الى خطبتها لي قبل أن أغير رأيي وأعدل عن تلك الرغبة.

تفاصيل الخطوبة والزواج لم تستغرق أكثر من شهر قاطعاً الطريق عليك صديقي، الذي هو الآخر شعر بالدهشة من تلك الرغبة المفاجئة في الإرتباط بإبنة عمه، رفيقة طفولتهم البكاءة المملة.

كرهت المدرسة من يومها الأول، شعري المنسدل الناعم البني كان أول قربان دُفع لأجلها، حين لم أتعرف على نفسي بالمرآة، الشعر المحدد بخطوط مستقيمة عند الرقبة وبجانب الأذنين بموسى الحلاقة، الفرق الجانبي المولود حديثاً بين خصلات شعر قصيرة واقفة، بدا ذلك الإنعكاس في المرآة غريباً عليّ، إستقبلتني أمي عند الباب بدمعة دارتها عني، وإحتضنت غيلان وهي تمسح بيدها على رأسي مواسية الشعر الذي كان، وأبي يردد فرحاً: هسه صار رجال، خلصنا من ذاك الشعر، رابتاً على كتفي وموبخاً والدتي على تعابير وجهها المتجهمة لحظة شاهدتني، هسه راح نفرقه عن أفنان.

سارعت بي الى الحمام فجلست مقرفصاً على نفسي أبكي وهي تغسل شعري برغوة كبيرة بعد أن أخطأت في تقدير كمية الشامبو التي إعتادت وضعها على رأسي.

الهواء ثقيل رطب، يدور على نفسه في ملل ومكابدة تدفعني الى إرجاء التنزه الى وقت آخر والعودة الى الفندق، ورغم ذلك ألح إصرار بعضهم وعلى الأخص الأطفال على مواصلة اللعب وقضاء أمسية نهاية الأسبوع خارج البيت مع ذويهم تماماً مثلما كنّا نتعلق بأذيال أمي لأجل أن تأخذنا الى المتنزه، وحيث لا تتورع عن الإبتسام بمكر نسوي إذا ما تلقت عبارات تفصح عن ثناء وإعجاب الآخرين بفتياتها، وعلى الأخص تلك الصغيرة اللطيفة المعشر، فعلاً آخر العنقود.

لم تود مرة أن تصحح تلك الفكرة الخاطئة عني خشية عليّ من الحسد والأعين، شعري المسترسل حد الكتف وملامحي القريبة الشبه من شقيقاتي أوحى لأمي بالإستمرار على تلك الكذبة أو المراوغه في الإجابة رغم أن عمري قارب ست سنين ولإ يزال بعض من أهل الحي يسألني شاكاً ما إذا كنت ولداً أم بنتاً، وكان هو السؤال الأصعب الذي لم أعرف جوابه حينها، وقابلته بإبتسامة تشبه إبتسامة والدتي، واضعة المقابل في حيرة وتساؤل، الأمر الذي إستدعى الرهان عليّ من قبل بعض شباب الحي الذين إعتادوا التجمع قرب الدكان في طرف الشارع، فامسكوني عنوة وأنا أصرخ وأدفع بهم على مرأى من صاحب الدكان الذي كان هو الآخر قد إستأثر به الفضول فظل واقفاً يضحك من أولئك، حين سحب أحدهم البيجاما وهو يقول: لا والله طلع صدگ ولد.

لا أذكر الآن تلك التفاصيل، لكني أذكر جيداً كيف مُنعت على أثر هذا الحادث من الخروج بعيداً عن البيت دون مرافقة إحدى شقيقاتي، رغم أن أمي لم توفر أي جهد هي وأبي في إنزال شديد غضبهما وحنقهما على صاحب الدكان، متهمين إياه بالإعتداء على الأطفال القصر وهو يحلف بأغلظ الأيمان أمام ضابط الشرطة في المخفر أن ما حصل لم يكن سوى دعابة صغيرة مع الطفل، هو كان شاهداً عليها فقط.

الجو لا يزال خانقاً يأخذ بتلابيب المارة المتفصدة جباههم بالعرق، ويحول دون رغبتي في مواصلة السير بين الأزقة الضيقة العابقة بعطور غريبة بت معتاداً عليها بعد مضي كل هذا الوقت، الوجوه المتشابهة الملامح الشاحبة أصبحت من مفردات يومياتي، وصرت قادراً نوعاً ما على التفريق بين موظفي الفندق وأصحاب الدكاكين المجاورة.

أوشكت رحلتي على الإنتهاء... رحلتك لم تبدأ بعد، فلا تتذاكى عليّ... أقصد الخطوة الأكبر، بعد أن لمح الطبيب بوجوب تحديد موعد تقريبي للعملية... أرجو أن لا تتراجع كما المرات السابقة... صه أنا لم أتراجع، فقط كنت أفكر ملياً قبل أن... لا سبيل بعد تلك العملية لأي تراجع... أنا أفهم، أرجوك ما من داعٍ لهذا الكلام المشبوب بالتحذير.

وقفل راجعاً الى الفندق بعد أن أكل القليل من الخضراوات المسلوقة مع المعكرونة، رجيم إلزامي في هكذا بلد.

أحتاج الى الشجاعة، الطبيب ينصحني بالتخلي عن تلك الملابس المحايدة، وإضفاء صبغة واضحة عليها، لا أَجِد تلك الجرأة التي كانت المحرك لأمنياتي وأحلامي.

ذهبت سدى كل توسلات أفنان مع شقيقاتي لأجل مرافقتها الى عيد ميلاد إحدى صديقاتها مما يضطرها الى التخلي عن فكرة الذهاب بعد أن أكدت أمي على وجوب مصاحبة إحداهن لها، فما كان مني إلا أن أفاجأها مرتدياً إحدى فساتين ألحان مع حجاب رأس ملائم من خزانة أمي، ترددت في مرافقتي لها خشية إنفضاح أمرنا، لكني كنت جسوراً في المضي الى الشارع سراً بتلك الملابس رغم صعوبة سيري بحذاء ألحان ذي الكعب، وقلق أفنان المتزايد من عواقب تلك الفعلة وإنكشافها وهي تحثني على الخطو أسرع مؤنبة إياي على إختيار ذلك الحذاء.

أطفأت صديقة أفنان الشمع على أمنيات صديقاتها بسنوات قادمة سعيدة وعمر مديد، آه كم أفتقد صدرك يا أم غيلان، قبلاتك الدافئة وأنت

تهمسين بحنو دافق: عيد ميلاد سعيد غلاوي، وتحثين شقيقاتي على التصفيق والغناء، وفسح المجال أمامي لأنفخ شموع العمر الماضية مع إبتهالاتها لي بالسعادة الوافرة والمستقبل الزاهر، جلست بصمت لم أشاركهن الحديث، فقط قبلت صديقة أفنان هامسة بصوت منخفض: مبروك، وعيد ميلاد سعيد، على مرمى من شقيقتي التي إحتقن الدم في وجهها وهي تحملق بي طوال الوقت خائفة.

في طريق العودة لم تسلم ذراعي من قرصات أفنان المؤلمة، لائمة إياي على تقبيل صديقتها:

- يا لك من وقح، كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ؟! كدت تفضحنا.
- آآآيييي، ما بك؟... أنت تؤلمينني، ذراعي.
- أمعقول تجرأت على تقبيل صديقتي ومباركتها!... كاد الدم ينشف في عروقي وأنا أراها ترد لك القبلة قبلات، ويحك.
- هههههههههههههه فعلت ما هو مطلوب، فلا تبالغي.
- أنت من بالغ يا فتى، كان بإمكانك أن تتحاشى تقبيل نهاد.
- صديقتي، صديقتي، قبلتها... لا تستمري كالببغاء.
- لكن...
- حين قبلتها كنت ألحان فلا تنسي ذلك هههههههههههه.
- بلا حياء أنت، ما كان عليّ إصطحابك.
- لولاي عزيزتي ما كنت قد خرجت، فكفي عن العويل والقرص، لم تكن قبلتها أفضل من قبلتك هههههههه.

- لعين، سأخبر أمي عما فعلته.

- كفاك، لن تخبري أحداً، كل اللوم سيقع عليك.

- هيا، هيا... هلم أسرع بِنَا الى البيت.

وطفقنا نضحك متممين مسيرتنا نحو الدار، كانت الأجواء دافئة ولم أَجِد أية غرابة أو أشعر بالضيق عندما كنت الوحيد وسط البنات، ربما لأني معتاد على ذلك في بيتنا هذا كان جوابي لأفنان حين سألتني: أما تضايقت من ذلك الوضع المحرج؟!

لم ألقِ بالاً وقتها لمثل تلك الأسئلة، ولا حتى لتلك القبل التي أقامت عليها أفنان الحد، لم تحرك أدنى إحساس لديّ، قدرما أثارت حفيظتها هي وإستياءها مني.

مع أفنان والشمس الغاربة بظلالها البرتقالية إرتفعت خطواتي، تحررت من الجاذبية، إعترتني غبطة شديدة وأنا أمشي بالكعب والفستان الى جنب شقيقتي كشقيقة أخرى، ظننتها نشوة المغامرة آنذاك، وأودعناها الى خزانة أسرارنا أنا وهي.

أصبحت أتحاشى نظراتها الشزرة حين ألمحها في أرجاء الفندق منهمكة بالتنظيف، تتمتم بكلمات أفهم فحواها الباغض لوجودي بينهم، لم أشكها الى إدارة الفندق مثلما فعلت هي، إلا أني في إحدى المرات لم أتمالك زمام نفسي وشتيمتها تصل الى سمعي بوضوح لا يقبل التغاضي عنه أو السكوت، فهجمت عليها ممسكاً رسغها بإحدى يديّ واليد الأخرى تضغظ على رقبتها بشدة أرهقت قواها وكادت أن تموت بين يديّ، حذرتها من العودة ثانية الى شتمي، وعلى بعد قدم واحدة مني بصقت عليّ وهي تجري لاهثة.

من الصعب التعايش مع أشخاص يمقتونك دون تفكير، يسددون أحكامهم القوية عليك من مظهرك الخارجي المثير لإشمئزازهم وقرفهم، لهذا لم أطمع من أحد أن يتعاطف معي أو حتى يعطيني العذر والمبرر، ما عدت سائلاً، بنظاراتي الشمسية السوداء الواسعة تجنبت الطفيليين ونظراتهم العابثة، لا أنتظر من أحد أي تفهم، فالإنسان عدو لما يجهله، فطر على المألوف، المهم الآن أن أتماسك وأهيء نفسي الى الخطوات القادمة التي تملي عليّ بالظهور بشكل لا يقبل الشك أو الحياد كما أمر الطبيب، إنتهى وقت التخفي والعيش في ظلال آخر.

ما أغباني!... نسيت أن أسأل الطبيب أمن الضروري إقتناء أحذية بكعب، كل الخشية أن يوميء بالإيجاب، في المرة القادمة سأسأله.

الحرارة ترتفع ومعها الرطوبة، فلأهرع الى غرفتي، وهناك أفكر ملياً بما سأشتريه في الأيام القادمة.

بعد التخرج من الكلية إلتحقنا بالخدمة العسكرية الإلزامية، فأمسى لقائي بفاروق محكوماً بالصدفة لا غير طوال سنة وستة أشهر. كنت أظن أن عقلي قد تناسى تلك الذكريات لكنها ما تلبث تجتاحني في صور وإنطباعات تطفو على السطح مثيرة في النفس الشجون وحنيناً غريباً لتلك الأيام رغم شدتها وصعوبة ما لاقيته من معاناة خصوصاً في فترة التدريب التي إمتدت ثلاثة أشهر في مركز الشعيبة، وما تخللها من تدريبات بدنية شاقة وظروف صعبة عانى منها أشد الشباب وأقواهم، فساءت حالتي الصحية والنفسية الى حد أثار قلق والدي، فأخذ يتوسط لي مستعيناً بنقوده وعلاقاته حتى

إنتهت فترة التدريب وتم توزيعنا مرة أخرى فكان نصيبي مدرسة الشؤون الإدارية في اللطيفية، قضيت فيها أربعة أشهر تدريب أخرى ليتم بعدها نقلي الى وحدة إدارية في الخطوط الخلفية، لا تحتاج الى بذل مجهود بدني، لكن الحال لم يستقم كما ظننت، حين إزدادت مضايقات الضابط آمر الوحدة، رغم أنه جعلني من الأفراد المقربين اليه والمدللين، ونداءاته الليلية لي لأسباب تافهة لم أدركها أول الأمر، متغاضياً عن همز ولمز بقية زملائي الجنود مستبعداً ما ساورني من شك وريبة في رجل قارب الستين وقد تهدل كتفه من النسر والنجوم. حاول إستدراجي أكثر من مرة الى غرفته الخاصة لحجج وأعذار كثيرة تهربت قدر إمكاني منها مؤجلاً، الى تلك الليلة حين دعاني نائب ضابطه مزعل عگروگ الى الحضور لغرفة الآمر، فوجدته متمارضاً مطروحاً في فراشه، سألني عن بضعة أمور إدارية غير عاجلة لا تستلزم إستدعائي ليلاً، بعدها تململ شاكياً من عدم قدرته على تدليك ومساج ظهره بمرهم يسكن آلام فقراته، فعرض عليّ مساعدته، كرهت الأمر، وفعلته من باب الإلزام والتعاطف مع حالة رجل بعمر أبي، فتكرر ذلك على مدى ثلاث ليالٍ، يخلع فيها أمامي بزته العسكرية بتمهل ومن ثم قميصه الكاكي وبعدها (فانيلته) البيضاء كاشفاً كرشه، ويتمدد على السرير تاركاً لي ظهره المترهل الممتلئ، مبالغاً في تأوهه حين تلمسه أصابعي، آملاً بفترة أطول في المكوث راقداً تحت يديّ، مثنياً على ملمس أصابعي الناعم وطريقة تدليكي لظهره الهرم، وقبل أن أنهي عملي معه في الليلة الرابعة، إستدار وباغتني بقبلة كأنها لسعة أفعى، وجل منها قلبي وإقشعر بدني وأنا أقوم مذهولاً واقفاً على قدميّ وهو يمسك بكلتا يديه ساقيّ متوسلاً يبعث لواعج قلبه ووله بي، خطوت الى الباب هارباً وكان لا يزال متعلقاً بقدمي

حاضناً، فوكزته من كتفه وهرعت الى الخارج على مرأى من مزعل وإبتسامته الصفراء الملعونة، لأستنشق الهواء بعدما كدت إختنق من قبح وبشاعة ذلك الرجل الذي كنت أوقره وأحترمه.

أرسل بعدها في طلبي الليالي التالية فتجاهلت أمره مستخفاً باصقاً حتى وافاني هو ذاته الى غرفتي آمراً إياي أمام بقية الجنود بموافاته الى غرفته لأجل تدوين بعض الأمور العاجلة المتعلقة بالعتاد والمؤن، فأخذت سجلاتي وقلمي إليه، فاتني أن ألقي التحية العسكرية، أو بالأحرى تغاضيت عن أدائها له، وجلست الى الكرسي القريب من الطاولة منتظراً إياه وهو يتصفح البريد، وقبل أن ننتهي من عملنا، إذا به يجلس فجأة عند قدميّ ممسكاً بيدي متضرعاً أن أرفق بحاله، شعرت بالتقزز من يديه الرخوتين وهما تتشبثان بيدي كحبل نجاة، عيناه الغائرتان في شبق وإشتهاء مقيت، طالت اللحظات وأنا أحاول تحرير نفسي منه وإبعاده عني، ولا أذكر كيف فررت من قبضته.

لم أمنحه ما رغب به، وفِي المقابل جنيت من ثمار دلاله وإهتمامه الكثير، أمسيت الجندي المدلل.

أوعز أمراً بتهيئة إحدى الغرف القريبة منه لي، شاركته أحياناً مائدة طعامه المتعددة الأصناف، كرم باذخ في إجازات النزول الى البيت رغم تشكيه من ثقل الوقت في غيابي، أمر مزعل عگروگ أن يغسل ثيابي وينظف غرفتي إسوة به، مما أثار حفيظة مزعل وحقده المتأجج خلف وجه متجهم مليء بالتجاعيد الى حد يثير الفضول، صوته العالي المنفر تخافت الى فحيح ولهاث أمامي، أدرك أن الأيام قد دارت عليه فأخذ يتملقني ويصفني بنعوت ومكارم لم أجدها فيّ، عرف بخبرته أنه الخادم وأنا سيد سيده.

دارت إشاعات كثيرة في الفوج، وصلني بعضها، فلم ألقِ بالاً لها، وحدي أنا لا غيري من كان يمسك بزمام الأمور، تحكمت بضعف ذلك الضابط وكل مقدراته على أمل أن أهبه ما كنت ألمحه في عينيه طيلة الوقت، كل جبروته وقسوته المتناهية تتلاشى أمامي، وكطفل صغير مدلل حاول على الدوام إرضائي، فتماديت في إذعانه ونزع أي أثر لكبريائه وسطوته، لم يتورع عن النشيج والبكاء من عذاب شوقه وحبه لي، شعرت أحياناً بالشفقة عليه وهو يتذلل طالباً ودي، ومع ذلك لم يتوانَ على إرسالي الى السجن بيد مزعل، الذي تشفى بي وهو يغلق عليّ باب السجن القذر، ليعود بعد يوم مطأطيء الرأس يتنحنح متعذراً بصوته المبحوح وبأنه لا يسعه سوى طاعة سيده وإتباع أوامره.

لا أعلم لِمَ تباغتني هذه الذكريات وتنصب على رأسي دفعة واحدة؟!... ربما الشعور بالذنب هو ما يؤرقك وينبه حواسـ... لا تكملي، لا أودّ سماع هذه التحليلات، لست بطبيب، فهيا كفي عني.

كانت الأعياد والمناسبات مدعاة لإثارة حزن شفيف في نفسي كبر مع الوقت، أراقب بعين حاسدة ثياب شقيقاتي الملونة والمزركشة، وكل إكسسوارات الشعر من أشرطة ومشابك، أضف الى ذلك القلائد والأساور بأشكالها البديعة والمختلفة، وأنا أنظر الى ملابسي الباهتة الألوان حسراً، في ذلك الوقت كنت أجري الى ملابس أفنان وأمسك بفستانها على أمل أن توافق أمي على عملية المقايضة التي لطالما عرضتها على أفنان لتقول ضاحكة: عيب أنت ولد وهذه الملابس للبنات.

بت أحفظ هذه الإجابة عن ظهر قلب، وما يليها من خيبة أمل ودموع وفرتها بعدما كبرت وأمست الدموع هي الأخرى عيباً آخر في حقي، ولكن رغم معارضة والدتي كانت أفنان تغض الطرف حين تلمحني أقلب في خزانة ثيابها وأجرب فساتينها مستعرضاً نفسي أمام المرآة مشبعاً تلك الرغبة والفضول في معرفة صورتي بأعينهن في تلك الثياب والقلائد، حتى هدايا النجاح والتفوق كانت سبباً في ثبوط همتي وحماسي، وتأجج رغبتي فيما يقدم لأفنان من عرائس ودمى بأشكال وأحجام مختلفة تضعها قرب سريرها، وما كان عليّ أنا سوى أن أقبل بألعاب السيارات والبنادق التي كنت أخفيها بعيداً عن مرمى بصري، كذلك الدراجة لم أجد في قلبي أي صدى لها فقايضتها مع أفنان مقابل إحدى دماها الصغيرة لتنام قربي بسرية تامة بعيدة عن الأعين.

لم أكن حينها أفهم ما يجري حولي، ولا أحد من أهلي تنبه الى ذلك، حتى مشاركتي اللعب مع شقيقتيّ أفنان وألحان ما كانت ذي بال يستقطب إنتباههم خاصة وأني الصبي الوحيد في البيت، فأجدت لعب دور الخياط، فخطت لدماهما أثواباً وفساتين عديدة لفتت الإنتباه الى مهارة طفولية أوعزتها أمي الى الوراثة معقبة: أبي كان خياطاً ماهراً في شارع حنا الشيخ مات والمقص في يده، لكن حتماً والدي كان ينتظر أن يشتد عودي ليعتمد عليّ في إدارة معمل السجاد، فلم ينل إعجابه ثناء والدتي ومديحها لي في مطالبة شديدة اللهجة منها أن لا تشجعني على مزاولة تلك الألعاب الأنثوية.

لابد في الغد أن أبدأ بجرأة أكبر، أن أضيف تفاصيل جديدة على ملابسي كما شدد الطبيب، لا أدري لِمَ أشعر بالضيق حين أفكر بهذا الأمر!... حان

وقت المواجهة، لونك الرمادي ما عاد مناسباً لهذه المرحلة، عليك أن تجاهر بصورة أوضح عني، فلا مزيد من القبعات، وقمصان الكاروهات العريضة، الوقت يمضي... أوشكت أن أبلغ الثلاثين وأنا ما أفتأ أتخبط بين أحلامي وواقعي، أهرب من نظرات الفضوليين وأتجنب النظر الى إبتساماتهم وعيونهم المتفحصة في تقصي عمن أكون، يقول الطبيب أن تجربة الخروج العلني هي أكثر الأدلة وضوحاً على صدق الرغبة في أن أكون أنا، في الغد سأفعل ما يتوجب عليّ فعله ولو بالتدريج كما أشار.

أقف عن بعد من واجهات المحلات، أنظر حولي بتردد أشبه بالإقبال على شراء ممنوعات، أسخر من نفسي، ألومها على تقهقرها أمام مسألة باتت بعد صبر وجهد مرير واقعاً سنحياه معاً بصدق كل يوم دون أدنى تناقض أو إزدواجية تعايشت معها طوال عمري، نعم آن لي أن أكون أنا، أشجع نفسي على الإقتراب، أحث خطواتي على المضي، ما من شيء مربك أكثر مما مررت به.

كانت الشمس قد نسجت آخر خيوطها من نهار طويل فاسحة للقمر أن يغشى على الظلمة بنور ناعم رقيق أغراني على الطلب من أفنان بمواصلة السير والتجول قليلاً قبل أن ندرك البيت، تململت أفنان كعادتها ووافقت أخيراً وهي تندب سوء طالع قد يصادفنا، وبسبب ضيق الوقت لم تمنحني الفرصة الكافية في إستشعار ما يجول في نفسي بحق، إلا أني أتذكر ذلك الشعور الغامر بالفرح، الإرتفاع عن الأرض كغيمة خفيفة محلقة رغم ما لاقيته من صعوبة في المشي بذلك الحذاء وتعثري به مرات عدة، فبقيت ممسكاً بذراع أفنان أتسند عليها، فتلك المرة الأولى التي أختبر فيها مثل هذه

المشاعر التي أججها فستان ألحان الذي عبثت بأذياله نسمات الهواء، جميل أن أرد بيدي ثنيات الفستان وأسويها لئلا تكشف عن ساقيّ أكثر، أن أسمع صوت رنة الكعب على الإسفلت في ترنيمة أنا من عزفها ذلك اليوم.

لا تستطيع أفنان فهم ذلك التعطش للسير أمام العامة بفستان، كذلك أنا لا أعرف ما يجول في صدري، كل ما أفهمه أني سعيد، بخفة الريشة سرت، ضحكنا وسخرنا من بعض وحاولت دفعي أكثر من مرة عنها في مزاح عفوي مرح بين أشقاء كانا الأقرب الى بعض. سامحيني أختيتي، أتمنى أن تجدي بين حنايا روحك الناعمة بعضاً من الصفح والمغفرة لي.

كفكف دموعه على عجل خشية أن يلمحها المارة، تلك الزيارة كانت الأجمل والأغلى في ذكريات الأمس، أصوات قهقهتنا ومزاحنا ما تزال تتدارك سمعي، فأغص بها وأختنق الآن حزناً، إبتلعنا لساننا، قطعنا أنفاسنا ونحن نلج المطبخ متسللين الى السلم نحو غرفة شقيقتي في غفلة من أمي التي كانت مشغولة بالدعاء والثناء وإستعطاف الله في أن يديم عائلتها في أتم صحة وخير، بينما أبي كان في عمله لم يعد بعد.

وحدها ألحان هي التي لمحتنا نجري نحو الغرفة، فتبعتنا بسيل توبيخها وتهديداتها بإفشاء سرنا الى أمي وأبي، فأمسى ذلك السر ورقتها الرابحة في الضغط علينا لتلبية رغباتها وأهوائها الصبيانية التي بالغت أحياناً فيها، يا لتلك الأيام! كم أفتقدها! كم أفتقدكم جميعاً... هيا تحرك لا تضيع الوقت، كفاك تردداً وجبناً.

آه أختيتي لو تعلمين كم أفتقدك؟! كم أشتاق الى تلك الأيام، إلى رفيقتي، وكم أتوق الى سماع صوتك بنبرته الحانية العطوف الهادرة في رقتها

وأنت تشدين من عزيمتي، لا أكف عن ملء القلب بتلك الذكريات التي جمعتنا معاً مهما حاولنا تناسيها أو التنكر لها، فكيف لي أن أنسى مغامراتنا الطفولية ونحن ندق مشاكسين أبواب الجيران ظهراً، لنجري مسرعين بقلبين يخفقان فرحاً ونشوة مبتعدين عن الأنظار يغمرنا شعور الفوز النزق، لن أنسى خصلات شعرك الخمري وهي تجري خلفك حين تطلقين ساقيك النحيلتين كغزال، فلا أعود أدرك وثباتك، ويضيع مني أثرك، لتبلل الدموع خديّ على الفور وأنا أنادي عليك خائفاً مستنجداً، لاهثاً: لا تتركيني... أين أنت؟! لا تتركيني.

هيا إفتحي الباب وأدخلي كفاك تطفلاً من خلف الزجاج، هيا إقتربي، إستجمعي ثقتك فلا أحد ينظر اليك قدرما تفعلين أنتِ، حان الوقت كما قال الطبيب... نعم أظنه قد حان. وولجت باب المحل الزجاجي الى باحته الواسعة الأنيقة بعد أن مدت منكبيها مستقيمة بظهرها، ورفعت صدرها وذقنها للأمام في خيلاء وزهو مصطنع.

٥

أصابه الرعاش، فإختل نقر أصابعه على أوتار آلة القانون، شعرت بمدى ضيقه وإنزعاجه من التنشيز الذي يبدر من آلته أحياناً، لم أعر ذلك إهتماماً، لكنه مع كل إعادة تسجيل للأغنية يتفاقم حزنه وتوتره، حتى جاءني الى غرفتي الخاصة في الأستوديو مقدماً إستقالته من الفرقة، معتذراً عما بدر منه خلال الحفلة من تلكؤ وتنشيز داراه أعضاء الفرقة الآخرين في تعاطف وإشفاق على قائدهم ووطأة ما يرزح تحته من معاناة بعد أن سلب المرض منه موهبته الجميلة.

تماسكت وأنا أودع صديقاً رافقني وقاد فرقتي بكل جدارة ما يقارب ربع قرن، حاولت طمأنته ممسكة يده التي إزداد وتيرة إرتعاشها مع إنفعاله: مكانك باق، حالما تتحسن صحتك لا تتكاسل في الرجوع ثانية، سنكون جميعنا بإنتظارك يا أبو حسن.

بعينين محمرتين ووجه محتقن ذابل وكتفين هزيلين إتسعت عليهما بدلته السوداء ودعنا بعضنا على أمل عودة زرعناه في الفؤاد رغم ريح العقل.

كان صغيراً يأتي مع والده يجري بين أنحاء الأستوديو في دأب ونشاط محبب، ذهبنا أنا ووالده لأجل تسجيله في المدرسة، ذلك الشيطان الصغير كبر بين ربوع الآلات الموسيقية وأصواتها حتى صار عازف السكسفون الوحيد في فرقتي، أبن الوز عوام، لم يكن والده متحمساً لإنضمامه الى كلية الفنون قسم الموسيقى، مؤكداً أن الموهبة الحقيقية لا تحتاج الى دراسة، إلا أني

بعد جهد أقنعته أن الدراسة تصقل تلك الموهبة، وكان حدسي مصيباً حين توقعت ما حققه من نجاح في عالم الموسيقى، وهاهو يصدر مقطوعات موسيقية من نظمه حازت على جوائز وإعجاب عالمي.

ذلك الصغير كبر تحت أنظاري، عايشت كل مراحله، شاربه الخفيف الذي خط فوق فم باسم، تسريحته من الشعر المفروق على الجانب الى قصات شبابية متنوعة، صديقته المراهقة التي جاء بها يوماً الى الأستوديو ليتعرف عليها أبوه الذي ظل متشدداً في رفضه لتلك العلاقة الصبيانية غير الناضجة، قميصه الأبيض النافر عن بنطاله معظم الوقت وحقيبة المدرسة معلقة على جانب ظهره متململة، صوته الذي بات كصياح ديك هرم، جسمه الممشوق في زهو أمام الفتيات، ظهوره المتعدد على قنوات مختلفة وهو يقدم وصلة من معزوفاته على آلة السكسفون في براعة ومهارة لفتت الأنظار، فتزايدت عليه العروض والأجور من فنانين كبار وفرق موسيقية مرموقة لم يقايضها بفرقتي... لا تعبثي بهاتفك، ما من إشعارات ولا رسائل، والساعة الآن هي التاسعة صباحاً، فإغلقيه هيا ما من داعٍ له، إسمعي كلام الطبيبة... يا لهذه الطبيبة، حمقاء لا تعرف عن الحياة سوى ما تقرأه في كتبها النفسية ومجلداتها المنضودة بمهابة على رفوف مكتبتها قبالة الباب في إستقبال رسمي للمرضى المراجعين لعيادتها، بودي في أحيان كثيرة أن أجعلها هي من يستلقي على الكرسي الجلدي الأبيض الطويل الممدد في ركن الغرفة الخافت الضوء قرب طاولة صغيرة يرقد عليها مسجل للصوت، طمرت أعوامها الخمسين في حقد وكراهية لا مبرر لها، للأسف لم تعلمها كل تلك الكتب الصفح والمغفرة، أظنها تحتاج للعلاج أكثر مني هههههههه، من يدري لربما تراجع هي الأخرى طبيباً نفسياً بعد أن تكف عن عنادها قليلاً وترجح كفة

المنطق... فرجاء لا تواصلي تذكيري بما قدمته الطبيبة لي من نصائح وإرشادات، تبقى النفس البشرية لغز الألغاز في هذا الكون.

ترجلت من سريرها تتهيأ لصباح جديد بفنجان قهوة إرتشفته بهدوء على شرفتها وهي تراقب السياح المضطجعين على ساحل البحر في سعي دئوب لتلوين جلودهم البيضاء بلون الشرق ودفء شمسه.

المكوث معه لمدة شهر في شقته كان كافياً لفهم ما ينتاب فاروق من مشاعر مختلطة متداخلة، صعُب عليه أن يتوافق معها أو يرسم لها خطاً ثابتاً مستقراً، فإستمرت في تصاعد ونزول مربك محير زادته توتراً وقلقاً لا يعرف كنهه أو تجاهله قاصداً في نية صادقة أن يجرب التعايش معي.

مسكين لقد فعل كل ما بوسعه وأنا لا ألومه أبداً، حقاً لقد حاول، حاول أن ينبت في قلبه مشاعر جديدة لي، يُصنع حباً برابطة مختلفة، لكن ما يفتأ الماضي بكل ذكرياته أن يجتاحه فيتأرجح الحاضر الهش، تباينت تصرفاته معي قسوة ورقة، إندفاعاً وفتوراً، فتلبدت الأجواء بيننا وبتنا كالغرباء نقطن تحت سقف واحد لا يجمعنا سوى ماضٍ نتحسس من إثارة ذكراه، فيمسي حديثنا بارداً خالياً من الحنين والعاطفة إلا حينما يغفل العقل فيسترسل اللسان منزلقاً الى ما جمعنا من ذكريات محببة وحياة سالفة، فنضحك رغماً عنا، تتكشف أمامنا الحقيقة، صدق وعذوبة ما كان يربطنا، فيعود فاروق الى طبيعته الأولى، يرخي عن وجهه قناع المجاملة، يتحدث دون تصنع وإنفعال، ينسى نفسه فيدفعني ممازحاً من كتفي أو يخلع قميصه أمامي وحين يتذكر يصطبغ وجهه بحمرة خجل معتذراً عن سهوه عائداً الى حيطته وتحفظه.

عليّ أن ألحق ببقايا الصباح قبل أن توغل الشمس في دنوها والإقتراب من رؤوسنا.

إرتدت تنورة مزهرةً وقميصاً ورديَ اللون بسيطاً بعد أن وضعت واقي الشمس على وجهها مع قليل من الكحل وأحمر الشفاه في تحرر بالغ من كل تقنيات وضع المكياج وطرقها التي تقوم خبيرة تجميلها الخاصة بعملها لها، إعتلت شعرها المنسدل تحت الكتف نظارتها الشمسية البيضاء ولم يغب عن بالها أن تأخذ معها قبعتها القشية وتخرج.

اليوم أسرعتِ بتغيير ملابسك، ولم تطيلي الوقوف أمام المرآة، إنها لحادثة تستحق التوثيق، ربع ساعة أنه وقت قياسي... هيا كفاك سخرية ودعينا نستمتع بوقتنا دون إثارة أي خصام أو جدال، الطبيبه أوصت بذلك لا تنسي... لا لن أنسى أنك تتبعين نصائحها وفق أهوائك ليس إلا.

وافقت على الزواج به بعد تردد طويل، بعد أن أحرجني بالموافقة على طلبه وهو جاثِ على ركبتيه أمام الموظفين في الأستوديو في عرض يشبه الأفلام الأجنبية، وتلبية للتصفيق الذي عم المكان والهتافات الإيجابية بالموافقة مددت يدي الى خاتم الزواج الذي كان يتلألأ في يده... إقبلي به ماذا تخسرين، لعله العوض، هيا إقبلي، لن تقاوم ركبتاه المكوث على الأرض أكثر.

لم أكن قد إقتربت من فهم كامل الزاهر رغم أني أعرفه من سنتين ونيف، حيث سجلت أول أغنية ناجحة إنتجت تحت إشرافه وبمساعدته، لكني تزوجته متغاضية عن الكثير من الإختلافات والفوارق التي بيننا أولها فارق

العمر الكبير، وتلك الملابسات والإشاعات التي رافقت حياته وسيرته المهنية... أجل ماذا أخسر؟ ما هي إلا تجربة.

مرت الأشهر الأولى لزواجنا على نحو غير متوقع، فقد كان في غاية الدماثة والرقة في تصرفاته معي حتى أوشكت أن ألوم نفسي وأعاتبها على تحفظها منه وتشككها فيه، وكدت أنسى ما يحيط به على الدوام من أقاويل عن علاقاته النسائية المتعددة، لولا إشاعة أخرى تفجرت بعد خمسة أشهر من زواجنا، وظهوره في صور مع مغنية شابة ظهرت مؤخراً على الساحة الفنية، تناولت هذا الخبر عدة مجلات فنية وحين واجهته به سخر ضاحكاً من غيرتي غير المبررة مردداً: حبيبتي هذه إشاعات مغرضة، قصدها النيل من زواجنا فلا تصغي لها أرجوك.

- وماذا عن الصور، أهي مفبركة أيضاً؟

- كنت أظنك أكثر ذكاءً، ما بك أنظري إليها، أنها صور إعتيادية أخذت في مكان عام.

- وأين إلتقيتها؟

- ما بك؟... مكان عام وسط العشرات، أصافحها.

أحسست أن غيرتي غير مبررة... وسعي شيئاً من حلمك يا أمرأة، ودعي عنك هذه الأساليب الساذجة، ليس بالخافي عليك أن مهنته تتطلب منه التعامل مع الكثيرات، فلا تحشدي أسلحتك في حروب خاسرة.

مع التصفيق الحاد، الهتاف بإسمها، إعتلت المسرح أمام جمع غفير من الجماهير، وبفستان كشف معالم إنوثتها المتدفقة، ومفاتن جسدها الممشوق،

في نية واضحة لإبراز كل ما هو جميل فيها، صدحت غفران بصوت قوي عذب، تطرب الأذن لسماعه خارجاً من بين ثنايا روحها، صادقاً حنوناً يحث سامعيه على الإنفلات والتحليق في عوالم أكثر إتساعا من فضاء هذا المسرح الكبير، وهي تواصل الشدو والتماهي مع أنغام وكلمات أغانيها، فيطبق على أرجاء المكان صمتٌ ساحرٌ لا يتعالى فيه إلا صوتها الشجي الأخاذ. كانت أشبه بملاك تطفو فوق المسرح بخفة ورشاقة، تحرك نسائم الهواء خصلات شعرها المرفوعة بتاج فضي لماع أنيق أضفى عليها أناقة وسحراً فطرياً أبدع المصفف في إظهاره، وكالحلم الرقيق أنهت وصلتها بعد عدة مطالبات بتكرار أغنيتها مع جمهور شغف بصوتها فشاركها الحلم والغناء لقصيدة النواب منتشياً.

مو حزن لكن حزين

مثل ما تنقطع جوّا المطر

شدّة ياسمين

مو حزن لكن حزين

مثل صندوق العرس ينباع خردة عشق من تمضي السنين!

مو حزن لكن حزين

مثل بلبل گعد متاخر

لقى البستان كلها بلايه تين

مو حزن..لا مو حزن

لكن احبك من كنت يا اسمر جنين!

خذني يا بحـــــــر

خذني خشبة

خذني والبحارة لو نسيوك كلهم... ما نسيتـــــك!

ما نسيتـــــك

لا تزال أمي حتى الآن تدندن ببعض منها، رغم ما أصاب الذاكرة من نتوء وظلمة، أصغي الى كلماتها المتعبة في إرتجال عفوي لا أعلم ما الذي يغري تلك الكلمات على المكوث في عقلها، حين كنّا صغاراً كنت أتوق الى سماعها بصوتها المتذبذب الحنون وهي تخبيء دمعة تشاطرها الدندنة، وعندما كبرت قليلاً، إنقلبت الأمور وأمست من يطلب سماعها مني، لكن أبداً لم ترق لي مثلما كانت هي تغنيها فتنبعث من قلبها حارة تكاد تحرق شفتيها، خصوصاً حين تردد متلعثمة:

مثل صندوق العرس ينباع خردة عشق من تمضي السنين!

فينتابني السؤال ساخناً طرياً هو الآخر، مندفعة كيف إلتقيت بأبي يا أمي؟ تتهرب من الإجابة بذريعة الإنشغال بأمور أخرى ولا تجيب سوى بهمهمة وتنهيدة.

لم يسعف العمر جدتي حتى تجيبني حول كل ما كان يرنو الى عقلي من تساؤلات عن تغيب أبي وإنقطاعه عن النوم في حجرة والدتي التي شاركتها السرير سنوات طويلة، وغفوت على صوتها الدافيء يهدهد مخيلتي مناجياً، فأنام ملء جفنيّ على وسادة والدي الباقية على عطره.

ما كان للمسكينة أهل تزورهم ولا أخوال أو خالات يتوددن إلينا، الأمر الذي كان مدعاة تهكم وسخرية جدتي الدائم من أمي التي تظل

صامتة ولا ينجدها من لسان جدتي اللاذع سوى حجرتها التي تهرع اليها هاربة متحاشية سماع ما تكرره جدتي مراراً على مسامعها، فتبقى أجواء البيت مشحونة على مدى يومين أو ثلاثة حتى تلتقي كلماتهن في الصباح على صينية الفطور أو الغداء وكأن شيئاً لم يكن على الأقل ظاهرياً وأمامنا، لم تقتربا من بعض كثيراً مثلما لم تبتعدا كذلك، فكانت مشاحناتهما بهار حياتهما وملحه، وما كان من والدي سوى أن يترك الساحة لهما في حروب باردة ما تلبث أن تتأجج لتنطفيء في دورة حياة الكنة والحماة.

تردد أسم بشائر في تلك المشاحنات والمقارنات التي لا تكف جدتي عن تذكير أمي بها مناكدة إياها، بشائر كانت أجمل وأحلى، بشائر امرأة مهذبة كانت لا يُسمع لها صوت وبشائر وبشائر... حتى ظننا أن بشائر حورية أو أميرة خرجت من إحدى الحكايات التي تقصها علينا جدتي.

إستطاعت شقيقاتي بحكم العمر أن يجمعن شتات أحاديث جدتي وزلات لسانها لمعرفة هوية بشائر بطلة مناوشاتها الدائمة، حتى أنها لم تتوانَ في وصم أمي بالنحس الذي قتل بشائر وكل من إقتربت من أبي.

مو حزن... لا مو حزن

لكن احبك من كنت يا اسمر جنين!

من كنت يا أسمر جنين

تعلق الجمهور بهذه الأغنية هو الآخر، وصارت تطلب مني في كل حفلة تقريباً، ولطالما غنيتها بإحساس يختلف لا يشبه عمن سواه في أي أغنية أخرى، حتى بعد هذه العقود لا تلبث تتملكني كلماتها وإستحضر معها كل الذكريات... كل الذكريات، لكن أحبك يا أسمر من كنت جنين، يا لهذا

الحب العاصف، وهذا التحيز القاتل للأسمر في الأغاني العربية، لقد تساءلت مع نفسي مُذ كنت صغيرة عن سر تلك الحفاوة والتمييز له في الأغاني بينما الواقع يشي بالعكس، لكن أحد الشعراء من الأصدقاء فسر ذلك مازحاً على أنهم يروجون سوق السمر، لأن البيض والشقر سوقهم رائج والحمد لله، بالطبع ضحكت كثيراً من هذا التفسير، ووعدت نفسي أن أغني مرة للبيض والشقر كنوع من المجاملة، فتعالت ضحكات الشاعر وهو يقول: ياعيني تردين تزيديهم غرور فوق غرورهم.

آه يا أسمر... من كنت جنين.

ومن دون وعي إستلت هاتفها المحمول من جيب تنورتها الفضفاضة وهي تتوسد حبات الرمال، لكن ما من إشعار، مسج أو حتى مكالمة فائتة، ودت لو ترمي به الى البحر أمامها، دغدغت تلك الخاطرة خيالها، ماذا لو أخلع حذائي الصندل، أخلع قبعتي جانباً ونظارتي الشمسية، الحصى دافيء تحت قدميّ، أسير الهوينى نحو البحر، يغطي أسفل ركبتي الماء، تثقل تنورتي متشبعة به، أحس بوخز برودته، تدفعني أمواجه، أتقدم بطيئاً، أشعر بخفة وزني على قدميّ المنزلقتين على القاع بالتدريج، يصعد الماء الى أعلى الخصر، ترتفع تنورتي تلتف حولي، تتواطأ الموجات ضدي، تخدر أطرافي ويثقل رأسي، تتداخل الأصوات بالصور، الماضي بالحاضر، فلا أجدني، من أكون؟! أتقدم الخطو إليه بحثاً عن جواب، يشدني صوت بعيد ينادي، ترتبك قدماي بحثاً عن قاعها، يلتصق قميصي بي، تتكرمش أصابع يديّ، الماء يلامس ذقني، أتخبط، أشهق أنفاسي، تتعالى نبضات قلبي، لا تجد قدماي موضعها، صياح مكبوت يملأ فمي ويختلط برشفات مالحة من ماء يكابد في الصعود اليه، أطوح بيديّ، أحاول الإمساك بشيء وليس سوى

البحر يجتاحني، إغمض عينيّ، أنصت الى هدير روحي والأمواج تتخاطفني، أشعر بالخمول، يجرني البحر أليه، تتلاشى قواي، أستسلم لهذه القوة الجبارة، تستحوذ عليّ، أتماهى، خوار يتسلل الى جسدي الواهن، فلا أعود أجهد في التجذيف بأطرافي، الصوت يتعالى، أختنق، أعيش الشعور ذاته، أقاوم، أركل بقدميّ الماء، ألوح، أكافح، قوى داخلية تنبعث، إرادة الحياة في صور عديدة تتجلى، فأشد ذراعيّ، أندفع متراجعة نحو الخلف لموطيء قدم أوسدها، أهرب عائدة الى همومي وأدراني، الى جحيم السؤال وتشظي الإجابة، الى لعنتي الأبدية، أرتمي على الساحل مرة أخرى، أحتمي خلف نظارتي الشمسية وقبعة طالها البلل من خصلات شعري المتشابكة، أضحك ساخرة من حالي أو ربما باكية، وما يفتأ ذلك الصوت يتعقبني... وبوصمة العار يلازمني.

حاكت الصدفة حبائلها بمهارة فائقة، فإلتقينا عند ناصية الشارع الرئيسي المتعامد على الطرق الفرعية لمحلتنا، كان يبدو عليها الإستعجال وهي تمسك بيد طفلة متململة قد جاوزت السابعة، ضفائرها المزينة بأشرطة حمراء أبهجت قلبي وأعادت لي من بين أدغال الذكرى صورة الفتاة المنكمشة البكاءة التي رافقتنا طفولتنا، فتسللت إبتسامة صغيرة الى شفتيّ، مددت يدي نحوها، ربت على كتفها برقة، فسحبتها أمها نحوها بحركة سريعة قطعت على يدي الإحساس بنعومة شعرها وهي تقول بإشمئزاز وقرف بان على وجهها الناحل فزاده تجهماً: أنت!... أنت؟ ما الذي أتى بك هنا؟! وقبل أن ألتقط أنفاسي وأرد عليها شعرت بحرارة رذاذ بصقة إتسع لها وجهي، أمد يدي نحوه، أمسح أثاراً لا تزال رطبة حتى الآن.

راقبت بوجل خطواتها المندفعة الى سيارة أجرة أقلتها بعيداً، ٧٨٥٣٦ بصرة، ودعني وجه الصغيرة المندهش من النافذة الخلفية وهي تستدير نحوي.

تطيل الوقوف أمام المرآة، تتفحص عن كثب كل إنحناءات جسدها، تتابع بنهم خطوط وجهها ورقبتها، ترفع حاجباً وتشد ذقناً، توجه منظارها نحو ثنايا جسد مدعم بالسليكون في مقاومة عنيدة لزحف الزمن، يتداعى إنبهارها فتدخل في موجة ضحك هستيري، ترمي بالصورة المنمقة أمامها بمنفضة السجائر الثقيلة، إرتطام يحيلها الى عشرات الأجزاء المتناثرة على الأرض، قهقهة تتعالى، نشيج مبحوح، تتصاعد الى رأسي كلمات ثريا الزاجرة لتتلاقح مع نظراتها الشزرة إليّ وهي تتساءل بإحتقار بالغ: أهذا أنت؟!... مبارك لك هذا الكعب العالي والتنورة.

تهتز الأرض تحتي، أنحني لألملم كرامتي المهدورة على أسفلت الشارع، قدمايّ لا تحملان كل هذا العار الذي وصمتني به وهي تستدير بظهرها عني مستنكرة.

سرتُ بضع خطوات متهالكة، سحقت كلماتها ثقتي بقدرتي على الذهاب والمواجهة، فأرجأت الزيارة الى وقت آخر وعدت بأدراجي الى شقة فاروق، وأنا أتضور ألماً من تلك العينين الماطرتين سخرية ونفوراً، إخترق صدى كلماتها حاجز الصوت ليستقر خلف طبلة أذني قارعاً إياها ساعة يشاء، يحاصرني الماضي بفلول من الذكريات، فأقاوم زحفها، إلا أني في نهاية اليوم أجدني أرزح تحت وطأتها في تلذذ غريب ماسوشي يعتصر ثمالة روحي، ولا يبقي للهناء حيزٌ فيها، أتراني حقاً أدمنت هذا العذاب، جلد الذات على كل نجاح أو سعادة قد يتصادف أن تطرق بابي لوهلة... قاومي تلك

المشاعر، لا تنسلخي إليها، أغلقي عليها الأدراج والدواليب، تعوذي من هسيس شيطانها ووسوسته، لا تلتفتي نحو الخلف، أنظري أمامك.

تلمح إنعكاسها على شظايا المرآة المكسورة، فتشيح بوجهها جانباً، يتملكها الرعب من صورة شكلها المدمر، تمسك بالهاتف مستدعية خدمة الغرف ليرفع ما تناثر منها على أرضية الغرفة ويستبدلوا المرآة، وروحك المكسورة من يستبدلها أو يلم أشلاءها؟ إنخرطت في بكاء لم يوقف مدامعه إلا قرص دواء مهديء كانت قد وصفته لها الطبيبة، وإنكمشت تحت الغطاء على نفسها ترتجف من برد الذكرى وريح الأيام القادمة.

لم يكن كامل الزاهر متحمساً لفكرة التبني وما تضفيه من حميمية على حياتنا الزوجية، مصراً بدوره على الإنجاب من صلبه، رغم أني قد أوضحت له عدم إمكانيتي على ذلك منذ البداية، أخبرته بتجربتي السابقة في الإنجاب وفشلها، لكنه صمّ أذنيه عن هذه الحقيقة وإستمر يناور عليها بالرغم من عدم وثوقي من رغبته الحقيقية في الإنجاب من زوجة أخذ يتشاغل عنها بذرائع شتى بعد مرور سنة من الزواج.

لا أستطيع نسيان وقاحة مديرة دار الأيتام إزاء طلبي في تبني أحد الأطفال، نظراتها المتهكمة وهي تتفحصني من عقب قدمي الى أعلى رأسي، جلست قبالة مكتبها على الكرسي المجاور، لم تنظر في عينيّ وأنا أتحدث اليها، باردة الملامح، شفاه باهتة رفيعة، أنف مقوس طويل، عينان صغيرتان تقبعان في محجرين تحت حاجبين لم يبقَ منهما سوى شعيرات متناثرة خفيفة، وجنتان يكاد العظم يبرز أسفلها، كانت تحدثني دون أن تخفي تلك

الإبتسامة الصفراء التي إستوطنت زاوية فمها في خبث ملحوظ، خسرت رهاني في تبني طفل من نظرتها الأولى لي، يا الله من أي طينة كانت تلك المرأة؟ وكيف لم يستطع الزمن أن يمحو تضاريس ملامحها من ذاكرتي؟! فلا يزال ذانك الخطان الناتئان بين حاجبيها على شكل ثمانية يذكراني بوجوم تلك الدقائق وثقل الأسئلة، وما كانت الشامة التي تتوسط أرنبة أنفها كعين له إلا شاهد عيان آخر على تلعثمي في الرد عليها، كان كل سؤال فخاً لا أكاد أنجو من إجابته حتى تجرني الى سؤال أكثر لؤماً من سابقه، وأنا أجلس أمامها كتلميذة تفرك أصابعها حين تلمح علامات الإستياء تكبر على وجهها بعد كل سؤال، هل أنت متزوجة؟

- نعم... بالأحرى كنت متزوجة.

- ربة بيت أم موظفة؟

- موظفة!

- في أي سلك تعملين؟

ماذا عساني أجيبها، تلكأت، صعد الدم الى عينيّ، تماسكت ببقية من رباطة جأش حين قلت: أعمل في سلك الفن.

فتحت عينيها المثقلتين بحفون إرجوانية، تخلت عن حياديتها وتحفظها لتقول لي بنبرة قاسية: طلبك مرفوض، ليس لدينا أطفال يفون بالغرض لك.

ونهضت من كرسيها، فبدت كفأرة عجوز، قصيرة يابسة، أفلح الكرسي في إخفاء عيوبها، توجهت نحو الباب في إشارة منها إلى إنتهاء وقت المقابلة.

الطب تقدم، وما كان بالأمس مستحيلاً أمسى اليوم واقعاً، إتكأ كامل على هذه العبارة في كل مرة أنوه فيها عن فكرة تبني طفل، حتى صار شغله

الشاغل أن نذهب الى الطبيب لأجل معاينتي وتشخيص الحالة، لم أفهم مقاصده من هذا الإلحاح حينها، لكني تهربت من مرافقته الى الطبيب عدة مرات ملتمسة أعذاراً ومبررات حتى فاجأني مرة بأطفال الأنابيب وما الضير من محاولة ذلك؟!

– أكيد ليس هناك من ضير... إلا أني أخشى على حالي من خيبة الأمل.

لاحقتني نظراتها الوقحة حتى البوابة الخارجية لمبنى الدار مثلما رافقتني كلماتها المتهكمة: خليك في سلك الفن، وخلي سلك التربية لنا.

سرتُ مصدومة أتعثر بظلي، من أعطاها الحق لتعاملني هكذا؟ من تحسب نفسها؟... من؟!... تلك المتعجرفة العجوز، من تكون حتى تحاسبني وتحكم عليّ؟... من؟!

تغير الحي كثيراً، إزداد بؤساً، وضاق على نفسه ببيوت باتت عتيقة، كلحت ألوانها، نزلت من التاكسي عند رأس الشارع ولا أدري لِمَ طلبت من السائق التوقف، أخلتني أودّ مشاهدة الحي عن كثب؟ أتراه تعرف عليّ أم إستدار بظهره عني متجاهلاً؟! غرقت الساحة التي كنّا نلعب فيها ببيوت صفيح صغيرة متراصة في فوضى نافرة، لا توازي سنوات غيابي عنه... أنت أيضاً تغيرت للغاية، ألا تنظرين الى نفسك؟ أطرقت بعينيّ الأرض... حقاً ألا تنظرين الى نفسك؟! تمهلت في مشيي، إذ لم أعتد على السير فيه بهكذا حذاء، أتلفت اليمين واليسار، أشد تنورتي وأسويها في إحساس غريب بالمباهاة تتخلله خشية، أصيخ السمع الى وقع صوت كعبي على الطريق، أنا أتيت هل عرفتني؟! الحمد لله ليس من أحد أصادفه، آه كم ضاق الحي

وإختنق، أضغط على جرس الباب المكسور الزاوية، أفكر في الفرار لكني كبرت على لعبة الجري هرباً بعد قرع الجرس، أراوح بين قدميّ في الوقوف منتظرةً، تطول الثواني، أشعر بالهلع، ترتجف يدي على مكبس الجرس، ترن على عقلي فكرة الهرب بإلحاح... الطريق أمامك فإسرجي ساقيك، هيا أسرعي قبل أن يفتح الباب... لكن، لكن!... هل أنت مستعدة للمواجهة؟! أقادرة على تقبل ردة فعلهن؟ لا أنصحك بذلك، فهيا أطلقي لساقيك ولا تنظري خلفك، هيا تحركي.

قادتني قدماي بعيداً، إلا أن قلبي ظل عند الباب يخفق، لم ألمح من فتح الباب إذ هرعت الى أول سيارة أجرة مرت.

تفشل محاولتي الثانية في زيارة أمي، ولا يفشل ذلك الصوت في ملاحقتي، يبزغ من أعماق ظلمتي، من ثنايا الذكريات وصدى الفراغ وقسوة الوحدة، يطن في رأسي كدبور، لا قدرة لي على إيقافه، تخور قواي، ويستبد بي صداع شديد، عار، عار... أنت عار، أنت عار، اللعنة عليك الى يوم الدين... الى يوم الدين، لن ينظر الله في وجهك، عار، عار...

يشل حركتي، يطبق على أنفاسي، لا يكف عن مطاردتي والنيل مني بعد كل هذا الوقت، تنصحني الطبيبة بتجاهله وعدم الإصغاء إليه والوقوع في هوة طغيانه... أحاول، أنا أحاول صدقيني، لكنه يجتاحني دون سابق إنذار، يتعالى فحيحه في روحي، أسمع خطوات زحفه المغالية، وقرع طبوله، يقترب مني، يقترب، يضربني بسياطه، يملأ فراغ اللحظات بصهيله، يدهسني بأقدامه، يجلجل في رأسي... كافر، عار، العار كل العار أنت.

٦

تتزايد مطالبات العميد، فلا يعود عمل المساج والتدليك كافياً لإرضاء رغبة تتصاعد فيه يوماً إثر يوم، أجلس عاجزاً وهو يركع تحت قدميّ طامعاً في ودي، فتنتابني رغبة خفية في سحق رأسه الكمثرى الأبيض الشائب، يتمسك بيديّ كمن يرجو المغفرة والرضا، يعرض عليّ من نفائسه الكثير، أمست المناورة معه والدلال عليه ضرباً من الحماقة ولا تفلح إلا في تأجيجه وإثارته، إدعاء المرض والتكاسل ما عاد يجدي مع الوحش الذي يصحو فيه مع رائحة الليل ليتخلى عن كياسته ووقاره، فقلل من أيام إجازته ونزوله الى بيته، بالمقابل أبدى تحفظاً في منحي إجازات نزول إضافية، مشدداً على توقيت نزولي في أيام إجازته، أدمن قربي، ملمس يديّ على جسده الشائخ وطمع في المزيد، لا تمر ليلة إلا ويرسل في طلبي حتى باتت تلميحات الجنود الساخرة تصل الى مسامعي دون وجل، ولم يتوانَ أحدهم مرة حين نعتني ممازحاً بغلام الضابط وسط سخرية الآخرين، يا الله فرج عني كربتي، فرج عني كربتي في إلحاح وتوسل جف له ريقي ولساني دون أن ألمس أي إستجابة، فآثرت أن أقلع شوكي بيدي خاصة بعد أن أمست رغباته مفضوحة أمامي، إذ لم يخجل ألبتة وهو يشد مباغتاً على وسطي وشاحاً أحمر اللون مزركشاً بنقوش وقطع معدنية ذهبية اللون صغيرة تشبه العملات النقدية تتدلى منه وتحدث صوتاً بحركتها، ليأمرني بصوت هش سكير: هيا أرقص، هيا...

وعلى صوت وقع كفيه الكبيرتين يصفقان وصوته المتراخي مرافقاً لأم كلثوم وهي تشدو بالليل وسماه ونجومه وقمره هززت خصري فتصاعد هسيس القطع المعدنية كشهود على إذلالي وإستباحة لإنسانيتي، كل ليلة والوشاح الأحمر يتوسطني، يشعل نار الإنتقام في روحي، يحرك كل مجسات الوعي والشعور بفداحة أزمتي، يستنهض وسوسة شياطيني في أن أخلعه عن خصري وأشده على رقبته خانقاً.

كرهت نفسي، عينيه الآثمتين المغروستين على جسدي، شاربه وهو يعلن سطوته على فم يقطر رغبة وخمراً، صوته المترنح الكسول، رائحة أنفاسه، أصابعه الغليظة وهي تضغط على يدي أو تربت على كتفي في محاولة لإسترضائي وترميم خاطر يكسره مع أول آهة سكر ورشفة كأس.

لا بد لي من التغاضي عن نظرات البائعات المتقدة فضولاً وهي تتابع خطواتي، عليّ أن أختار ثياباً تظهر ملامح جسمي بوضوح دون أدنى مواربة أو تضليل، هكذا يطلب الطبيب، لن أدع إيماءاتهن المستفهمة تؤثر على خياراتي في الإنتقاء، رغم محاولة إحداهن في مساعدتي والسؤال عما أريده بالضبط. لفت إنتباهها قميصٌ زهريٌ معروضٌ على واجهة المحل الزجاجية فتبعت رغبتها مستوقفة عنده.

لم يتمالك حينها والدي أعصابه، ونهرني موبخاً على ما إقترفته من مزاح في صباح أول يوم العيد عندما قدمت الى غرفة المعيشة بفستان أفنان وكل الإكسسوارات الخاصة به، جفل من مرآي لأول وهلة، ثم نادى على أخواتي ووبخ الجميع بما فيهن أمي على سوء سلوك إبنها وتماديه في تقليد شقيقاته، متوعداً إياهن بأقسى العقوبات إذا ما سمحن لي بإرتداء ملابسهن أو

العبث بحاجياتهن، مكرراً اللوم على أمي التي غضت بصرها عن هذه الأفعال المشينة تحت ذريعة أنني لا أزال صبياً يافعاً يروم المزاح وتقليد أخواته ومشاكستهن.

إلتمست لي العذر أمامه، طالبة مني أن أعتذر منه عما بدر مني واعداً إياه بعدم تكرار هكذا أمور تخل بمزاج أبي وبطبيعة الولد وإتزانه.

كذلك أمي لم يفتها أن توبخ أفنان على مطاوعتي في إرتداء فستان العيد، والتمايل فيه أنساً وحبوراً.

- كنت نائمة ولا أدري متى دخل إبنك الى غرفتي وأخذه، أنت تعرفين إنها ليست المرة الأولى التي يجرب فيها ملابسنا!

- يجربها من قبيل المزاح، لكن ليس أمام أبيكم.

حقاً لا أعلم كيف تجرأت تلك المرة على مباغتة والدي بهذا الشكل الأنثوي السافر حتى كاد أن يضربني لأول مرة في حياته، راغماً إياي فيما بعد على تقصير شعري أكثر من ذي قبل، آمراً والدتي بعدم التساهل ثانية في هذا الموضوع.

خلعت فستان أفنان الحريري المزهر وأنا أشعر بالحسرة والضيق لأرتدي قميص وبنطال العيد الخشنين، كن الفراشات التي حلقت حول سفرة الفطور مع اليعسوب الوحيد الذي جلس منكمشاً على نفسه يرقب شقيقاته بحسد واضح.

نعم سأشتري هذا القميص الزهري، وأخذت تتحسس ملمسه بأطراف أصابعها، تستجلب ذلك الشعور الذي لامس إحساسها وهي ترتدي فستان أفنان، حان الوقت كي أترك الحياد وتلك النظرات الملتبسة التي

يرمقها بي الآخرون، حان الوقت، وأشار الى البائعة كي تجلب له القياس المناسب لتجريبه.

يا إلهي لِمَ الخوف! في الماضي كنت أرنو الى هذه الألوان والأشكال من الملابس وكلي رغبة في إقتنائها فما عساي اليوم؟! أتلفت خلفي، أبتلع ريقي، أشعر بالتوجس من الخطوة القادمة، الخطوة التي إنتظرتها دوماً، إنها المرة الأولى التي سأشتري فيها مثل هذا النوع من الموديلات الأنثوية التصاميم، إخترت مجموعة وحملتها الى غرفة القياس على مرأى بعض الفضوليين وهمساتهم.

الخروج بهذه الملابس يعد مغامرة كبيرة لن أفلح في تخطيها اليوم... ما بالك! ليس هناك من وقت لمثل هذا التردد والخوف، لقد قطعت الكثير من الألم، وحان أن تجني الثمار.

الثقة بالنفس أولاً، هي ما تمنح ثقة الآخرين بك وإحترامهم، تشجعت في الدخول الى صالون تجميل وحلاقة، وأنا أكرر هذه الجملة على لساني كتعويذة تقيني من الآخرين وأظنها نجحت، فحين طلبت من مزين الشعر بنبرة واثقة تخلو من التردد، وعينين مستقرتين على عينيه أن يختر قصة شعر مناسبة لوجهي، أخذ الأمر على محمل الجد دون أي إبتسامة أو نظرة موارية.

نظرت بإعجاب الى شكلي الجديد في المرآة، فعلاً هذه القصة قد أبرزت عظمي وجنتيّ بشكل لافت جميل، لا يشبه المرة الأولى التي جلست فيها على كرسي الحلاق مسلوب الإرادة، يمسك والدي بطرف كتفي مانعاً إياي من النهوض من على ذلك الكرسي الأسود الجلدي العالي المهترئ عند اليدين، لم

أبذل جهداً في إمساك دموعي التي تساقطت مع أول خصلة شعر نزلت الى الأرض لتلحقها الأخريات في حفل وداع حزين لشعري الذي لازمني ست سنوات من عمري، ظهرت بشكل مختلف عما إعتدته، شكل غريب عليّ لم أجسر على النظر إليه في المرآة فكرهته وكرهت المدرسة من ذلك اليوم، من ذلك اليوم حين إستبدلت المعلمة مقعدي بالمقعد الذي جلست فيه الى جوار إحدى التلميذات قائلة: هذا مكان الأولاد وليس ذاك.

أخذت أنظر بحسرة الى التلميذات في السطر المجاور وقد تزينت رؤوسهن بأشرطة بيضاء مرفرفة، ورأسي حسير الشعر.

أذكر أني في صباح اليوم التالي جلست ثانيةً قرب تلك الفتاة متغافلاً ما قالته لي المعلمة الى أن إقتادتني من مكاني الى حيث مقاعد الصبية وهي تكرر على مسامعي: أما قلت لك أن لا تغير مكانك وتجلس هنا.

كانت المدرسة كابوسي اليومي، وأنا أرقبهن من مسافة يلعبن (الطاق)، يتقافزن بزيهن المدرسي، وجواربهن البيضاء الناعمة المكركشة، عشقت بشدة أن أشاركهن لعبتهن هذه، ولا أملك تعويضاً سوى أن أقوم بتخطيط فسحة البيت ولعبها مع أفنان التي غلبتها في أغلب المرات.

كم أشتاق لك أختيتي والى تلك الطفولة التي لولاك لكانت صعبة للغاية، أفنان لا تقسي عليّ وإن كنت أستحق هذا الهجر والغضب، كانت لحظات غبية، أنا نفسي لم أفهم سببها ولم أتفهم كيف قمت بها؟! لكن فضولي في معرفة الإجابة كان باعثي فيا لقبح وأنانية ما صنعته!

لا تدركين كم أفتقدك! وكأني فقدت أحد أعضائي، أفنان أختيتي سامحيني وأغفري لي زلاتي كعهدك دوماً معي.

آه... لو تعلمين حجم معاناتي! مقدار الضياع والتشرد الذي أعيشه، لا ينتهي يوم إلا وأفكر فيه بقتل نفسي والخلاص من كل شيء من كل شيء، من شعور الهوان والذل، الإحتقرار والنبذ الذي ألمحه في العيون، كل يوم جديد هو بمثابة نكأ جرح، بت غريباً على نفسي، من أكون؟ فقدت قدرتي على إدراك الحقيقة والشعور بها، تماهت القيم والأخلاق ببعض، لم أعد أميز بين الخطأ والصواب، ما من فكرة تستقيم في عقلي ولا تنازعها روحي، إلتبست عليّ الأمور وأمسى كل شيء نسبياً وكل غاية تحكمها الأنانية، أعيش لنفسي ولا شيء يدفعني للمضي في هذه الحياة، ليتني أخبو وأتلاشى من هذا العالم كخيط دخان، لم أجلب لكم سوى العار والألم.

ليتك معي، ليتك تغفرين لغيلانك كما السابق وتخففين عنه آلامه، عذاب روحي لا يوصف يا أفنان، أنا ممزق من الداخل كخرقة، لا أختلف عن تلك الخرقة التي لفها الصبية على بعضها بشكل كرة، فتتقاذفها الأقدام وتركلها، أنا تلك الخرقة، أتذكرينها؟! أنا تلك الكرة... تلك الخرقة!

إنسابت الدموع على وجهي أسرع من أن أقطع عليها الطريق، فشعرت بالخجل من مصفف الشعر الذي حاول الترويح عني رابتاً على كتفي وهو يقدم لي منديلاً أمسح بها دموعاً هاربة من مقل فاضت بها.

حاولت الإعتذار منه بكلمات مخنوقة وجريت الى خارج الصالون بعد أن أعطيته أجره الذي رفض أخذه كنوع من المواساة لولا إصراري على ذلك.

أصبح مصفف الشعر لي شن صديقي من ذلك اليوم الذي ربت فيه على كتفي مواسياً، لم يقم إعتباراً لتلك الأجناس والتصنيفات البشرية، بعين الإنسانية وحدها حملني على كفكفة دمعي قائلاً لي بلطف بالغ: أنه لمن بواعث سروري أن أصفف شعر جميل كهذا.

بالشكل والمظهر الجديد خرجت من الفندق تلاحقني العيون الفضولية بإبتسامة يختلف تفسير معناها بين الإعجاب والإزدراء، فلم أعرها إهتمامي، فقد أمست هذه الحيثيات من مفردات حياتي اليومية، وصار التجاهل الصفة الغالبة على طبعي، لا أنشد شيئاً سوى العيش بسلام.

عرجت على الطبيب بقميصي الشيفون المزهر وقصة شعري الجديدة، فلم يتمالك نفسه من الإبتسام والإعجاب بمظهري الجميل مشجعاً إياي على هذه الخطوة الهامة والجريئة في طريق العلاج الذي تخللته إنتكاسات كثيرة.

في العيادة ألتقي بأصناف عديدة من المرضى، لكن أبداً لم أحاول الدنو والإقتراب من أحدهم وكأني أستنكف أن أكون منهم، أصاب بعدوى أمراضهم النفسية، فيا لها من نرجسية وحماقة! أشيح بوجهي عنهم فلا أنظر في وجوههم الباهتة، حركاتهم الغريبة المنفلتة وردود أفعالهم، حقاً أخشى الجلوس بينهم، ما زلت أفكر بطريقتي التقليدية حولهم، رغم أني أراجع مثل هذه العيادات من سنوات، فلمَ المكابرة لا أعلم؟!

في الماضي شعرت بالرهبة الشديدة من مراجعة الطبيب والشرح له بما أحس به وأشعر من تناقضات، وعلى الخصوص في البداية حين كنت أنا نفسي لا أعلم ما أنا عليه وماذا أريد بالضبط، مشاعري المختلطة التي يردعها عقلي بين الحين والآخر سببت لي هوة كبيرة في روحي، فساءت طباعي وإزدادت عصبيتي وتمردي، فغاليت في السهر خارج البيت والتدخين رغم إعتراض أبي ورفضه، رافقت أولاد الجيران والأصدقاء الى المقاهي وجلسات الأنس الصاخبة حتى تبيض خيوط الليل الأخيرة فأعود الى البيت مترنحاً أطرق الباب بلا وجل أو حياء بعد أن سئم والدي من

توبيخي وتعنيفي. فقدت ذلك السلام والصفاء الداخلي وجبت الليل أبحث عن رجولة الجميع يطالبني بها، إنتميت الى أحد مراكز تعليم الكاراتيه وألعاب الدفاع عن النفس مظهراً إهتماماً لا بأس بها، حتى فاروق نفسه بدأ يخشى قبضتي وحركاتي الفنية في الصراع بعد أن كان هو حصني المنيع الذي كنت ألتجأ اليه حين يضايقني بعض الصبية، لقد كادا أن يجرداني من ملابسي الداخلية، شعرت بالإختناق، إبتلعت الماء، تلاشى صوتي المستنجد به، تناقصت قواي وأنا أردهما عني ركلاً ودفعاً بالأخص بعدما قام الشاب الضخم الجثة بإحكام قبضة يديه القويتين على يديّ، تاركاً للآخر أمري، أوشكت أن أفقد الوعي وأستسلم بعد أن إستبد بي التعب، لا أذكر كيف هجم فاروق عليهما هو وجماعته فلاذ الآخران بالفرار ولم يقربا من النهر ثانية، لم يغب عن ذاكرتي تأنيبه لي وهو يرمي في وجهي قميصي قائلاً بنبرة حادة لاهثة: خذ إلبسه وإياك أن تخلع ملابسك أمام الآخرين، إسبح بها، لكني منذ ذلك الحين إكتفيت بوضع قدميّ في النهر جالساً أراقب البقية تعوم وتنتعش في مائه.

لم أنجُ من مزاحهم الساخر وتهكمهم في أن ذينيك المهاجمين ظنا أني بنتٌ تراود النهر جمالها بجسدها الأبيض الناعم، فسبقا النهر إليك، وأخذ الجميع يقهقه بما فيهم فاروق الذي أوثق ربط أزرار قميصي وأجلسني الى جذع الصفصافة التي مالت بأغصانها الى النهر في شوق لا ينضب.

كبرنا وكبرت الصفصافة وصغر النهر وضاق على نفسه، يشكو العطش والإحتلال من القصب الذي تكاثر فيه على شكل مستعمرات هنا وهناك والحشائش المتاخمة على ضفتيه، مسكين هو النهر... لم يأمن على نفسه هو الآخر!

حقاً لا أفهم كيف تختلط المشاعر وتتداخل الى الحد الذي نقف فيه عاجزين عن تفسيرها أو سبب بواعثها، كنت قد لاحظت إهتمام أفنان وإنجذابها الى صديقي فاروق في جريها قبلي الى فتح الباب له، لمعة عينيها حين تلمحه أو يرد ذكره، الأمر الذي أثار حفيظتي... لا بل غيرتك... لم تكن غيرة بالمعنى الصرف... بل هي كذلك، غيرتك لم تسمح بإقتراب أي واحدة منه حتى لو كانت شقيقتك الغالية أفنان... لا أعلم، لا أعلم! بعد كل هذا الوقت لن أستطيع إدراك كنه تلك المشاعر، أغار على من فيهما؟!، لا هذا جنون!... الحقيقة أحياناً أشد إحباطاً من الجنون، أزعجك ذلك الإعجاب الذي أبدته أفنان بفاروق... كلا لم أتضايق... تضايقت الى حد تأليف قصص ومغامرات عن فاروق مع فتيات لم يعرفهن قط، أصبح شغلك الشاغل قراءة إنطباعات شقيقتك وردود أفعالها على تلك العلاقات والقصص التي بالغت أحياناً كثيرة في سردها والإسهاب في شحذ خيالك بتفاصيلها، حتى لمحت في عينيها خيبة الأمل، وإنطفاء جذوة ذلك الإعجاب قبل أن تتوهج، فصارت تنأى بنفسها عن سماع مغامراته أو حتى التطرق اليه ولو من بعيد، ما كل ذلك المكر! وتلك الأنانية؟... فاروق لي، أقصد هو صديقي... نعم أصبت، أردته أن يكون لك وحدك ولا أحد سواك حتى لو كانت أفنان... كانت مشاعر مراهقة ليس إلا، أهملتها عندما ودعت الثانوية وشدت الرحال الى الكلية، خصوصاً إنها تكبره بعامين ولا مجال لخوض نزوة عابرة مع صديق أخيها، الذي لم يطل يوماً في عينيها أو يميز شكلها على نحو دقيق وواضح... أظنك للآن تخوض في تبريرات واهية!... لا ليست واهية وإنما الحقيقة... ما من حقيقة سوى أنك تلاعبت بمشاعر أفنان وكذبت عليها من أجل إبعادها...

أأذكرك أم نسيت أيضاً كيف تلاعبت بفاروق حين لفتت إنتباهه إبنة الجيران التي رمت اليه من سطح البيت رسالة موشومة بقلب وسهم لُفت على حجر صغير، وكيف صوب ذلك السهم قلبك مشعلاً فيه حرائق غيرة لم يوقف مسرى لهيبها إلا دخان الريبة والشك الذي بعثته في صدر فاروق عندما أسأت الى سمعة تلك الفتاة متهماً إياها بأنه ليس الأول في الحي الذي شاغلته بأسهمها، وهكذا كنت تترصد كل معجبة به ككلب بوليسي، ولا يهنأ لك بال حتى تظفر بقلبه المكلوم خيبة لتواسيه وتخفف عنه فيا لك من محتال؟... لست محتال، أنا فقط أحاول، أحاول... ماذا تحاول؟ قل! ها ها ها... كفاك سخرية، هيا أخرسي.

أطرى الطبيب على مظهري، وقبل أن أخرج رمقني قائلاً: أظن أن هذه الملابس مع كعب عال ستكون أكثر ملائمة من هذا الحذاء!

أهو طبيب أم مصمم أزياء؟! قلتها في نفسي بعد أن رددت على كلامه بإبتسامة فاترة، إن فكرة المشي بكعب صعبة للغاية على شخص قضى باعاً طويلاً مع الأحذية الرياضية الخفيفة، في السابق كنت أتوق الى تجربة أحذية شقيقاتي والسير بها داخل البيت على وقع ضحكاتهن الساخرة مني وأنا أتلوى في مشيتي أتوقع السقوط في أي لحظة، أما الآن فلا أعلم لماذا بت أخشى تلك الأحذية ولا أقرب منها، صوت كعبها المدبب يثير توتري وحنقي، لا أظن أن كل النسوة يرغبن بإرتداء تلك الأحذية، فلماذا لزاماً عليّ أن أرتديها أنا؟!

مررت من أمام واجهات محلات الأحذية، وإشتريت زوجين بعد أن أجهدت نفسي في البحث عن نوع يناسب ذوقي ويكمل مظهري الذي يجب أن أتواءم معه قبل أن نمضي بخطوات أكثر عملية في طريق العلاج.

كانت شقيقتاي وجدان وسوزان هما الأكثر ولعاً بتلك الأحذية ذوات الكعب العالي المدبب الذي يُكمل جمال مظهر المرأة وأنوثتها على حد قولهما.

أفلحت سوزان في الزواج قبل وجدان رغم إجماع الجميع على جمال وجدان وشدة جاذبيتها، الأمر الذي أثار حفيظتها وقلقها في الحصول على فارس أحلامها بعد قائمة الرفض الطويلة التي مني بها أغلب شباب الحي، أما سوزان فقد تزوجت أول خاطب لها دق الباب، لم تصدق أن أحدهم قد تجاوز وجدان وسعى اليها، فوافقت على الفور قبل أن يغير رأيه رغم تحفظ أبي وتردده في الموافقة عليه هو وأمي التي أبدت نفوراً من أهله وطريقة عيشهم العشوائية غير الملائمة لسوزان، لكنها لم تصغِ لكلمات أمي، وتحمست للذهاب مع وليد الى أطراف الصحراء حيث يعمل في صفوان، وباتت زياراتها لنا تتناقص مرة إثر مرة بسبب بعد المسافة وذرائع أخرى إستنفدت معظمها رغم أننا قد كففنا عن عتابها أو لومها في التأخر علينا بالزيارة، فقد إستسلمت أمي الى أن إبنتها من النوع التي تبيع أولها وآخرها لأجل رجل، حقاً لا نعلم كيف تغيرت شخصيتها كذلك هيأتها التي عكست طبيعة عيشها المتقشف وخشونته.

لم تبح لنا بالكثير عن حياتها هناك، كذلك لم تسنح الفرصة للتعرف على زوجها وليد عن قرب، كما هي العادة مع الأنسباء الجدد، لكن صورته بشعره الكث وذقنه غير الحليق بقيت عالقة في ذهني مع تقاسيم وجهه العابسة وجسمه الناحل على قميص وبنطال يصعد الى أعلى السرة ولا يمنع نزوله سوى حزام بهت لونه وتغضن جلده، كان شكله مدعاة فكاهة وسخرية العائلة لاسيما وجدان التي أخذت على عاتقها الجانب الأكبر من ذلك، شامتة بسوزان وإندفاعها بالزواج من أول طارق، فكانت تتفحصها

بعين المراقب بحثاً عن العيوب والنواقص التي طرأت على أختنا التي لم تتورع عن أخذ المساعدات المادية والنقدية من أمي، وحمل أغراض وملابس وجدان القديمة والزائدة عن حاجتها في حقيبة كبيرة بكل فرح وسرور لتتباهى بها على المعلمات في مدرسة المنفى، لكن أبداً لا أظن أنها قد تجاسرت وإرتدت تلك الكعوب العالية التي تنغرس في الرمال كما إنغرست هي!

جاءت متأخرة بيوم على حضور مأتم أبيها كما أخبرتني وجدان، إلا أنها أول من طالب بحصر الأرث وتثمين ما لديه من أملاك وعقارات في عزيمة واضحة لغسل أدران سنوات فقر وعوز ما عادت قادرة على الصبر عليها بأشهر معدودات.

يا الله كم كان موقفاً في غاية الإحراج والصعوبة، لا أزال للآن أشعر بحرارة وطأته، فأسبح بعرقي خجلاً منها، لم أعرف كيف أصارحها وماذا عساي أخبرها، من أين أبدأ وكيف أنتهي؟!... صار لزاماً عليك أن تخبرها، لا تهرب هكذا... وكيف أواجهها بما أودّ فعله؟... لا تدعها معلقة، إحترم العشرة وأخبرها... رباه كيف أخبرها؟ ومن أين أبدأ، ساعدني يا الله... هي صديقة الطفولة ربما تتفهمك أو تحاول ذلك... لا أدري لست واثقاً من هذا الأمر، ما سأطرحه عليها خارج نطاق أي فهم أو تفهم، أعني يا ربي، أعني.

أشعر بسخونة صدغيّ ووهن أطرافي حين أتذكر تلك الليلة، لا أدري لِمَ إخترت الليل لإخبارها! أجن جنوني حتى أفجعها ليلاً والناس نيام؟!

أشفقت عليها من كل قلبي، كانت قد إرتدت قميص النوم الحريري الأسود، تزينت وتعطرت وأنا أراقبها وهي تجر الكحل فوق جفنها وتطبق شفتيها على أحمر الشفاه لتبدو المرأة التي أشتهي، أقدر كل جهدها المفرط في

ذلك، وكم لمحت في عينيها نظرة الخيبة في إرضائي، فتراجعت ثقتها في نفسها أحياناً وإتهمتني أحياناً أخرى بأن هناك امرأة أخرى في حياتي تشدني منها، ليت الأمر كذلك، ليت...

تنحنحت، إقتربت فإبتعدت عنها، نزلت الى المطبخ لأشرب الماء رغم وجود دورق الماء قريباً من متناول يدي، الغرفة تعبق بعطر جميل، ضوء أحمر خافت يشي بالكثير فخفق قلبي متسارعاً، كانت ممددة على السرير، فجلست على الكرسي المقابل، غشيت عينيها نظرة إستغراب وخيبة، يا إلهي ماذا عساني أقول لها؟! ألهمني الشجاعة يا الله، اليوم أحتاجها أكثر من أي وقت مضى، ألهمني.

مرت الدقائق طويلة وأنا أجلس على الكرسي بلا حراك أو كلام، فسألتني بنبرة مترددة: ما بك؟ ما الذي يجري معك؟

تأتأت تعثرت بكلماتي وتلعثمت وكدت أختنق بما يجيش في صدري من عذاب وألم، إلهي أعني على ما أنا فيه... هيا لا ترجيء الأمر أكثر، هيا أخبرها.

كان إعترافاً صعباً بل في غاية الصعوبة، لم تستطع أن تصدق ما تسمعه، فصرخت في وجهي طالبة مني أن أتوقف عن هكذا مزاح ثقيل، لم تعقل ما أخبرتها إياه، فإنكمشت على نفسها، تنود برأسها ذاهلة وهي تردد بصوت أجش تخنقه الدموع: قلت لك إخرس، كفاك مزاحاً، إخرس، إخرس، هو كابوس وسأصحو منه في الغد، فإخرس.

ليته كان كابوساً، ليته، للحقيقة طعم أمر من العلقم، فيا لقبحها، فيا لقبحها، المسكينة تقرفصت عند قدميّ تتوسلني أن أكف عن قول هذه

الترهات السخيفة، وقالت وهي تضع كفها على جبهتي: لا بد أنك محموم، هيا قم لننام.

ضاعت الكلمات مني تبعثرت أفكاري ومن ثم شجاعتي في مواجهة هروبها وعدم تصديقها لما تسمعه إذناها، الصدمة أفقدتها رشدها، أناني بشع أنا، لا أستحق ما تكنه لي من حب، لا أستحق.

- أرجوك إسمعيني، أنا لم أتفوه بسوى الحقيقة، فإفهمي رجاءً.
- هيا الى النوم فقد تأخر الوقت، وما تشعر به من حمى سيزول في الصباح، فهيا.
- لست محموماً، أبداً، لست محموماً، وأعلم أن ما قلته شديد الوقع عليك.
- لا تخشَ شيئاً، فأنا لم أسمع ما قلته، هي نزوة عابرة، وشعور مؤقت صنعته الحمى في رأسك، فهيا قم نخلد الى النُّوم قليلاً.

وقادتني من يدي الى السرير كمعتوه، لا يعي ما يقوله، سحبت عليّ الغطاء، بعد أن قاست حرارتي بظهر كفها ثانية، هيا أخلد الى النوم يا غيلان.

لا أذكر كيف غشي عيني النعاس فنمت كطفل صغير، آملاً بأن ما يحدث له مجرد كابوس سيصحو منه هو الآخر، كابوس لا غير، ما يحصل لي... كابوووووس.

كم أحسدها على رباطة جأشها وصبرها عليّ... لا تتحاذق لم يكن صبراً، بل حباً كبيراً لا تستحقه أنت، لا تستحقه، الحب مأساتنا الكبيرة وفرحنا الأعظم... سحبت عليّ الغطاء كأم رؤوم وتمددت الى جانبي

بهدوء... الحب أكثر جنوناً وأقسى من الجنون ذاته... لم ترمِ بملابسي الأرض ولم تمزقها كما توقعت، ولم تصرخ بأعلى صوتها إستغاثة في فضيحة مدوية، لم تشتم ولم تثأر لكرامتها النازفة، خالفت كل توقعاتي وظنوني، كم أنت كبيرة، وكم صغرت في عين نفسي أمامك؟ كم صغرت!

مسكينة أنتِ، نلت حظك الأوفر في اليتم صغيرة، وخيبة الأمل الأشد في الحب والزواج وأنت صبية شابة، أدرك كم بذلتِ من جهد وكابدت مشقة وعناء إرساء هذا الزواج على ضفة الأمان، أدرك أنك أحببتني دون قيد أو شرط، فعلت كل ما بوسعك كي تنالي بعضاً من قلبي، فبأي قلب كنت تطمعين!

تستوطنني الذكريات، تعشعش في كهوف روحي المظلمة وتجاويف عقل يقطع ويوصل شعرة الجنون... أغلق الطريق على سيل الماضي وخرير ذكرياته ومتاهاته وإخلد الى النوم، وقل الحمد لله أن لا أحد يملك تصاريف الغد سواه.

٧

تكررت نوبات إصابته بمشاكل قلبية لم أستطع معرفة ما سببها أو تشخيصها الدقيق من طبيبه، لكنها دقت ناقوس الحيطة والحذر من القادم، فهيأت كل أوراق نقل الملكية المطلوبة التي أعدها لي محاميي بإنتظار فرصة مؤاتية أنا نفسي خلقتها بعد أن تعذر عليّ إبقاؤه في البيت، حين إرتديت أكثر قميص نوم يحبه ورحت أستعرض مفاتني بدلال وغنج، كان يوشك على الخروج والسهر خارج البيت كعادته، فعدل عن رغبته بعد أن فهم تلميحي، جهزت له عدة السهر من خمر ومكسرات، رقصت له على أنغام وأغاني سعد الحلي الذي يطرب لسماعه، تمايلت أمامه بإنوثة بالغة، تكسر خصري مع الموسيقى، تهاديت بشعري يميناً وشمالاً، فأثرت مكامن رغباته كلها، تناول بدل الكأس الواحد كؤوساً وأسرف في التحديق إليّ وأنا أشده نحوي تارة وأبعده تارة بدهاء المرأة وإقتدارها على إمتلاك حواس الرجل وتوجيه غرائزه، إحتسى معظم القنينة وصب لي كأساً شربته من يده بدلال أفقده ما تبقى من صوابه وهو يلومني بصوته الخدر: أين كنت من قبل؟ ما كل هذا الجمال! لماذا تخبئينه عني؟!

فرددت عليه بضحكات وإيماءات سلبته رشده، وبات بين يديّ كخرقة لا يملك من نفسه شيئاً، نهضت من جلستي فأمسك بقدمي متوسلاً لائذاً، تصنعت الدلال والرفض، فأحكم قبضته وقطرَ فمه لعاباً وشهوة، إرتشف كأساً آخر بعد ممانعة أبديتها بنبرة وصوت مغرٍ شغوف زاده ولهاً، أمسكته

القلم ليوقع على أوراق وفواتير عديدة تخص العمل من بينها تلك الورقة فآثر تأجيل ذلك الى الصباح، لكنه تحت تأثير الخمر وسطوتي وقع دون أن ينتبه لشيء.

هل أنتِ راضية بما فعلته؟! حدقت في المرآة، تفحصت وجهها، ذقنها المنحوت، رقبتها المشدودة وبشرتها البرونزية اللامعة... نعم كل الرضا، لست بنادمة على شيء معه، فلا تحاولي مضايقتي، لن أشعر بالذنب مهما فعلتِ... لقد تغيرتِ كثيراً، تمرر أصابعها على رقبتها، ترفع شعرها الحريري، تباهي بجمالها... بالضبط تغيرت كثيراً، أما آن لك أن تتأقلمي؟! وإستدارت بظهرها عنها غير مبالية تاركة إياها أمام المرآة وحيدة تقارع هواجسها.

تلك الغبية تريدني أن أشعر بالندم على ما فعلته، يا ألهي كم هي مغالطة وجبانة، كان أمراً حسناً أني لم أطاوعها في تخليها عن تلك الفكرة في آخر اللحظات، جيد أني إستبقته الى ما كان ينوي فعله بي، وهذه الحمقاء تسألني إذا ما كنت نادمة، لست بنادمة، لست بنادمة، لن أقع في فخك هذا اليوم، هل تسمعين؟! لست بنادمة فعذراً منك، وتأبطت حقيبتها المصنوعة من خوص النخل المصبوغ ونزلت الى الأسفل بعد أن تفحصت هاتفها ورمته حانقة على السرير معاقبة إياه نزر الرسائل وشحة الإتصالات.

لم أكن حينها قادرة على معرفة ماذا أريد، أو بالأحرى تشوشت كل أفكاري وأصبت بخيبة أمل بعد أيام من إستضافتي في شقة فاروق، فقد أدركت أن واقعنا يختلف تماماً عما حلمت به وتصورته، حقاً شعرت أني

حمقاء بإمتياز، أحرجت نفسي معه مثلما أحرجته معي، لكني فهمت من ذلك الشهر أن ليس بإمكانه التعاطي معي بوضعي الحالي، وكل ما يحمله قلبه تجاهي لا يعد أكثر من تعاطف وشفقة لرفقة العمر وصداقة الماضي، فودعته دون أي ضغينة أو عتب عائدة بأدراجي الى حيث حياتي الجديدة، تاركة خلفي فاروق الى غير رجعة أو أسى... ما كان عليك أن تقومي بتلك الزيارة... بل على العكس، أنتِ واهمة، لولا تلك الزيارة لما إستطعت المواصلة بهذه القوة والطموح، ولكنت سأظل مشدودة الى الماضي، تائهة أتخبط فيما أبغي وفي من أكون، في ذلك الشهر كشفت عن وجه الحقيقة تحررت وتكيفت مع ألمها آملة أن الوقت والنجاح كفيلان بترميم جروح القلب ونكساته... وكامل الزاهر أكان البلسم!... يا لك من غليظة! هيا إستمتعي بمشاهدة القوارب والوجوه الفرحة الرائقة وكفي عن إزعاجي.

تطول نهارات هذه الإجازة ويثقل ليلها بالوحدة، أفكر ملياً في قطعها والعودة لولا نصائح الطبيبة في مدى حاجتي الى الجلوس مع النفس وكأني لم أقضِ كل عمري في خصام وشجار معها، لا أدري كيف طاوعتها، ألوم نفسي كل يوم على ذلك ولا أعلم ما الذي يمنعني من حزم حقيبتي، إشتقت الى كرم وأمي، أفتقد وجودهما قربي، مشاكسته مع أمي التي لا تكف عن مناداته بإسم غيلان رغم أنه يصحح لها الإسم في كل مرة الى أن إستسلم موافقاً على حمل إسم غيلان الى جانب إسمه إكراماً لجدته العجوز التي لا يبتسم ثغرها أو تتفوه بكلمة إلا عند مرآه قادماً نحوها: غيلان ولدي، وتعانقه متلهفة.

لا أستطيع نسيان ما فعلته وجدان بأمي، وكيف طاوعها قلبها أن تتركها في دار العجزة منبوذة وحيدة وسط الغرباء؟! لتهاتفني بعد مدة مبررة فعلتها بمرض السكري الذي أتعبها وأصاب جسدها بالهزال مما جعلها غير قادرة على العناية بأمنا.

أندهش حقاً من وقاحتها وسوء خلقها حين تهاتفني طالبة مني نقوداً لأجل القدوم وزيارة أمها التي أبعدتها أنا عنها -كما تزعم- وكم من مرة لمحت الى رغبتها في البقاء قربها ترعاها وتهتم بها، من أي طينة جبلتِ يا وجدان؟ من أية طينة؟!... باتت تشتاق الى أمها وترغب برعايتها بدلاً عن الغريب، يا لك من إمرأة أنانية، ليس للخجل مكانٌ في قاموس تعاملاتها مع الآخرين.

فكرت أحيانا في حظرها وعدم التواصل نهائياً معها، لكني أعود وإشفق على وضعها وما أنزله الدهر بها، أو ما جنته على نفسها لقاء طمعها وقسوتها.

كيف شاءت الصدفة أن نلتقي عند ناصية الطريق؟! لم نستطع تحاشي بعض، وبوجهها الممتقع حمرة وحنقاً سألتني بصوت مخنوق وعينين هادرتين بالخيبة: أين غيلان؟ لماذا سرقته منا؟!... لماذا؟ هل إستبدلت هذه التنورة بعائلتك؟! خلت أن الشرر يتطاير من عينيها وهي تردف قائلةً: ألأجل هذا إستبدلتنا، وهزت رأسها إحتقاراً وأسفاً، ماذا عساني أقول لهذه الصغيرة حين تسألني عن أبيها؟! هلا أجبت... ماذا أخبرها؟ أما فكرت بالعار الذي سيلحق بها؟ أما فكرت! إرتفعت وتيرة غضبها وصوتها، ورمت بوجهي المتبرج بصقة إشمئزاز وإمتعاض كبيرة على مرأى الفتاة الصغيرة

ودهشتها التي إتسعت عينيها العسليتين مما فعلته أمها معي، كانت جميلة، لمحت فيها ما تبقى من غيلان.

ظل سؤالها يطن في أذني، يقض مضجعي، ماذا عساها أخبرتها عن والدها؟ أقالت لها أنه مات أم.....؟!

درءً للشائعات وتقولات أهل الحي، شرعت وجدان بترديد أحاديث وحكايات حول غيلان وقصة فراره مع المغني والفرقة الموسيقية من سخط إبن أحد المسؤولين الكبار وغضبه عليهم، وما لحقها من قصص ومغامرات لغيلان وجماعته من مطاردة للشرطة والأمن وإلقائهم في غياهب السجون، من يدري الى أين شطح خيال وجدان في سرد تلك الحادثة وهل ختمتها بموتي والفرقة أجمعين كمعارض وشهيدٍ لأجل الوطن.

وربما ثريا هي الأخرى قد تبنت قصة وجدان وأخذت ترددها على مسامع من تعرفهم، لتروي بفخر قصة تحدي زوجها وفرقته لأزلام النظام، فقول كلمة الحق مكلف للغاية في بلادنا، رذاذ بصقتها ما يفتأ يرطب تلك الذكرى ويحفظها من التلف، فلا أفكر في ثريا حتى تمتد كفي بشكل لا إرادي نحو وجهي تمسحه.

ليس من السهل أن تتخلى عن حب عانيت من أجله الكثير، وصبرت على آلامه وعذابه ولا تحصد منه سوى خيبة الأمل والإحساس بفراغ يقطنك، هوة تملأك لا قرار لها، ضيق يجثم على صدرك ليحيل حياتك الى متسلسلة مملة من أيام متشابهة لا تختلف عن بعضها إلا بالإسم، فتتراجع الطموحات منكمشة، ويخبو رونق الغد وكل تطلعاته ولا يبقى سوى مرارة

الشعور بأن لا شيء في الحياة يستحق بذل أي جهد، أطيل المكوث في البيت مبتعدة عن الناس وكل مظاهر الحياة الإجتماعية من لقاءات أو حفلات، يضمحل في عيني كل الذي حققته وسعيت إليه من نجاح، لا أعود أكترث لشيء، تسكنني روح أخرى غريبة لا أعرفها، تذكي إحساسي بالغربة والوحدة، تتداعى أحلامي وأمانيّ في حياة لطالما رسمت خطوطها على صفحة قلبي منذ أن وعيت ذلك الشعور الحارق بالحب، ذلك الألم اللذيذ المحبب، لا أنظر في المرآة حتى لا أراه، ولا أمشط شعري حتى لا أذكره ولست أنساه، عدت من البصرة مثقلة بالفراغ، نعم للفراغ وحدة وزن وقياس أسمها الروح.

تلتف الأيام حولي، كأفعى تعتصر ما تبقى فيّ من ترياق الحياة فأفكر ملياً في الإنتحار، في قطع شريان أو حفنة دواء، ثم أتراجع مشفقة على نفسي، دوامة لا تنتهي من الكآبة واليأس، الخدر والخمول يسلباني طاقتي، فيصبح السرير ملاذي والشقة معقلي من الناس والضوضاء لأشهر، حتى مدير أعمالي لم يوفق في إخراجي من نوبة الكآبة هذه، لكني إستسلمت لإصراره على مراجعة طبيبة نفسية هو من رشحها لي، لم أكن أودّ في معاودة مراجعة أطباء نفسيين وتعرية نفسي أمام أحدهم، وأخذ أدوية ومضادات كآبة بعضها يسبب لي السمنة فتزيد الطين بلة.

في البداية تحرجت من تلك الطبيبة التي تقربني في العمر، وترددت في الحديث إليها، ومع إبتسامتها المحببة ونبرة صوتها الهادئة التي تبعث في المقابل شعوراً بالثقة والإطمئنان، بدأت جلستي الأولى مع الدكتورة إخلاص، التي أمست مع الوقت أقرب صديقاتي وحارس روحي من إنزياحاتها المتواترة.

ما كنت أفكر بالزواج من أحد بعد هزيمتي الكبيرة في الحب وتراجع إيماني به، فوهبت نفسي الى الفن مصرة على حصد النجاح وتحقيق شهرة واسعة تعوضني عن خساراتي وتخفف عن وطأة ما يعتريني من ألم، إلا أني تزوجت من كامل الزاهر في نية الحصول على العائلة والإستقرار الذي وعد بتوفيرهما لي رغم ما يشوب سمعته من إشاعات لمستها قبل مضي السنة الأولى من زواجنا، ليزدحم بعدها ثانية جدول أعماله بالفنانات وجلسات التسجيل ولقاءات ومواعيد عشاء وغيرها مما يصطاده بعض الصحفيين من أخبار وصور في عكرة علاقاته.

لم أشعر بالغيرة عليه قدر ما شعرت بالإساءة الى كرامتي وسمعتي الفنية، فطلبت منه الطلاق لكنه رفض واعداً إياي بالتغيير وترك كل عاداته السيئة وعلاقاته، لم أثق بكلامه حينها لكني كنت مشغولة بتحضير ألبوم جديد ووقتي لا يسع لتلك المطاردات الزوجية السخيفة مؤمنة بأن ذيل الكلب لا يستقيم أبداً.

النجاح والشهرة لم تعوضا فقداني لطفل يملأ وحشة حياتي دفئاً، ويسد فراغ الزوج الغائب عن البيت معظم الوقت.

عارض كامل بشدة فكرة التبني مشدداً في إصرار متطرف لم أعهده فيه من قبل على مراجعة طبيب الأمراض النسائية ليقيم حالتي من جديد، فماطلت في الذهاب اليه حتى إنشغل كلانا بأعماله عن هذا الموضوع كما كنت أتصور لولا تلميحاته بين الحين والآخر وما يرافقها في عينيه من نظرة مرتابة لتتصاعد بعد فترة الى الأسئلة عن ماضيي متفحصاً أجوبتي تحت مجهر خبرته.

طرق خفيف على باب جناحها في الفندق يقاطع سيل أفكارها، فتعتذر موظفة الإستقبال عن ذلك داعية إياها الى سهرة يقيمها الفندق بمناسبة مرور ستين عاماً على تأسيسه، مع بطاقة دعوة مذهبة أنيقة ووردة صفراء شعار الفندق.

ماذا صنعت بنفسي؟ أين أنا من بين كل النساء اللواتي لبسنني؟! حقاً من أكون أنا!؟ أجيبي هيا... من أنا؟ ضاعت ملامحي عليّ، وهي تدنو من المرآة بشدة، أجيبي هل تعرفين من هذه؟! ألا تزالين تحفظين قسماتها السابقة وتعبيرات وجهها؟! إن كنت كذلك فأنا أحسدك حتماً!

أصبحت إنسانة مختلفة، أجهل شكلي من بعيد وأحسبه لإمرأة أخرى حين ينعكس ظلالي على زجاج النوافذ وأنا أسير، إختلف مظهري عدة مرات، زاد وزني ونقص عشرات، أنفي توارث هيئات عدة بين الإغريقي الى العربي، إنتفخت شفاهي وزاد حجمها وتهدل، وجنتايّ إرتفعتا فوق المعدل، نبت فوق حاجبيّ حواجب ترسم حسب الطلب، رموش إصطناعية، جلد مشدود أخاف عليه أن يتمزق حين أصرخ أو أضحك، وسادتين من الماء المالح ترقدان تحت صدري لتطلان على العامة معظم الوقت، خصر منحوت، ورك بفخذين مصقولتين، لا شيء لي... لا شيء لي، أين أنا من بين كل هذا وذاك؟... كيف أميز أنا من بين كل تلك النساء التي لبستني، لا شيء فيّ هو أنا، حتى أظافري، لا شيء، لا شيء، شعري تغير لونه عشرات المرات، وكالأفعى نزعت جلدي مع كل حول حتى بات بلون الصدأ، من عساني أكون؟ وكيف أعرف أنا إذا ما إلتقيتها صدفة في طريق؟! أي جنون أسير نحوه؟!

هل تدركين أن إبتسامتي أمست هوليودية بأسنان مغروسة في قوالب عاجية، لا شيء لي، لا شيء، وعندما أدعك الشامة فوق الحافة العليا من فمي أتذكر أنها بذرة خلقّت في بيوت زجاجية، لا شيء لي، يداي يمسك عروقهما الفلر والبوتكس، قُص من زندي الجلد الزائد المتراخي، كذلك أزيلت أرطالٌ من الشحوم، فأين تبقى لي أنا من أنا؟ حيث أغير كل يوم لون عينيّ العسلية بأخرى خضراء أو فيروزية، قبحني الله ما عدت بشرية، أيادي الأطباء خاطت خارطة جسمي وزعت حدودي الإقليمية، سهول ومرتفعات، وديان وكثبان رملية، فأين أنا؟!

وقذفت المرآة بآنية الزهور القريبة منها، وإرتدت ملابسها على مرآى قطعها المنثورة على الأرض، وعندما نزلت طلبت مرة أخرى من إدارة الفندق إستبدالها بأخرى تقاوم الكسر، تقف في وجه رعودها وأمطارها شبه اليومية، فمط موظف الإستقبال فمه، رافعاً حاجبيه مع إبتسامة دبلوماسية مجاملة.

- أرجو الإستعجال في جلبها وتنظيف المكان.

- حاضر سيدتي.

وتابع بعينيه خطواتها حتى خرجت، هازاً رأسه، شاكراً الله على نعمة العقل التي يفقدها فنانون كثر.

لم تسنح لي الفرص باللقاء بإبنتي، إثنتين أو ثلاث مرات على أبعد تقدير، تاركة في القلب غصة كبيرة لم أتجرعها على مر هذه الأعوام الطويلة، آه رفل إبنتي الصغيرة، كم كنت أنانية في حقك؟ كم كنت! يا الله لِمَ كل هذا

الإختبار؟! لِمَ كل هذا الألم الذي أقاسيه؟! كمسمار يُدق في قلبي كل يوم بمطرقة الضمير، وصوت يصرخ في أعماقي يعتصرني، يمخر حنايا الروح بصدى كلماته القابعة في حضن ذاكرة تأبى النسيان، فيا لأنانيتي يا إبنتي! لم أحضر حفل زواجها، وراقبتها عروساً تمسك باقة ورد وطرف فستانها، وبنظرات بريئة حانية ترمق عريسها في صور أرسلتها لي وجدان عبر الواتساب وتحتها تعليق: أظنها تشبهك كثيراً.

شعرها الناعم البني يتدلى في خصل من تحت وشاحها الدانتيل الأبيض، عيناها العسليتان تجودان بحب وفير وجمال صافٍ، بشرتها العاجية تتماهى مع فستانها كملاك أو أميرة من عصور سالفة، ثغرها الممتلئ بإبتسامة عذبة شهية، يا ألهي كم فاتني من تلك النعمة وذلك الوئام والسلام الذي يبزغ من عينيها؟! كم فاتني من هذا الود والعطف! وكم أنا بحاجة لعناقك؟ لشم رائحتك، وسماع نبض قلبك فوق صدري، كم فوتّ على نفسي؟! كم فوتّ؟!

هل يستحق ما كسبته كل هذه التضحيات؟! سؤال ما يلبث يخدش ضميري، تركتها تجاري خطواتها المتعثرة الأولى وأربعة أسنان لؤلؤية في كل صف، ذؤابات شعر خفيف متطاير، وكف صغير ينام في يدي كعصفور، وها أنت عروسٌ تزف قبل أن تبلغ العشرين، فأي دمع كفيل أن يطهرني؟!

بَارَكْت ثريا زواج إبنتها من أحد أقاربها المقيمين في الحلة على أمل التخفيف من حمل قلقها على مستقبل وحيدتها، والتفرغ الى الله في زهد وتصوف بليغ، لم أميزها للوهلة الأولى في الصور، بانت عظام وجهها وشحب لونها، عيناها غائرتان في محجريهما المتغضنين الذابلين، زاد تقوس فمها بشفتيه الرفيعتين فأضفى عليها حزناً ملحوظاً متماشياً مع قزحية عينيها المعتمتين كنافذة مطلية بالطين، كم من قسوة إقترفتها بحقك يا ثريا؟ هل

بإمكانك حصر ما ذرفته من دمع؟! يالنا من قساة! جُبلنا على تبرير أخطائنا ببعض من الندم!

في الحلة لم تستقر أوضاع زوجها، وتنقل من عمل الى عمل وسكن الى آخر بحثاً عن فرصة وقليل من الأمل الذي تظافر وكبر مع فتح ميركل حدودها لكل الأحلام، فشد مع زوجته وطفلهما حقائب السفر الى هناك.

كان لقائي الأخير بها محفوفاً بمشاعر غامضة متناقضة ضج بها صدري، ولم يتسع الوقت لي لأملأ عينيّ وجوارحي منها، وهي لا تفتأ تجري خلف إبنها خشيةً عليه من الوقوع أرضاً، جاءت إلى البصرة لتودع أمها قبل أن تسافر الى تركيا، فإستبقتها الى البصرة لأحظى بلقائها على إنفراد في بيت وجدان، وهناك سلمتها مبلغاً من المال بحجة أنه كان ديناً في عنقي لأبيها الراحل، فقبلت رفل المال بتحفظ وهي تحدق في عينيّ عمتها بحثاً عن صواب وحقيقة ما أخبرتها أنا به، فبادرت وجدان الى تأكيد أقوالي، وأن عليها أن تقبله دون أدنى تردد أو شك لأنه مال والدها.

نبرة صوتي الواثقة وتعابير وجهي المحبة شجعاها على قبول المال وتصديق ما إنخرط خلفه من قصة رتقت أطرافها بدقة وعناية، كذلك تلك الدمعة التي تلألأت في عينيّ عندما قلت لها: والدك المرحوم كان إنساناً كريماً، فنهضت من مكانها وعانقتني شكراً وإمتناناً وأسبغت بالقول: أن هذا المال قد جاء في أوانه، الحمد لله على عطاياه وجزيل كرمه، حقاً ما أحوجنا الى هذا المال، وقبلتني ثانية.

لا يزال أنفي يذكر رائحتها الزكية وأنا أغمس رأسي في عنقها وشعرها، ويدايّ تحفظان لحظة ضمها إليّ معانقة، جيدها النحيل العاجي، أصابعها

الرقيقة الرفيعة، آثار جرح صغير ظل غافياً عند زاوية فمها من تلك الليلة عندما تدحرجت من السلم مرتطمة بحافته الحديدية، شعرت بالدوار آنذاك من منظر الدم ودفء لزوجته على كتفي وأنا أحملها الى المستشفى.

حاولت بشتى الطرق درء مسار الدموع على وجنتيّ، وضع حواجز من التجلد ورباطة الجأش لكنها لم تنفع أمام سيلها، فبكينا نحن الثلاثة في حفلة نشيج على ما فات وعلى قادم زمن لا يكفله سوى المجهول، لكننا بعد أن كفكفنا دموعنا تمنينا أن تجد وعائلتها الصغيرة الملاذ والعش في بلاد الصقيع البعيدة.

ودعتنا وإبنها الصغير غيلان على أمل اللقاء بعد حين في وطن يعاود النداء ثانية على أبنائه من الشتات.

قبلت غيلان وضممته الى أحضاني متهدجة الى الله أن ينعم عليه بحياة سعيدة، وأن لا يطاله نحس الإسم ومن كان يحمله.

لا أحمل اليوم في ذاكرتي من رفل إلا تلك الساعة المهيبة وما حملته من مشاعر جارفة وحب تجاهها وإبنها تفجر حال ملاقاتي لهما، وأمسى تماسك أعصابي ودموعي هو كل ما أبتغيه في ذلك اللقاء الذي خلا من قدوم ثريا، بعد تشديد وجدان عليها بالقدوم بمفردها تلبية لرغبتي.

شعرت بالحزن والأسف على ما ألم بثريا وكيف عاشت حياتها في عزلة وإنقباض موحش على الذات لم تستطع معه إبنتها أن تكسر أغلاله أو تفك بعضاً من طلاسمه.

كذلك أبدى فاروق إبن عمها وصديق طفولتها عزمه الكبير في مساعدتها الى حد الزواج بها تلبية لرغبة أبيه في حمل إبنة أخيه اليتيمة التي

تربت وعاشت بينهم على الشفاء، وتخفيفاً عن شعوره بالذنب هو الآخر تجاهها بسبب ما طالها من صديقه، لكنها رفضت ذلك العرض بشدة مستنكرة أن تفسد حياة فاروق برباط زوجي قائم على الشفقة والتضحية، وفِي الوقت ذاته هي نفسها لم تعد قادرة على وصل هكذا رباط وقد تحطمت وشائجه من زواجها الأول ومنيت بالفشل والشعور البغيض بالرفض، ذلك الشعور الذي لم تستطع تجاوزه رغم محاولات الجميع بإقناعها أن ما فعله غيلان لم يكن هروباً منها ونبذاً لها.

لا أدري لِمَ لم تتجاوز هذه الفكرة المجنونة، وعلقت على نفسها الخطأ ظناً منها أنها مولود نحس قتلت أمها بالولادة وتسببت في وفاة والدها بعد حين، مسكينة ثريا وأيما مسكينة لم يدر بخلدها أبداً أنها كانت الضحية دوماً.

أحدق في الخواء، في أعماق ظلمتي وتعاريج حياتي الماضية، في الأسى والعذاب الذي تسببته لي ولغيري، مقدار التضحيات وما نزَ عنها من ألم، لكن الأدهى من ذلك كله هو ما تباغتني به نفسي حين يعلو مد الندم متبرمة: لو عاد بك الزمن الى الوراء ما كنت إلا لتسيري على الخطوات ذاتها مقتفية الأثر، هذا هو أنت، فكفي عن الإدعاء.

هل كنت فعلاً لأضحي بكل شيء؟! أعاود طرح السؤال ذاته على نفسي بأشكال عديدة ومقتربات، إلا أنها لا تملك سوى الإجابة نفسها، هل أنا أنانية؟! نرجسية الى تلك الحدود البشعة! ما الذي فعلته بنفسي؟ يا الله ألهمني وخذ بيدي حتى لو كنت عاصية، لن أشكوك حالي وأنت أدرى بها، أعيش كل يوم مع عقدة الذنب، ضميري مرهق متعب، لم أظن أن ما فعلته سيجر خلفه كل هذه الضحايا وهذا القدر الكبير من التعاسة والألم! ألهمني

يا الله يا الله، ألهمني على فهم تناقضات ورغبات روح لا تعرف للسلام طريقاً نحوها، من أنا؟... هلا أجبتني؟ كيف تراني أنت؟ وحدك يعرف من أنا، كنت أظن أني وحدي أعرف من أكون، لكنك زلزلت فكري، أفقت وساوسي من مهدها، فما عدت واثقة من صحة ما فعلته، فهلا أجبتني من أكون؟ وماذا ينادى عليّ يوم اللقاء الأكبر! هل يلتبس عليكم الأمر هناك؟ هل تحفظ أوراقي جانباً حتى تبت في أمر الخلق، لتعود الى قضيتي، هل ينتابك الشك أنت أيضاً من أكون؟! أتطلب مني هناك أن أختار لي إسماً حتى ينادى به لأمثل في حضرتك؟! لن أختار ثانية، لن أقع في الفخ نفسه، أنت... أنت وحدك من يقرر ويختار، لن أقع ثانية في فخ الإختيار، أريد أن أعرف الحقيقة، من أنا؟ ومن أكون؟! أنا وحدي من يحق له هذا السؤال، أنا وحدي، ووحدك من يملك الإجابة.. وحدك، أريد أن أعرف الحقيقة، حقيقة من أكون؟!

في الماضي خلت نفسي أني أعرف من أنا، لكن الزمن كشف عن شكوك وهواجس باتت تعتريني وتنفخ في روحي جمر السؤال الذي أذر عليه الرماد بالمثول تحت مشرط الجراح من جديد في عملية ما تفتأ تعقبها أخرى وأخرى.

تحار طبيبتي النفسية أحياناً في تشخيص حالتي وما يطرأ عليها من عوارض، أصغي الى حديثها، أتمعن في كلماتها لعلي أَجِد فيها جواباً لسؤالي، أتمدد على كرسيها الطويل، وعلى مسافة من قدميّ يُسقط مصباح عمودي ضوءه الخافت، والى الجانب مني جهاز تسجيل يسترق السمع، فأخفض صوتي أحياناً لإغاضته، إستمعي الى الموسيقى، تأملي جسدك بعمق، إحرصي على زفر كل ما يجثم فوق صدرك، لا تترددي في قول أية خاطرة

مهما كانت بسيطة في نظرك، تحرري من الجاذبية الأرضية، تعالي فوق همومك، فأشرع بتنفيذ ما تطلبه مني لكن الجاذبية تخذلني فأسقط في وحل متاهة يتعسر عليّ إيجاد مخرج لها، تتقاطع الجدران، تتلاقى، تغلق عليّ الطرق، كل الطرق، أتصبب عرقاً وخوفاً، أدور على نفسي ما من طريق الى الحقيقة يؤدي!

تباغتني بالسؤال عن سر رغبتي المتواصلة بإجراء عمليات التجميل، أصمت، أحملق في سقف الغرفة، تدور عينايّ على الأركان، أقلب نفسي وتضاريس روحي، أكور فمي وأرفع حاجبيّ، إنصت الى الموسيقى، أتخيل السماء وروعة التحليق فيها، فيؤرق خاطري كم هو حجم الألم الناجم عن السقوط منها، لا أعرف... أقولها ببساطة متناهية: أنتِ الطبيبة.

لا تُلقى بالاً الى نبرتي المتهكمة لتجرني الى سؤال آخر:

أتراك قد أدمنتها أم أدمنت الألم المصاحب لها؟! أم تلك الغيرة تفعل فعلتها بك!

فأفتح حدقة عينيّ على إتساعها، أحاول تعديل جلوسي على الكرسي، لكنها تردني بيدها الى وضعي المتمدد السابق، الألم المصاحب لها... أدمنت، ما هذه الفكرة الغريبة؟ لم تخطر على بالي يوماً، مططت شفتيّ مدعية عدم الإهتمام، وقلت:

لا أدري، لعلك من يعرف الجواب.

شعرتُ حينها بالغيظ من هذا السؤال، هل من الممكن أن أكون قد أدمنت الألم؟ أي طبيبة هذه! وبانت على وجهي شبح إبتسامة، مستخفة بما جال في خاطرها.

هل هناك من يدمن الألم، ويبحث عن مسبباته؟! أفعلاً أنا أفعل ذلك؟ لم يصل إندهاشي الى مسامع طبيبتي التي كانت تترقب إجابتي، لتعاود الكرة قائلة:

يا عزيزتي البعض يعتقد أن إدمان الألم قد يفضي الى عقاب النفس وتعنيفها؟

ما بالها الطبيبة هذا اليوم؟! سألت نفسي، وأنا أفكر جادة في حديثها: هل أدمنتُ الألم كنوع من عقاب الذات؟!

- هل بات التلذذ بالألم ومعايشته كل يوم هو درعك الواقي أمام مجريات ماضٍ حزينة وواقع مرهق؟!

- لا... لا ما كل هذه الأسئلة؟ دعيني أفكر.

ساد صمت بيننا لا تحرك ذبذباته سوى صوت أنفاسنا والموسيقى الهادئة الهادرة من جهاز اللابتوب على مكتبها، بادرت الى عصر دماغي، لإستخلاص جواب واحد مقنع فلم أفلح، ورحت أستعرض أسئلتها على مائدة عقلي، إدمان الألم، عقوبة الذات، الدرع الواقي الذي أهرب فيه من واقعي، الغيرة، شعرت بقشعريرة وأنا أفكر بأن ما تقوله قد لا يخلو من الحقيقة.

٨

إستقبلت نبأ وفاة العميد البغيض بفرحة غامرة كادت تظهر على محياي لولا تظاهري بالحزن والأسف على ما ألم به في حادث إصطدام وهو في طريقه الى بيته، إذ وافته المنية على الفور هو وسائقه.

تخلل نبأ موته بعض من اللغط والسؤال عن الحادث والكيفية التي حصل بها، فبعضهم إتهم السائق بالنعاس وإغفال المقود، وآخر عزا السبب الى طيش السائق وسرعة قيادته، ورأي أوكل الحادث الى كثرة أعطاب السيارة ورداءة عمل من قام بإصلاحها، لكن بعضهم شطح بخياله أكثر وذهب في تصورات درامية مفادها أن للضابط أعداءً حاولوا مضايقته على الطريق فأسرع السائق متفادياً أن يلحقوا بهما، لكن يد القدر كانت أسرع بخطفهما من يد الأعداء.

سمعنا على مر أيام الكثير من الشائعات حول موت الضابط دون أدنى دليل يؤكد صحة واحدة منها، وكالعادة تفقد هكذا أحاديث طعمها بعد أن يمل لائكها فتبصقها الذاكرة ولا يعود إستذكارها أمراً يستحق شحذ الخيال.

كان الجندي سائق العميد قد إنتهى من إصلاح ما ألمَّ بالسيارة من عطل، ليقله في صبيحة اليوم التالي الى بيته في إجازته الدورية المعتادة. تحركت فكرة شيطانية في رأسي، فردعها العقل خوفاً وخشيةً، تعوذت بالله من الشيطان، فلم يتعذ وواصل موسوساً موغراً في صدري الحقد الذي أكنه للضابط،

خاصة بعدما تعرضت على يده الى السجن والضرب حين رفضت في تلك المرة بشكل واضح ودون أدنى موارية تقربه ومجاراته في حبه الشاذ.

إستعنت بالظلام موآزراً لي ومشجعاً على ما نويت القيام به، فتسحبت من غرفتي بهدوء بعدما طال النوم جفون الجنود السهارى والحراس وعبثت بفرامل السيارة.

وحدي من يعرف حقيقة ما حدث فعلاً، رغم تهافتي على سماع كل الشائعات والأخبار التي دارت حول موته.

لم أشعر ألبتة بالذنب أو عذاب الضمير بل على العكس إنتشيت حبوراً وشربت على روحه كأساً من زجاجة خمرته الغالية النوع بغفلة من نائب الضابط مزعل عگروگ الذي أمرني أن أرزم كل أشياء الضابط وحاجاته الشخصية في حقيبة.

وأنا أجمعها لم يفتني أن أدس في قعر الحقيبة قميص نوم نسائي شفاف كان قد طالبني بلبسه له مع ذلك الوشاح الأحمر ذي الخرزات التي ما يزال وقع صوتها يرن في ذاكرتي وأنا أشده على خصري متمايلاً به أمامه، قلم أحمر الشفاه والعطر النسائي الأخاذ الذي يضعه عليّ، جميعها أودعتها في الحقيبة حتى يتسنى لزوجته أن تختصر حزنها وتوفر دموعها على من لا يستحقها.

لا، لست نادماً على ما فعلته به، لست نادماً أبداً، فلا تبدأي معي لعبة الضمير ومناجاته، لقد نال عقابه، ولن أندم على ذلك مهما حصل... وما ذنب السائق الذي كان معه؟... لكل المعارك والحروب ضحايا لا ذنب لهم فيها، ما الفرق إن مات برصاصة أو بحادث سيارة، لا يفرق للضحية سبب الموت أو أداته.

أوتار الغربة خشنة والعزف عليها صعب إلا أني تناغمت تدريجياً مع حياة جافة باردة في شقة أشاركها مع ثلاثة مغتربين عراقيين تعرفت على أحدهم بالصدفة في ميدان تقسيم توفيراً للمصاريف والنقود التي بدأت تشح وتتضاءل بحكم مزاج وجدان وحالتها النفسية المتقلبة، فهي لم تتوانَ عن التأخر في الإرسال تحت ذرائع مختلفة وحجج كاذبة في معظمها.

لم أكن أنوي الوقوع في أسرها وحين أحسست بتلاعبها معي بت أفكر ملياً وأبحث عن عمل يقيني شُح أختي وبخلها، فتنقلت من عمل الى آخر في بلد تعمه البطالة، من غسل الصحون في المطاعم الى صبغ البيوت وأعمال الترميم والديكور حتى نلت إعجاب صاحب العمل في ذلك وبت مستشاره الأول في وقت قصير، كان يثق في رأيي بخصوص الألوان والأثاث معلقاً: إختياراتك تضفي حميمية ودفئاً على المكان، تعرف جيداً ما ترغب به المرأة وتحبه.

وبعد أن نالت العمارة السكنية التي قامت الشركة التي أعمل فيها بالتشطيبات النهائية لها من صبغ وديكور وأثاث على إعجاب غالبية المستثمرين وعلى الأخص زوجاتهم، نلت بدوري مكافأة مجزية وحصدت إعجاب المدير دون منازع، إرتفع أجري وما عدت أمارس الأعمال البدنية الصعبة بيديّ إكتفيت بدور المشرف والمنسق الذي يختار الألوان والتصاميم المناسبة.

حصدت لقب فنان بين زملاء العمل في الشركة ومعه النقود التي تقيني هم الإنتظار والقلق من شقيقتي وتقلباتها المنوطة بحجب المال عني، أصبح لي دخل ثابت وحساب مصرفي أضع فيه ما يزيد عن حاجتي.

لم أكن أعلم أن شغفي المبكر بالألوان والديكورات سيكون مصدراً لرزقي وينقذني من حافة الفقر والتشرد الى الإحترام والتقدير بعدما إهتزت ثقتي بنفسي وفي صدق ما أقدمت على فعله.

مع الإنشغال بالعمل الجديد ومتطلباته التي تستلزم تفرغاً وساعات أطول بين الإشراف الميداني ومتابعة آخر ما تطرحه الأسواق من منتجات، ومراجعة العروض وإختيار الأفضل منها لم يعد عندي الوقت لأجلس مع نفسي أو تستوقفني بأسئلتها المربكة التي قمت بتأجيلها الى إشعار آخر.

لكن ببساطة النجاح في العمل ونظرة التقدير التي ألمحها في عيونهم أعادت إليّ ثقتها المسلوبة، وأضحى لدي بعض الرفقة والزملاء ممن أسهر معهم في بعض أيام العطل والمناسبات.

مر أكثر من شهر على شكلي الجديد، بات الأمر أقل إحراجاً من ذي قبل، إشتريت حذاءً آخر وبت أتمرن على السير فيه داخل الغرفة دون أن أتعثر، قصة شعري أبرزت ملامحي أكثر، فلمست رضا الآخرين، تغير الأمر تماماً عن السابق، تحولت تلك النظرات المتسائلة والإبتسامات الصفراء الى نظرات إعجاب وأفواه فاغرة حين أجتازهم، فللجمال سطوة لا أحد بإستطاعته أن ينكرها، صرت أعرج على محال الملابس النسائية ومستلزمات التجميل بثقة أكبر دون أن أتلفت حولي، ولا أجهد نفسي في قراءة تعابير الوجوه وردات فعلها.

كذلك لمحت في عينيّ الطبيب بعضاً من الرضا الى ما وصلت إليه من تغيير وإنسجام، لكن حين سألته عن الموعد المناسب لإجراء العملية، عقد حاجبيه

وكمش عينيه الصغيرتين خلف زجاج نظارته فبانت تجاعيد أعلى وجنته، ليومأ: دعي أمر الوقت لي، لا تفكري فيه، حين يحين أنا من سيخبرك بالموعد.

بانت على وجهي علامات الأستياء، ونهضت من مكاني في محاولة مني لجعله يشاهد ثانية ما قد غاب عنه من مظهري الجديد.

إبتسم لي وأنا أدور حول نفسي أمامه بخيلاء وثقة، وأشار بسبابته الى رأسه وقلبه وهو يقول بإنشراح: التغيير يجب أن يأتي من هناك أيضاً، هذا ما نحتاجه بشكل أكبر، التواءم مع الروح والعقل والجسد، أراكِ في الشهر المقبل.

لا أنكر أني خرجت مستاءة من كلامه، وقد تقهقر إندفاعي وحماسي، وأنبت نفسي على الإستمرار مع طبيب خرف مثل هذا، أفرغت ما في جعبتي عليه من شتائم بالعربية والتايلاندية ولم أوفر أي إتهام لم أنسبه إليه.

حقاً شعرت بخيبة أمل، لم أتوقع حيادية في إستجابته لما أبليته من تغييرات واضحة كان قد طالبني بعملها من قبل، أجهدت نفسي هباءً في الظهور أمامه بكامل أنوثة وأناقة، غبي أنى له من فهم ذلك، وفرحت بنظرة الإعجاب المطولة التي رمقها بها أحد المارة. وحده الغبي لم يلتفت الى ما حصل من تغيير... غبي لا بد لي من مراجعة طبيب آخر، نعم لا بد.

وأكمل طريقه بإتجاه متنزه صغير للأطفال برفقة دموع سالت على خديه ظلالاً سوداء مطيرةً.

حزمت حقيبتي على مرأى من ثريا ودموعها دون وعي أو دراية تامة بالخطوة القادمة، كان كل همي أن أهرب من دوامة شك ما تلبث أن تصبح يقيناً يحاصرني كل حين بوقع سؤاله: من أنت؟!

إستجمعت كل شجاعتي وإرادتي بعد شهور من التردد والشعور المثقل باللاجدوى والمرارة في كل ما حولي. ذهبت الى أبي في عمله، إنتظرت حتى ينتهي إجتماعه بأحد الزبائن، جلست على طرف الكرسي، تصطك أوصالي مرتجفاً في شهر تموز، إستجمعت في ذهني ثانية ما أودّ إخباره لأبي، نسيت كيف أفاتحه بالموضوع، أي كلمة تبدو مناسبة أكثر؟! أبي من الأخير أودّ أن أخبرك أني لا أشعر أني رجـ... لا هذه المباغتة ستقتله حتماً، أبي لقد تبين لي أن ولدك الوحيد غيلان ليس بـر... لا، وهذه العبارة أيضاً لا تنفع، يا إلهي نسيت كيف أفاتحه، ضاعت مني كل العبارات والكلمات التي صغتها مؤخراً لأجل إعلامه، ماذا أفعل؟! ماذا أقول له؟ وكيف أبدأ الحديث في شأن كهذا؟!

تلاشت كلماتي ومعها شجاعتي وثقتي بحكمة قراري، ألم شديد أخذ بالتصاعد من مؤخرة رأسي الى قمته، دوار وضيق نفس، أحسست أن جدران الغرفة تطبق على صدري، برد يسري في أوصالي، تزداد وتيرة إرتعاشي ونبضات قلبي، يطول الاجتماع فلا تعينني كلمة ولو واحدة على سبر غور حديث لا أضمن نتائجه، خرج الضيف، رمقني العم أبو سلام السكرتير بنظرة تشي بالتأهب لدخولي، لم تحملني قدمايَ على الوقوف دون أن تظهر عليّ علامات التردد حتى باغتني السكرتير قائلاً: ما بك يا ولدي تبدو شاحباً مصفر الوجه! ألم تأكل شيئاً هذا الصباح؟ وأخذ يرمقني بنظرة متفحصة مهتمة، شعرت بالإحراج منه حين إستأذنت مرجئاً الدخول الى أبي وقتاً آخر، وفررت من أمام أبو سلام... جبان لا تقوى على المواجهة... لا، بل نسيت كيف أخبره... هاهاها أي رد مخز هذا؟... هي الحقيقة، لم أعرف كيف أبدأ معه الحديث... نسيت أم الخوف أبطل رغبتك في إخباره؟!... لا، ليس الخوف، ليس الخوف، بل هو... هو...،... نعم، هيا قل ما هو؟!

تلعثمت، فقدت تركيزي وأنا أنزل درجات السلم... جبان كما عهدتك دوماً جبان... لست بجبان، لست كذلك... فماذا تطلق على فعلتك هذه؟... سمها ما شئت، لكني لست جباناً، لست جباناً. وأنطلق الى الشارع الملتهب وأرصفته بشمس تموز الحارقة، قطع ما يقارب ميلاً وأكثر فإبتل قميصه وقطر شعره وجبينه عرقاً، تحمص جلده الناعم وإحمر في بقع عديدة، يطوي الخطوات بأقدام لاهثة تتعثر في مسايرة رأس يفور بغيظه، وبعد ساعة عدت الى البيت منهك القوى، ضبابي الصور والأفكار، فأغلقت الباب خلفي ثم إرتميت على السرير وأنا أستعر غضباً وحنقاً من خشيتي وبلبلة أفكاري.

- محتال أنت، لِمَ لم تخبرني من قبل بمشاعرك تجاه ثريا هل نسيت إننا أصدقاء أولاً قبل أن أكون إبن عّمها!

- لا لم أنسَ، وإبتسمت ساخراً من قدري ومما أقدمت عليه.

- إذن لماذا لم تخبرني برغبتك في الزواج منها؟

بعد برهة من الصمت حسبتها دهراً، إستأنف كلامه مردفاً:

فوجئت بالأمر حين أخبرتني والدتي بذلك، كانت تحسب أني أعرف قبل الجميع، فتظاهرت بذلك أمامها، ويحك يا رجل... ويحك! كيف تخفي على صديقك؟!

لأنك صديقي أخفي عليك، قلتها في نفسي ممتعضاً، لكني رددت عليه بإبتسامة جوفاء جاهدت في رسمها على وجهي:

- حصل الأمر يا صديقي بسرعة.

رمقني متشككاً غير واثق من صدق كلامي، وإبتسم ليردد ثانية:

- طلعت محتال، وينخاف منك!

بادرته بالإبتسامة وتلك النبرة المازحة وانا أقول:

- لا والله... كل شي حصل بسرعة.

خالط نظرته الوجوم، ونبرته القنوط لبرهة حين أردف متوجساً:

لا تدرك كم أنقذتني يا صديقي!... فيا للمصادفة قبل أيام عدة طرحت أمي عليّ فكرة الزواج من ثريا، بل أكدت رغبة والدي الشديدة وحرصه على تزويجي منها حين لمحت إمتعاضي من هذه الفكرة والذي بدا جلياً على ملامحي دون أن أتفوه بأية كلمة، لم أكن مستعداً لفتح باب الإشتباك والجدل مع والدتي، فآثرت الصمت وتركتها تصف مزايا ومآثر ثريا على أمل أن تدرك أني قد عشت حياتي معها وما من حاجة الى الإسهاب في وصف محاسنها، لكني بعد ذلك ختمت حديثها الذي إستفاض وتفرع الى والديها اللذين توفاهم الأجل تباعاً، بالقول: يصير خير، الله كريم، وإنسحبت من مجلسي.

حقاً لقد أنقذتني من هذا الزواج، فهنيئاً لك ثريا، قالها بحماس وحرارة كمن إنزاح من فوق ظهره حمل ثقيل.

شعرت بالقهر والسخرية القاتلة مما قاله فاروق بشأن خطبتي لإبنة عمه وتلك المصادفة التي أنقذته من ذلك الزواج، لا يدرك أني قد مضيت فيه لأجل إنقاذه ولا شيء سوى ذلك... بل لأجلك أنت فلا تحاول خداعي ودع عنك هذا التظاهر... بل لأجلنا نحن الأثنين، هو لا يحبها... وأنت هل تحبها؟!... ما من داعٍ لسؤال إجابته معروفة... وهل ستتزوج عنه بالنيابة في

كل مرة تُرشح له واحدة؟!... لا تتحاذقي معي وكفاك تفاهة... ليتك تعرف من التافه المتحاذق فينا!

وأكملت طريقي مع فاروق صامتاً، أرقب تألق عينيه، ونبرة صوته السعيدة وهو يحاول مازحاً معرفة متى وقعت في حب إبنة عمه، صديقة طفولتنا!

لا أَجِد هنا ما أفعله سوى الإنتظار والإنتظار، أكثر من سنة ونصف وأنا أنتظر، أترقب أن أكون أنا، أن أسير بين المارة دون وجل أو خشية من إثارة فضولهم وأنظارهم، أريد أن أبدو أنا الحقيقية، لا تضارب أو تناقض بين باطني وظاهري، أريد أن أعيش وأبدأ من جديد، لا بد لي أن أعيش حياتي كما أودها وليس كما يبتغيها الآخرون... أوَ ليست هذه أنانية منك؟!... ليست أنانية، آن أن أعيش الذي تبقى من عمري لي وحدي... ألم يدر بخلدك ما خلفته وراءك من أسى وفضيحة!... رجاء لا تفتحي النار عليّ ما وددته فقط أن أعيش، أن أكون أنا دون أي نزاع أو تضاد مع الآخر... الإعتراف بالخطأ فضيلة والرجوع عنه هو الإنتصار للحقيقة... أي خطأ؟ وأي رجوع تطالبينني به؟! ماذا تعنين؟... قصدت ممكن أن تتراجع عما في رأسك... ما لك؟ هل تظنين أن في رأسي مجرد رغبة وهاجس يلح عليّ؟!... لا أدري كيف تتفوهين بهذا؟ واصلي رقادك ولا تنفثي سُمك في فطوري... أنانيتك لن تسمح لك بالنظر أبعد من قدميك... أناني، أناني فقط أتركيني.

وأخذ يرتدي ملابسه إستعداداً لنهار جديد وأمكنة جديدة تعج بأعين الناس الفضولية التي بدأت تتضاءل شيئاً فشيئاً، في تدريب وتجربة يومية بغية تشخيص وضعه قبل أن يمر عليه مبضع الجراح، فتكون النتائج وخيمة.

ملابس المرأة ومقتنياتها مكلفة في كل مكان وزمان، لا أعرف السبب خاصة وأنها تستهلك مواداً أولية أقل؟! يلعب المصممون لعبتهم الماكرة في خداع المرأة وجرها الى خسارة ما تكسبه من مال على الموضة في سباق مارثوني لا يتوقف، حقاً ماكرون، لا أعلم كيف تسمح لهم المرأة بالمشاركة في نسج خيالها والتدخل في تجسيد شخصيتها!... في القريب ستنضم لهن، ولن تشعر بسذاجة متابعة دور الأزياء وإقتناء كل ما يصدر عنها في الأسواق... لا أنا أكبر من هذه اللعبة... هاهاها إنها حقيقة أكثر من المرأة ذاتها، أنت نفسك من سيتبرم من ذلك... لن أتبرم... أتعلم أن المرأة ترتدي قطعاً أكثر من الرجل خصوصاً في بلادنا، رغم الأجواء الحارة معظم أيام السنة، إعدل في قرارك... هاهاها لا لن أعدل، فقد حسمت أمري من سنين... هيا إذن واجه خياراتك ولا تتملص منها، ولا تنسَ أن تلبس حمالة الصدر قبل أن تخرج.

وحدي كنت الشاهد على إلتماع قزحية عينيه، هبوط ذلك الظل المحبب الخجول على تقاسيم وجهه، إشتعال شحمة إذنيه إحمراراً، إرتباك نبرة صوته وتذبذبها المتهدج زادها حناناً وهو يقابل بإحترام بالغ تلك السيدة التي دلفت مكتبه بعد طرقة خفيفة على الباب.

بعطر الياسمين تكللت الأجواء وخدر الهواء به، جلست على الكنبة المقابلة لمكتب أبي، سحبت طرف تنورتها السوداء الضيقة على أعلى ركبتيها، وضعت حقيبتها السوداء اللامعة الى جانبها في حركة مدروسة تلفت فيها النظر الى رقي صاحبتها، شعرها الأسود إسترسل على وجه وعنق طويل

حنطي اللون، ما أبرح أذكر شفتيها المكتنزتين على أحمر شفاه براق أشهى من الكرز، وحتماً لن أنسى تلك العينين اللتين غرق فيهما أبي، وظل يجاهد حبات عرق تفصدت على جبينه.

كنت صغيراً، إلا أني أحسست بشحنات متوترة تبادلاها أمامي رغم تحفظ أبي وإضفائه الرسمية على تصرفاته، لكن هيهات كيف يواري ما بان عليه من حبور وإضطراب لم أعهده عليه من قبل.

مكثت على الكرسي، وبطبع الصغار الفضولي تفحصت المرأة من رأسها الى حذائها ذي الرأس المدبب والكعب العالي في تصميم ينساب مع القدم الناعمة ليضفي على الساقين الملتفتين على بعض بجوارب رقيقة رشاقة تماثيل مايكل أنجلو.

لم أنتبه الى نفسي المنساقة خلف عينيّ في تقصي تضاريس تلك المرأة وحدود جمالها إلا بعدما طلب مني أبي أن أذهب الى العم أبو سلام ببعض الأوراق، قاطعاً عليّ شرودي في تأمل محاسن المرأة التي أبهجت وأضاءت ملامحه على نحو غريب مبهم، فسلمت حزمة الأوراق مسرعاً بالعودة ثانية إليهما، لكن العم أبو سلام إستوقفني قائلاً: أبوك عنده شغل، لا تروح له.

وأشار إليّ أن أجلس على الكرسي الملاصق لمكتبه بإيماءة من يده ورأسه.

فجلست أتحين الفرصة، وعينايَ مسمرتان على الباب بإنتظار أية حركة تصدر عنه أو صوت، لكن إنتظاري إستغرق أكثر من ساعة قضيتها بين الملل والتثاؤب، ولولا فضولي لكنت تركت المكان، من تراها تكون؟! وما العمل الذي يربطها بوالدي؟! من أين لوالدي أن يعرف امرأة بهذه الأناقة والجمال؟! كانت تشبه مذيعات التلفاز في تلك الفترة، قمت من كرسيي،

خطت قدماي صوب الباب، تعمدت الإصغاء، ما من صوت، تبادر الى ذهني لوهلة أن أمسك المقبض وأباغت الجميع لولا عينا أبو سلام التي قرأتا ما دار في خلدي، فأرسلتا إشارة محذرة على إثرها عدت الى الكرسي أجر قدميّ نافد الصبر.

بعدها بسنوات لا أعرف على وجه التحديد عددها، عندما شب نزاع بين أمي وأبي برعاية جدتي ووصل إلينا بعض شرره، فهمت أن تلك المرأة هي ذاتها سبب النزاع وأشفقت على والدتي من بأس ذلك الخصم وحظوته الكبيرة لدى أبي، إذ لم يغب عن ذاكرتي وجهه المتهلل المنشرح وهو يودعها الى الباب.

أكدت لشقيقاتي صحة كلام جدتي حين أسهبت في وصف جمالها ورقيها مناكفة أمي التي نزح عنها جمالها بعد أن أنجبت خمسة أولاد وذبلت زهرة شبابها.

بشائر الأسم الذي طالما أرق أمي، وبالسهاد والوحدة قضت ليلها حين يدلف أبي الى البيت متأخراً فينام في غرفة المعيشة على فراش قطني خفيف مكملاً مع بشائر أحلام ليلته وأمي تشتعل غيظاً وبغضاً الى حد يسري فيه صوت نشيجها وشجارها معه من عتبة الباب مع الضوء.

أليس لك خاطر في النساء، أم هناك واحدة تشغلك؟!

قالتها في محاولة لإغرائي، ولفت نظري الى مفاتن جسدها الذي تلوت به أمامي في ثوب ستان ناعم، وهي تمضغ كلماتها تبغدداً ودلالاً، أعرضت عنها مشيحاً وجهي ناحية الشرفة طلباً لمزيد من الهواء.

إقتربت مني جالسة، رمقتني بنظرات ناعسة، مدت يدها نحو شعري، فأومأت برأسي مبتعداً قليلاً، ضحكت هي، ولم تتوانَ في الإقتراب بيدها مني باسمة، وقفت بعد أن أفصحت عن رغبتها في عدم الإستسلام هذه المرة، خرجت الى الشرفة هارباً من الجو الذي تكهرب في الداخل، وأشعلت لفافة سيجارة على وقع صوت ضحكاتها، وهي تقول بنبرة محترفة: شو فيك؟... تعال لا تبرد.

إنزلقت خلفي الى باب الشرفة وهي تشد بيديها على جسمها مرتجفة، فدخلت وإياها الى الصالة، حيث بادرتني مقتربة: شو فيك، ألا أعجبك؟

وأخذت تلف حولي في إستعراض لمفاتن أفوتها على نفسي، وإقتربت ثانية مني حتى لفحت أنفاسها وجهي، وهي تمرر أصابعها على شعري وذقني، هامسة: ما هذا بشرتك ناعمة مثل النسوان؟! وضحكت، فوجلت من صوت ضحكتها الذي لمست فيه لمحة إستغراب مشوبة بسخرية، مردفةً: لا... حتى أنك أنعم مني!

لم أعلق على ملاحظتها سوى بزم شفتيّ وعقد حاجبيّ الناعمين وأنا أحاول تغيير دفة الحديث عني دالفاً الى المطبخ لأعد لي كوب نسكافيه لم أَجِد لي بداً من جعله أثنين بعدما أفضت برغبتها في كوب هي الأخرى، رغم تعليقها الساخر: الناس ما تشرب نسكافيه في هذا الوقت! ألا يوجد عندك بيرة أو خمرة؟!

وأخذت تفتح دواليب المطبخ متقصية دون أن أمدها بيد المساعدة.

لا أعلم ما الذي كان يستفزني في البقاء معها، وأنا أرد عن نفسي محاولاتها وإستدراجها لي... هي إستطاعت أن تُنهض غريزة الرجل

فيك؟... يكفي هذا، لست بمزاج رائق لأسمع هذه التفاهات... إذن فسر لي ما سبب ذلك الطقس المشحون الذي كان بينكما؟... هي، من حاولت، لا أنا... وماذا عن رغبتك المتأرجحة بين القبول والرفض؟!... أنا لا أفهمك؟!... أظن أن كلامي واضحٌ، لابد أنها أيضاً قد لمحت تلك الرغبة في عينيك، فلم توفر جهداً في سبيل إستمالتك إليها وقد نجحت فلا تنكر ... أرجوك لا أود سماع المزيد من الحماقات، يكفي هذا... لا تحب سماع الحقيقة ودوماً تتهرب منها... أي حقيقة؟! ما بالك؟... قل لي إذن ما هي الحقيقة بربك؟! فسر لي إنجذابك نحوها، تقصي منحنيات جسدها بنظرات جائعة، رعشتك كلما إقتربت منك، فسر لي هيا... ما من شيء من هذا قد وقع!... الإنكار لن ينفعك، هي نفسها أدركت ذلك، فبدأت تتلاعب بمشاعرك بإنتظار أن تسقط تحت قدميها راكعاً كما فعل الآخرون، ألم ترى كيف إستفزتك، مثيرة غريزة كنّت تجاهد في إخفائها ونكرانها؟! ألن تعترف بأنك قد ملت إليها وهي تستنهض فيك رجولة غافية مستكينة لوطء إستنكارك لها، فهيا إعترف أنك لست ما تظنه وتصرح به أمامي، أفقد ثقتي بك حين أستذكر كل ما حصل لك معها، سنوات عديدة وأنت ترهقنا برفضك وعدم تعاطيك مع من تكون، لكن ليالي بأقل من شهر إستطاعت أن تفصح عن حقيقتك حيث أنت تكافح في إخماد جماح ولظى غريزة تلقي عن نفسها نقاب أوهامك... رجاءً يكفي هذا، فليس هناك من داعٍ لتأليب مثل تلك الذكريات؟!... أنا فقط أودّ أن تستفيق يا عزيزي، فهيا إستفق، وأرضَ بواقعك، إرجع الى ما كنت عليه ولا تتبع شكوكاً وإهواءً ما فتأت تمزق حياتك ووشائج علاقتك بأهلك وكل ما حولك، إرضَ بقسمة الله، وإحزم حقيبتك عائداً الى بيتك، ليالي فعلت معك ما لم يفعله كل أطباء

النفس الذين أنفقت عليهم نقودك لأجل مساعدتك في إخراج عذرائك من الشرنقة... صه صه صه أرجوك يكفي أرجوك، وهو ينكب على الأرض جالساً على ركبتيه، غالقاً أذنيه بكلتا يديه، صه صه صه لا أريد السماع، يكفي... سنوات من التخبط وأنا أتبعك، أصغي لكلامك، أسترشد بضبابيتك وهواجسك، أثق في إحساسك وصدق مشاعرك، لكن بعدما لمسته من ذبذبات نشوة تتصاعد فيك كلما إستحضرت ليالي مفاتنها أمامك داخلني الشك، فإحتقرتك وأنت تلملم زمام نفسك وفحيح رغباتك المكبوتة في ضعف بليغ أمام من راهنت نفسهاعلى النيل منك، مستجمعة كل أسلحتها في مواجهتك، واثقة من نصرها الذي تؤجل تسديده عليك، في مرواغة أذكت حواسها وصبرها في إيقاد رغبتك على نار هادئة بخبرة الأنثى وثقتها الكامنة بنفسها أمام أي رجل، وبين الترغيب والإبتعاد ناورت بجمالها وجاذبيتها الساحرة، أنسيت أنك أعلنت إستسلامك أمام شموخ أنوثتها... قلت لك صه صه هراء كله هراء، يلعنك الله... هاهاها لا تفقد رباطة جأشك، هكذا هي الحقيقة قلما نستسيغ طعمها أو نتفق معها، سنوات من الضلال والشك أجلاها وقع خطوات ليالي في الشقة وصوت خشخشة خلخالها موقظاً فيك الرجل الذي حسبته غير موجود... كانت تلك مشاعر مؤقتة طارئة، كانت إمتحاناً ليس إلا... أي إمتحان! وكنت تنعم بما تجود به ليالي عليك من غنائم ومسرات في ليل تركيا البارد وغربتها الموحشة... كان أشد الإمتحانات صعوبة، هو الأصعب على الإطلاق! كان الأصعب.....

٩

مع إنطلاق ألبومي الغنائي الثاني وذيوع الكثير من أغانيه وحلول بعضها المراتب الأولى في سباقات الأغاني الأكثر مشاهدة التي تقيمها بعض المحطات الفضائية ذات الشعبية الكبيرة والوصول الواسع، إنتشرت حينها إشاعة تداولتها بعض المجلات المختصة بالأخبار الفنية والفضائح، كذلك بعض الفضائيات لتحقيق سبق إعلامي ونسبة مشاهدة أعلى عندما نشروا صورة شاب يعزف على آلة القانون في إحدى النوادي الليلية في تركيا، وتحتها تساؤل بالبنط العريض: من هذا الشاب؟ وما وجه قرابته بالفنانة س؟! أم ...

لغط عّم الساحة الفنية، وبدأ الإعلاميون يطاردونني بهذا السؤال، وأسئلة أخرى مشابهة، إمتنعت عن الإجابة عليها في كثير من اللقاءات الصحفية، مكتفية بالقول: ما هذه سوى إشاعة من جهات همها نسف ألبومي الغنائي وتوجيه الاهتمام بعيداً عنه، فأتمنى أن لا يقع جمهوري وكل من يحب صوتي ويحترم فني في مثل هذا الفخ الدنيء.

وفعلاً بعد مضي أقل من شهر هدأت هذه الإشاعة، وإرتفعت حصيلة ألبومي وصار الأكثر مبيعاً لتلك السنة، حتى إتهمني البعض بأني مصدر تلك الإشاعة وعن طريقي تم نشر تلك الصورة القديمة لحصد دعاية مجانية له.

لم أتوقع أن تهديده لي سيأخذ حيّز التنفيذ، ظننته مجرد زوبعة عابرة لأجل إرغامي على ممارسات ورغبات شاذة بات يطالبني بها دون أي حياء يذكر،

متهماً إياي بغشه والتزوير في أوراقي الرسمية، مستغلاً مكانتي ووضعي الفني في تضييق الخناق عليّ، لكن أن يسوق بها الى الصحافة والإعلام ما تخيلت أنه بقادر، حتى بعد أن عرف صدفة بخداعي له وحمله على توقيع قسيمة بيع الأستوديو لي، كنّا قد توصلنا لعقد إتفاق يريح الطرفين من هم زواج فقد كل سبل تواصله وتآلفه، فكان إرجاع الأستوديو له مقابل حصولي على قسيمة الطلاق، لا أدري ماذا أصابه؟! حتى يقوم بحركة خاسرة كهذه لا يفعلها رجل أعمال محنك مثله، لا أدري! ماذا ألمَ به ليخسر صفقة كهذه؟... هو الحقد لا غيره من دفعه الى ذلك... نعم لا شيء يبرر خسارته تلك سوى حقده ورغبته القوية في إذلالي والتشهير بي، لكن شاءت إرادة الله بعكس ما قدر هو وخطط، وأمسى أمر نيلي الطلاق منه دون أي مقابل، مجرد وقت وتحصيل حاصل، بعدما ترك البيت الى غير رجعة، جامعاً في حقيبة كل ما يحتاجه من ملابسه وأشياءه الخاصة، ليرن هاتفي بعد بضعة أشهر قاطعاً عليّ صمت ليلة كانونية، وصوتاً معزياً على روحه التي فارقت الحياة بعد نقله الى المستشفى إثر ذبحة صدرية أخرى عجل في حدوثها حبة فياگرا كان قد أدمن تعاطيه لإثارة فحولة شائخة متناسياً آثارها على صحته.

إلتقيت صدفة وأنا نازلة الى بهو الفندق بعروسين وقد شبكا يديهما ببعض في فرحة غامرة وأناقة أخاذة، العروس في فستانها الأبيض وهي تجر ذيله خلفها، لم أرتدِ فستاناً أبيضاً بهذا البهاء والفخامة، وكل ما فعلته هو الإعجاب بفساتين زفاف شقيقاتي وتجربتها في غفلة منهن في أحسن الأحوال، لا أذكر كيف عرضت على ثريا مرافقتها الى العشار لشراء الفستان!

قام أصحاب المحال بتقديم خيارات متعددة لفساتين كثيرة، لكن ثريا كانت ذات ذوق ومزاج يصعب إرضاؤه في مثل هذه الأمور، وجدتها تبحث عن العيوب لا المحاسن في أغلب التصاميم التي عرضت علينا، وبعد أكثر من عشرين فستان إستقر رأيها على واحد بسيط التصميم محتشم عكس ذوقها وتحفظي منه، إلا أني تركت لها حرية إختياره دون أدنى تدخل مني، هي من سترتديه لا أنا، يا الله كم حسدتها! وكم أشفقت على نفسي!

في زفافي من زاهر الكامل إرتديت الفستان الأبيض في توق كبير الى تحقيق أمنية عزت عليّ، إلا أني ما شعرت بتلك الغبطة والسرور عندما وقفت أمام المرآة أتفحصه، نسيت أن بعض الأشياء تفقد طعمها حين تتأخر بالنضوج، لازمني شعور الخيبة وأنا أرتديه على مدى ساعتين لأجل الصور التي إلتقطها الصحفيون، لتشغل في اليوم التالي صفحات المجلات الفنية والأخبار.

لم أشعر أني أميرة، مثلما أحست ثريا وهي ترتديه حين همست لي بخجل وصوت خافت: شكراً لك، لقد منحتني شعوراً لن أنساه... أشعر أني أميرة متوجة.

لا أفتأ أذكر كلماتها هذه، فأصاب بالإحباط والحزن على ما خلفته في قلبك من ألم وحسرة، أنا نفسي من خلع تاجك عنك، أما تزالين تذكرين ذلك الشعور، وتلك الليلة؟! لن أطلب صفحك أو مغفرتك فأنا لا أستحقهما أبداً... أبداً لا أستحقهما، أنانيتي لا تغتفر يا ثريا... لا تغتفر.

كفكفت دمعة تسللت الى وجنتها المرتفعة المحشوة بالبوتكس سلاحاً أمام الزمن وذخيرته من خطوط دقيقة وتعاريج تواصل زحفها، ومضت الى

كورنيش البحر الزاخر بألوان من الناس أتته من كل حدب وصوب بحثاً عن الترفيه والمتعة.

نزلت الى الساحل لتنزوي عند صخرة بعيدة تتأمل الشفق المائل الى الحمرة الهادر بكرمه على البحر والقوارب المشرعة القصية في لوحة لا تتقن رسم جمالها سوى يد الله.

الإنصات الى البحر الإستغراق في الإصغاء الى وشوشاته كان ما يروح عنها بعضاً من الكدر والخواء الذي يملأ روحها.

مر أكثر من إسبوع على إنقطاع رسائله عني حسبما إتفقنا، لكني لم أتوقع أن يلتزم بإتفاق مضنٍ مثل هذا! وطبيبتي إخلاص تشدد على العزلة والإنفراد لأجل إرساء ذلك القرار المصيري، والتفكير جيداً بعيداً عن تأثيره، أظنه إلتزم به لأجل أن يعرف هو أيضاً حقيقة شعوري، يا الله لِمَ أنا من تضعني في محنة كهذه، أما كفاك الذي مررت به؟!... أستغفر الله، وعادت بهاتفها الى المنضدة المجاورة الى سريرها ومن ثم نهضت من فراشها تستطلع تباشير الصباح من شرفتها، لا يزال الوقت مبكراً، البحر غاف لا يؤرق نومه سوى المتسللون، قارب بعيد يرمي شباكه فيه بتؤدة، مصباح الشارع يساعد عامل النظافة في جمع ما تركه السواح خلفهم، وباعثاً بنوره الخافت الى المارة القلائل وهم يتجاوزونه مسرعين دون تحية، وحده ذلك العامل يُجل ويثمن ما يقوم به المصباح لأجلهم، بين حين وآخر تمر سيارة تقطع وجل ولادة الصباح وزقزقة العصافير على شجرة عالية تجاوز قطرها المتر تركن على رصيف مقرمد فارضة سطوتها على الشجيرات المجاورة،

حديقة الفندق هادئة، الطاولات فارغة يداعب الهواء مظلاتها الخضراء فتتأرجح برؤوسها، لم يستعد الطباخون لإعداد وجبة الفطور بعد، نجمات بعيدة تلمع تومئ بالذهاب، ينسل ضوء الشمس، تلامس وجهي نسائم باردة، فأغلق النافذة على إرتعاشة خفيفة محببة.

أعود الى سريري ثانية، أقلب كراس القصائد على أمل أختيار ما يناسبني منها، لم يسبق لي أن تعاونت مع هذا الشاعر لكن التجديد والتنوع هو الضمان لعمل الفنان وديمومته، سأختار واحدة لا أكثر، لن أجعله يطمع فيّ مهما بلغت جودة أشعاره، ولن أرد عليه بالقبول إلا بعد فترة، أنا أدرى بهذا الصنف، فسرعان ما تشرئب رقابهم الى عنان السماء وينسبون نجاح الأغنية الى كلماتهم فقط، حتى بت أتأنى بدراسة أخلاقهم قبل قصائدهم وأتحفظ في التعامل مع من لم يسبق لي العمل معه، ولولا أنه صديقك ما كنت لأقرأ له، جئت لي بالكراس متحمساً فلم أرتضِ أن اردك خائباً، لأجلك لا لصديقك الشاعر وموهبته، معشر يقولون ما لا يفعلون، لا أعرف لِمَ أثار هذا الشاعر بالذات شجوناً وذكريات قديمة ظننتني قد أوقفت سيلها حين أوصدت عليها الباب من سنوات خلت، خلتني نسيته!... نعم نسيته، لكن ألم الغدر صعب نسيانه، أنت تناسيته فقط... ربما، لكني لا أودّ أن يتكرر الأمر بأي شكل من الأشكال... أصابع يدك لا تتشابه، وأنت لست إبنة الأمس... ولو، ما عدت أثق بأولئك الناس لاسيما الجدد منهم، من لم تمزق أنيابه وجه الحمل الذي يرتديه... كفاك ثرثرة وشكوكاً، كل الذي عليك أن تقرأي نصوصه وبعدها تقررين... وهذا ما سأفعله... بحيادية تامة ومهنية خالصة... أكيد، كوني واثقة... لا تخلطي أوراقك، فالماضي لا يعود... تسع سنوات وأربعة أشهر وسبعة عشر

يوماً... أما زلت تذكرين؟... للأسف لا أزال أذكر... إن كان هذا الشاعر قد فتح خزائن الماضي، فالأفضل أن ترمي بكراسه، ولا تعاودي فتحها ثانية... هو لا دخل له، لكن عندما لمحته للوهلة الأولى في مكتبي إمتعض قلبي وتقلص، فيه شيء من ذاك، لا أستطيع تحديده تماماً، هيأته الخارجية، ظهره وكتفاه، طريقة جلوسه، أم مخارج حروفه ونبرة صوته، لا أعلم، طوال مدة لقائي به حاولت أن أعرف ما وجه الشبه بينهما؟ لماذا شعرت بالتوتر حتى ذهب؟ كذلك أشعاره فيها من روح صلاح وإحساسه، أي إحساس؟! أمثاله يتصنعون... دعك منه إذن... ولماذا إعاقب هذا بجريرة الآخر؟ لا هذا حرام!

كنت محمومة بسؤاله: لماذا فعلت بي ذلك؟! وحين جاء بعد سنوات يطلب مغفرتي وصفحي، كرهت أن ألقي عليه ولو نظرة، وما عاد ذلك السؤال الذي حَزَّ في روحي أعواماً ذَا قيمة لأبادره به، كل شيء مضى وتلاشى رغم ألمه وعذاباته العميقة، لم أتخيل أن يفعل بي ذلك، أن يغدر بي بهذا الأسلوب! ما كنت أظن أن أحداً قادرٌ على فعله معي، يا ألهي، ما الذي ذكرني بكل هذا!

دخل الى حياتي في غفلة مني، تسللت كلماته الدافئة وأشعاره الى قلبي فإخضوضر وإنتعشت الأحلام، غنيت له أكثر من قصيدة تلقفها جمهوري العاشق بإهتمام وحظيت بالمراكز المتقدمة، تتابعت نجاحاتي لاسيما في الأغاني التي كانت من كلماته، فإرتفع مؤشر خيلائه وغروره، لم آبه لتلك التغييرات وحسبتها حمى النجاح والشهرة تشفى مع الوقت... تغاضيتِ عن عيوب أخرى كثيرة... كنت مريضة بالحب وعمى القلب، تغافلت عن كل أخطائه وغفرت له حماقاته وأكاذيبه التي تفتقت أمامي واحدة تلو

الأخرى في صدف ومناسبات شتى حتى بت أوهم نفسي وأكذبها، أمسى حبي له وتعلقي به الأداة التي تبرر كل مساوئه، حلقت بي كلماته وإهتمامه الى السحاب، أكان كل ذلك وهماً؟!... أما زلتِ تسألين؟!... الذي عشته معه كان الأجمل في حياتي... كان وهماً ليس بحقيقة، إستهال فيك ضعفك وتعطشك الى الحب، الى رجل ظله يغطي قامتك ويحتويها، فنزعت عنك تاج العقل في حضرة الحب.

معه شعرت أني قد خلقت من جديد، وأن سنوات عمري الماضية ما كانت سوى هباءٍ ذرته في وجهي، لم يمر يوم دون أن نلتقي أو نتهاتف مرات عدة، أنام على صوته متمنياً لي ليلة هانئة وأحلاماً سعيدة، لأصحو على رنة الهاتف وصوته العذب وهو يقول: صباح الخير يا حلوتي.

ليتلو بعدها على مسامعي بيت غزل أو أثنين، ملكة كنت وصولجاني الحب، لم يطب لي العيش إلا بعد أن إلتقيته، كاليتيم الذي أسعفه الحظ بإم تعنى به وتحبه، أدمنته، تغير لون أغانيي، تشربت الألحان بطعم السعادة، رقص الناس على إيقاعها مع قلبي الذي أزهر بالحب وإندملت جراحه، نسيت فاروق وسخرت من نفسي حينها على تلك المشاعر التي ظننتها حباً، أنساني صلاح تفاصيل زواجي من كامل الزاهر وكل الإشاعات والأخبار التي طالت أرملته الشابة التي سرقت ثروته فطالتها إيدي ورثته بالتهديد والملاحقة التي وصلت في إحدى المرات الى حد الإعتداء الجسدي عليّ من قبل مجهولين.

إنصرفت بحبه عن العالم بأسره وأمسى وحده غايتي وسبيلي، عطشة ولهى لا أرتوي منه، سافرنا مرات عدة الى أمكنة بعيدة معزولة فعدت ظمأى إليه أكثر، لم يفاتحني بالزواج، فخشيت أنا الأخرى من تفاصيل الحياة

اليومية وروتينها الممل أن تسري الى جذوة حبنا فتطفيء الهيام والإشتياق الذي ألمحه في عينيه عندما نلتقي، وتلك النظرة الساحرة التي يرمقني بها، كأني آخر النساء وأولهن، خشيت، خشيت أن يحطم الزواج كل هذه السعادة والحب فنسقط في فخ الرتابة والتكرار... لكنك إنتظرتِ أن يبادرك بهذا الطلب، أن يجثو على ركبتيه أمام ملايين النجوم ويشهد القمر على خاتم يلمع في إصبعك... ربما، لا أنكر ذلك، لكن خشيتي كانت أكبر من أن يمحوها مشهد رومانسي كهذا، ففضلت الصمت، لأمعن بلذة عشق يشعرني بالإمتلاء بعد خواء سحيق وهوة لا أقدام لها، في حلقات مفرغة دارت حياتي، ضياع وتشتت مرير لا ينتهي، اللاشيء يسحقني، يحطمني يحيلني الى مفهوم غامض يشكك في إنسانيتي، في هويتي الحقيقية، من أنا؟! ماذا أريد؟ ولماذا أنا؟! أسئلة تحاصرني على الدوام تشل عقلي، تمزق قلبي، وعلى حافة الإيمان تختبرني، تنازعني بجدوى وجود لا يدركه الله في مملكته التي أعيش عبثاً خارج أسوارها مطرودة بلا هوية، من أنا؟ ومن أكون! معه ما عدت أسأل، بل بالأحرى تناسيت كل هذه الأسئلة المؤرقة الباعثة على التعاسة والقنوط، أصبح همي الوحيد أن أكون غفران، المرأة التي تتزين لتبدو بأبهى صورة أمام حبيبها، كنت أنا دون أدنى شك أو مواجهة مع نفس تتعلل الأسباب، ترمي بشباكها في عكرة مزاجي لتصطاد ما طاب لها من مشاعر الإحباط واليأس، مع صلاح أغلقت بوجهها كل الأبواب، لأكون غفران بلا منازع.

معه كنت المرأة التي أبحثت عنها في داخلي، وتحملت كل الصعاب والتضحيات لأجل أن أجدها، وما وجدتها وأنست بها تتربع على روحي

وتملأ كل حواسي داحضة هواجسي ومخرسة وساوس تبيت مع ضميري وتنهض إلا معه، وجدتها، وجدت غفران المرأة بلحمها وشحمها.

وجدتها مع صلاح بعد أن عز عليّ لقاؤها عند فاروق حين ذهبت إليه سعيدة لا تحملني أرض، فهوى بي من أول ساعة الى سابع أرض، وما إستطعت لم أشلائها، فهرعت هاربة منه لأعاود البحث عنها ثانية بين جوارحي وأحاسيسي.

رِن هاتفها، فقفزت من فراشها الى الطاولة المجاورة حيث تركته موصولاً بالشاحن، متداركة رغبة كبيرة وسرور أوشك أن يغزو جوارحها لولا شعورها بالدهشة والخيبة في الوقت ذاته، ما كان هذا الإتصال الذي تترقبه، فأجابت دون رغبة:

- ألووو، مرحبا ألحان.

يأتيني صوتها بعيداً هادئاً لكنه مفعم بحماس طفل صغير بملابس العيد.

- ألووو غيلـ... غفران، شلونج أختي، مشتاقه هواي هواي إلج ولأمي.

شعرت بالخجل ووخز ضمير من مقابلة عاطفة شقيقتي ولطفها ببرود، فإعتدلت في جلستي، كمحاولة لتعديل نبرة صوتي وإضفاء الدفء الذي تفقده لأجيب:

- وأنا هم مشتاقه أكثر، شلونج؟!

إستغرقنا في بث أشواقنا المتبادلة والحديث بإقتضاب عن أحوالنا العامة لتختم بنشوة بالغة نيتها في القدوم مع زوجها الى دبي نهاية الشهر القادم

لأجل زيارتنا، فرحبت مستأنسة بزيارتهما: مية هلا، العين إلكم أوسع من البيت.

أُغلق الهاتف على سيل ذكريات باذخ يحطم حواجز الواقع ومجرياته اليومية لأغترف منها ما يرسم على شفتيّ إبتسامة طرية، مستذكرة كيف تتملكنا الدهشة مما كانت ألحان تقصه على مسامعنا من رؤى وأحلام حين يتحقق الكثير منها في سابقة لم نعهدها عندنا في العائلة رغم أن جدتي قد أشارت مراراً الى وجه الشبه الكبير بينها وبين جدتها التي كان يزورها الناس من الأقاصي لأجل تفسير ما صعب عليهم من أحلام، كذلك ألحان لم يتوانَ بعض من صديقات أمي والجيران المقربين عن سؤالها ذلك بين المصدقات والمشككات، وكيف تتبرم أمي من بعض رؤاها متعوذة بالله من شر قادم وحثها على سرد تفاصيلها في الحمام، لن أنسى ما إرتسم على قسمات أمي من ضيق وكدر بدد فرحتها وهي تزف اليها رغبة جارتنا أم كريم في خطبتها لإبنها كريم حين قالت: لقد حلمت قبل أيام بعلمٍ مطروحٍ أمام بيتهم، وكان ذلك حين جاءوا بجثمانه في صندوق يلفه علم بعدٍ فترة، لم نكن حينها نأخذ كلامها على محمل الجد، إلا أمي التي بقيت تتوجس من تلك الأحلام وتتطير.

عقدت الدهشة أفواهنا حين وافقت على الزواج من جارنا مسعود لما تقدم لخطبتها، رغم رفض أمي الشديد للفكرة وتحفظ والدي عليها، إلا أنها كانت مصرة على الزواج به معللة أنها دوماً ترى في أحلامها كرسياً مدولباً تدفعه، وما مسعود إلا قدرها وما من مناص منه، حاولت أمي إرغامها على الرفض أو التروي في الموافقة لكنها لم تذعن، مؤمنة أن مسعود هو ما خصها الله به من نصيب.

صدقها ونقاء سريرتها كانا الدافع الأكبر في موافقة أبي وإحترام رغبتها، وعلى وقع نشيج أمي ودموعها زفت ألحان الى مسعود وهي تدفع كرسيه وخلفها ذيل فستانها الأبيض.

كانت مختلفة عنا، تعيش عالماً تلاشت فيه حدود الواقع وتماهت، صدقتها أنا وحدي حين كانت تلح بالسؤال على أمي عن وجود إبنة خامسة لها تراها في المنام، إلا أن أمي تكذب رؤياها، ما كل الأحلام يا إبنتي تصدق.

كان بدني يقشعر في كل مرة تقص حلمها على أمي في محاولة منها على تذكيرها بتلك الأخت الخامسة المفقودة، فتضحك أمي منها وهي تقول: إطمئني، بعدها أمك ما خرفت حتى تنسى إذا جان عدها بنية خامسة أو لا.

خشيةً على ألحان من تطير الآخرين منها، حملتها أمي على الصمت وعدم البوح بتلك الرؤى والأحلام خصوصاً تلك المزعجة منها، لكنها لم تلقِ بالاً حين أخبرت جدتي أن الحافلة التي ستقلها الى الحج تعود بمقعد فارغ، مما دعا جدتي الى التخوف وتأجيل فكرة زيارة بيت الله اعواماً عدة، حتى تناست أو أقنعت نفسها بأن ما رأته ألحان من سنوات لم يكن سوى أضغاث أحلام صبية، فأكدت حجزها على الذهاب بطائرة الى السعودية كنوع من إضفاء بعض الطمأنينة على قلب متوجس، لكن الحجز تغير في اليومين الأخيرين قبل السفر حيث أغلق المطار لأسباب أمنية وأصبح الطريق البري هو الملاذ الوحيد لرحلة الحج هذه.

أتمت جدتي فرائض الحج وطقوسه بصحة جيدة، حسبما أخبرنا صاحب الحملة المكلف بالحجاج ورعايتهم، إلا أن مقعدها في الحافلة إشتكى الفراغ والوحدة في رحلة العودة الى الوطن.

تعيش اليوم في هولندا مع زوجها بعد أن شدا رحال الهجرة عقب سقوط بغداد، لينعم زوجها بالرعاية الصحية والعناية التي فقدها في بلده، فسافرت دون أن تحظى بوداع أمي أو حتى سماع دعائها الذي إبتهلت به الى الله وعيناها تدمعان.

لِمَ كان عليها أن تهجرنا هكذا؟ سؤال رددته أمي أمامنا كثيراً، ألأجل زوجها الكسيح المقعد تخلت عن أهلها؟!

آلمت أمي بشدة وعلى مدى سنوات فكرة تخلي ألحان وهجرها، وهي إبنتها الأقرب الى قلبها ويدها اليمنى في كل ما يخص البيت والعائلة (ما أدري شنو شافت بيه؟! ألحان تستاهل أحسن شباب المنطقه، مو هذا المعوق، شنو ناقصها؟!).

بقي زواج ألحان غصة عالقة في حلق أمي لا تستطيع التخلص منها، فلا تذكرها إلا وتقول: الله لا يجازي كل من دفعها لهذا الزواج.

لم تقتنع أن ألحان قد إختارته بإرادتها، وظلت على الدوام توكل السبب الى أم مسعود التي جعلتها بفعل السحر توافق على ولدها الذي ظهرت عليه عوارض مرض شلل الأطفال في الثانوية، فأكمل الكلية على كرسي مدولب دون أن يوقف طموحه ونشاطه في مزوالة الأعمال التجارية أفضل ممن يملك ساقين قويتين، الأمر الذي سمح له بحياة جيدة كريمة حتى في بلاد الغربة، مؤكداً أن عقله يسد فراغ ساقيه الضعيفتين الملتويتين.

أذكر مرة كيف أثار حلمها سخريتنا حين جلست تقصه لنا على الإفطار قائلة بصوتها الهاديء وتلك النبرة التي تجبر المقابل على الإصغاء اليها: لقد

رأيت كأني وأفنان في بستان كبير، وقد قطفت كلتانا من شجرة التين ذاتها حتى ملأنا جيوبنا وأيدينا.

فهتفت أفنان تطالبها بالتفسير، فأجابت مبتسمة: أظننا سنتزوج من شقيقين، أومأت أفنان برأسها مستنكرة: أنت واهمة يا عزيزتي، فليس له إخوة بعمر الزواج.

عندها تركنا ألحان وحلمها، وأمسكنا بخناق أفنان متحرين بفضول كبير أمر ذلك الحبيب السري الذي لم تنوه عنه مرة أو تتفوه به.

إعتادت عينايّ من صباح أول ليلة في هذا الفندق أن تتبعا خيوط الشمس المنسلة من الشرفة الى غرفتي عبر ستائر حليبية اللون ناعمة، لكن على ما يبدو أنها في إجازة ولم تغزل شيئاً لهذا الصباح، فقطرات المطر ترقد بيسر على زجاج النافذة، وتغسل البحر والأشجار الممتدة على الرصيف، لا صوت لزقزقة العصافير، وحده ضوء المصباح القريب يكافح إنزلاقها اليه بقبعته المعدنية، هدوء في الأسفل، لا سائح يجول المكان راكضاً، ولا بائع الذرة يحضر قرون الذرة (العرانيص) على النار فيحمل الهواء رائحتها الشهية عالياً، لا شيء هذا الصباح سوى المطر يواصل عزف سمفونيته خارجاً، أفتح النافذة لتلامس يدي بعض قطراته، باردة صغيرة تغويني بالنزول واللعب معها كالأيام الخوالي، في سباق محموم وإنتشاء طفولي لإستقبالها عند ناصية الشارع مشرعين أذرعنا.

لا، لن أنزل فكفي عن مراودتي، ألا ترين؟ بت كبيرة لا تقوى على الجري خلفك، صرت أختبأ منك بمظلة، وينتابني شعور خفي بالضيق،

التوتر والخوف من غيومك الرمادية المحتشدة، لن أقوى على مواجهتك كما السابق.

لم أصب بتلك الحالة من قبل، الغثيان وذلك الشعور بالدوار أفقدني رشدي وثباتي، بدأ يتزايد بإطراد، لا أعود أرى أمامي، أضواء تلمع وحشوداً تصفق، أفقد الشعور بالجاذبية، كل ما يمسك قدميّ بالأرض، حتى فستاني الثقيل تخف وطأته على كتفيّ، أشعر بإنسلاخ نفسي من بدني صاعدة، دوار، الموسيقى تتحول الى ضجيج لا أستطيع اللحاق به، صوتي لا أسمعه، المسرح يدور، كمن يمشي على حبل، تتقطع أنفاسي، ألهث، ترتفع روحي، يضغط برأسي ألم مباغت، يتملكني إحساس بالنحول والضعف في أطرافي، تخونني قدماي، يختل توازني فأتكوم على أرضية المسرح، أصوات بعيدة، ضجيج، أيادي تحملني، قواي خائرة، لساني يثقل فلا أتمكن من الرد على ظلال شخص يحاول إيقاظي بالربت على وجهي، نعاس وخدر يجتاحني، أدرك أنها النهاية، فأستسلم لدبيبها، تتلاشى الأخيلة من أمامي، هذا ما عدت أتذكره حين صحوت على سرير بارد أبيض بملابس فضفاضة خفيفة.

منع الطبيب عني الزيارات لمدة يوم كامل، آملاً في إخلادي الى الراحة وإستجماع بعض من قواي التي فقدتها على المسرح وأنا أصدح بكل طاقتي قائلاً لي:

لقد شاهدت حفلتك على التلفاز، ما هكذا يكون الغناء يا سيدتي! وهو يوميء برأسه ويقيس ضغطي.

أشحت بوجهي عنه، وأنا أتمتم مع نفسي هازئة... وأنت شنو فهمك بالغناء، خليك في...، وقبل أن أكمل، أردف:

في كثير يغنوا، لكن مش كده، أنت، أنت رهيبة.

داعبت غروري تلك الكلمة، فإستدرت نحوه قليلاً، لحثه على مواصلة الكلام، لكنه لم يرضِ غروري ونظر الى ساعته ليقول على عجالة وهو ينوي الخروج: أنت ممنوعة من الغناء على مدى شهر كامل، لقد أجهدت نفسك الى حد بعيد، ما يكون الغناء هكذا!

عاودني الشعور بالإستياء من كلامه، وقبل أن أرد عليه كان قد خرج، ولم يبقَ سوى عطره الناعم الذي يشي بالأناقة والنظافة البالغة... يا له من متحاذق، يريد أن يعلمني كيف يكون الغناء، ولوهلة تنبهت الى شكلي وكيف بدوت أمامه؟ فمددت يدي لا إرادياً الى شعري، ما الفائدة؟ ضغطت على الزر القريب مني، فجاءت الممرضة وطلبت منها أن تأتيني بمشط ومرآة وأدوات زينة، يا إلهي كيف أبدو؟ هل أبدو مريعة؟ حاولت إستعجالها بالطلب الذي تفهمته بحكم مكانتي الفنية ووضعي، وطلبت مني هي الأخرى توقيعاً للذكرى.

بعد أن شعرت بالإطمئنان من شكلي، مزيلة الشحوب بقليل من المكياج وأحمر الشفاه، الذي لاحظه الطبيب حين وافاني بالزيارة في جولته المسائية، إذ لم يفته أن يلمح بذلك، فلم آبه له، وسألته بإقتضاب عن حالتي الصحية والأعراض التي سببت لي الإغماء، فرد وهو يرمقني بنظرة شابتها إبتسامة:

– هذا لأنك ترهقين نفسك أكثر من اللازم يا مدام غفران.

– لكل منا مقتضيات عمله.

- صحيح، لكن ليس بتلك الدرجة!

- ماذا تقصد يا دكتور؟

- أخبرتك، لقد شاهدت حفلتك، كنت مدهشة في الأداء، لا أستغرب أن تخري على الأرض مغشياً عليك، كتلة نار تأكل بعضها، هكذا كنت على المسرح، ما كل هذا التماهي! قليل ممن يفعل ذلك، كل كلمة منك تصدر بإحساس عميق دافق، يمنح المتلقي شعوراً بالصلة والقرب من تلك المشاعر والإستغراق فيها... أممممممم كما قلت، لا تجهدي نفسك، حدة التوتر والإيغال في مثل هذه الإنفعالات تسبب لك هبوطاً في السكر، كما أرى أنك تقومين بحمية طوال الوقت، سيدتي إرفقي بحالك هذا ما أوصيك به كطبيب، والآن هلا وقعت لي هنا كمعجب بفنك الراقي، وأعطاها قلماً إستله من جيب قميصه، أراك في الغد، وسأمنع عنك الزيارة لئلا يرهقك المعجبون الذين ملأت باقات أزهارهم وبطاقات تمنياتهم بالشفاء أروقة المستشفى، وهو يشير بيده الى مجموعة من الباقات التي فاحت بأريجها جو الغرفة.

- الحمد لله حب الناس هبة من الخالق لعبده، وهي تشعر بالإمتنان والفخر.

- إخلدي الآن الى الراحة، وبعد قليل ستأخذ منك الممرضة عينة دم أخرى لأجل الفحص وزيادة الإطمئنان... تحياتي.

١٠

للذهاب الى إعدادية البصرة للبنين، كان لزاماً عليّ أن أمر كل يوم بمحاذاة إعدادية البصرة للبنات، أن يقتلني الغيظ كل صباح وأنا ألمحهن بزيهن المدرسي الجميل، أشرطة شعرهن، حقائبهن الملونة، سيرهن الدؤوب الى المدرسة كنحلات، إبتسامات وهمس بعضهن.

لم يكن هناك من طريق آخر أتحاشى فيه مصادفتهن، فتكبر الحسرة والنقمة في قلبي وأنا أجالس كل يوم مجموعة مراهقين، تنفث أجسادهم روائح فحولة تزكم أنفي، مصحوبة بتغيرات واضحة فيها، خصوصاً بعد ظهور الشعر على الذقن وزغب شوارب يتباهون بها، ولن أنسى تفاحة آدم التي تنزلق صعوداً ونزولاً في تناغم مع أصواتهم المبحوحة الخشنة، لا أَجِد نفسي معهم، وسط تلك الفتوة المتفجرة، لا أملك إحساسهم وميولهم وحتى رغباتهم، كل شيء في داخلي يصرخ مطالباً بإطلاق سراحه من جسد لا يعبر عنه أو حتى يمثله، أحسست بأني غريبٌ في جلساتهم وأحاديثهم الذكورية، وشدما إنتابني الشعور بالخجل عندما يتطرقون أحيانا الى أحاديث تخص الفتيات والعلاقات، فأنأى بنفسي صامتاً تعوزه الخبرة والتجربة، فلا ألقى منهم سوى السخرية على سذاجتي، وهم يرددون على سمعي: أكبر يا ولد، أكبر!... متى تكبر؟!

ولا يتردد أحدهم في السؤال ساخراً فيما إذا كان لدي حبيبة أو حتى علاقة، وسط مزاح الآخرين وإستهجانهم لإبتعادي عن جنس حواء الذي لا تطرب له

هرموناتي الذكورية، فما كان مني إلا أن أكذب مدعياً وجود واحدة في إعدادية البنات، الأمر الذي أدخلني في ورطة وصفها لهم والتعريف عنها بأوصاف جاءت مقاربة لي دون أن أشعر إلا بعد أن نبهني فاروق قائلاً: أيا ملعووون! مختار لك وحده حلوه تشبهك ومسوي نفسك عاقل يمنا؟!

كانت فترة الإعدادية هي الأصعب عليّ، نوبات من الشك والهلوسة تجتاح عقلي، أفقد معها قدرتي على تصويب من أكون، أظل متأرجحاً بين هي وهو على مسافة متساوية، تتنازعني نفسي تشدني كل مرة بإتجاه، ضياع مؤلم، ونزيف روحي حاد لا أملك إيقافه بمسكن أو ضماد، كل ما بداخلي غامض مبهم، تتداخل مشاعري وترتبك بين الجديلة والشارب، يا الله أعطني فقط إشارة تدلني على كينونتي، فقط إشارة وأنا سأسير رهنها، يا ربي إشارة تكفيني، ماعدت أميز من أنا! أين أنا من غيلان؟ وأين هو؟ تتمازج الصور والأخيلة والرغبات، نوبات صداع شديدة تطيح بي، تشل تركيزي، فيتعاظم شعوري بالتيه والغربة وأنا أسقط مغمياً عليه في مرات عدة، لم يستطع الطبيب تشخيص سببها بعد إحراء الفحوصات اللازمة، مكتفياً بالقول: حالة نفسية سيتجاوزها بعد فترة المراهقة.

لكن إضطرابي وولوجي في نوبات عصبية وخشونة مفرطة قد أوصلني الى حد الكآبة والعزلة في أحيان كثيرةٍ. عانيت من ذلك التشظي الرهيب بين عقلي وإستغاثة روحي، الواقع وما يمليه عليّ من متطلبات ورغبات تسكنني لا أستطيع البوح بها، لكن حين جاءت الفرصة لم أتورع عن مراودة مدرس الفيزياء الخصوصي الذي راجع معي المادة طوال عطلة الصيف، مرجئاً بذلك فرحة أهلي بتخرجي من الإعدادية حتى الشهر التاسع، كان وسيماً ممشوق القامة لم يتجاوز الثلاثين، جمعني وإياه كرسيان وطاولة في غرفة

الضيوف، مما ساعد على ملامسة يديه دون قصد، حتى إستجمعت شجاعتي وكامل جرأتي في أحدى المرات قُريب موعد إمتحانات الدور الثاني، وأمسكت يده بقوة مختبراً ما نوع إنجذابي له، وما سر إهتمامي المبالغ فيه بمظهري في ساعة قدومه إليّ؟ فما كان منه أن سحب يده بشدة من بين يدي، مشمئزاً موقعاً على مسمعي أشد العبارات إهانة وإساءة، لم أصغِ الى كلماته قدرما كنت أختبر أحساسي وطبيعة مشاعري نحوه وأنا أحاول التعلق بيده كجواب لكل حيرتي، تلك اليد التي نفضتني كمخلوق دنس رديء، لن أنسى صورتي التي تشكلت في عينيه، وما طغى على ملامحه من إمتعاض وقرف حمله معه وهو خارجٌ، فكانت تلك المرة الأخيرة التي أشاهده، كم كنت مجنوناً؟ حتى أقدم على هذا السلوك! فضولي لمعرفة من أكون كان الواعز الحقيقي الذي دفعني الى الإستسلام لمشاعر الأنثى التي تسكنني، فلم أنل منه سوى بصقة كانت خاتمة علاقتي بمادة الفيزياء.

لا أملك اليوم إلا أن أضحك من تلك الذكريات رغم مرارتها.

بدأت ألمح نظرات الإعجاب والإستحسان على مظهري الجديد في عيون المارة، قصة شعري الجديدة، وملابسي الأنيقة الناعمة قد أطمعت بعضاً من نزلاء الفندق في محاولة التغرير والتحرش بهذا الكائن الغريب المثير للفضول، فعرضت عليّ الأموال لأجل إستشفاف تلك الرغبة.

لابد لي اليوم أن أزور صديقي المصفف، لقد نجح في إظهار مواطن الجمال في وجهي، هو فنان بحق، فرشاته هي مقصه الذي تحمله أنامله ببراعة وخفة.

لا أدري كيف تنامت علاقتي بلي شن وأمسى صديقي المقرب الوحيد، معه ألفت الكثير من الأمور والأشياء الغريبة، تجولنا في عطل نهايات الأسبوع، أماكن مختلفة ألحظها لأول مرة رغم مروري ببعضها دون أن أعيرها إهتمامي، منه حاولت تعلم العيش دون النظر الى الوراء، وعيش ما تبقى بسلام كما يفعل هو، لا أنكر أني أخفق أحياناً في تبني وجهة نظره هذه والعمل بها، لكني على الرغم من كل شيء أحاول، بل جاداً أحاول التمعن في قادم حياتي وجدوى ما فعلته بنفسي على أنه حجر الأساس الذي سأنطلق منه تاركاً خلفي أسمال غيلان وجميع تناقضاته.

يعيش لي شن في عزلة، بعيداً عن كل ضوضاء المدينة، مستأجراً شقة صغيرة في طرفها القصي، شقة بسيطة أنيقة وقد أفرط في تنظيفها وألزم كل شيء مكانه في ترتيب مُلفت للدهشة لا يبدر من الرجال عادة، يبلغ اليوم الثلاثين من عمره وسأشتري عدة خاصة بأدوات الحلاقة كهدية لعيد ميلاده الذي عرفته بالصدفة في إحدى المرات، سنحتفل معاً رغم رفضه وتحفظه على تلك المناسبات التي في الغالب خلت من أصدقائه ومعارفه وكأنه غريب هو الآخر، لا أدري أأشفق عليه أم على نفسي؟! فالأشقياء أصناف.

عليّ أن أظهر له بكامل أناقتي إحتفاء بعيد ميلاده فلأنهض وأستعد، لا أطيق إنتظار مفاجأته بكعكة عيد ميلاده، شمعة واحدة تكفي... نعم تكفي، لكن عليك الإسراع.

سأشكوك الى أمي يا غيلان، أنت دائم العبث باشيائي، لقد كبرت على ذلك، ما لك لا تفهم! ما عادت تجربة إرتداء ملابسي أمراً مضحكاً، أنظر!

أنظر كيف نزعت كم فستاني من الكتف! صار حجمك أكبر من أن تقحم نفسك في فساتيني أيها الدب السمين، سأشكوك لأمي هذه المرة، لقد نزعت فستان عيد ميلادي، كيف نصلحه؟ كيف، هلا أخبرتني يا دب؟!

شعرت بالضيق على ما أصاب فستان أفنان من ضرر، لكني خشيت أكثر من أن تشي بي لأمي وتخبرها، فتوسلتها مستحلفاً إياها بروح قطتها الغالية، فمطت شفتيها مطبقة على عينيها لوهلة في دلالة على التفكر والتراجع عما كانت مقدمة عليه، فهي ما تبرح تذكر قطتها بسبوسة وصنيعي الكريم في حفظ سرها ومساعدتها في الإبقاء عليها وإخفائها عن أنظار جدتي وأمي بعد أن إتخذت على عاتقها رمي القطط الصغيرة المولودة حديثاً في فناء البيت الخلفي الى الخارج، فما كان مني وتحت ضغط دموع أفنان وإبتزازها العاطفي إلا أن أتسلل خارجاً تحت المطر لأجلب قطتها البيضاء المرقطة بالأسود، وأحفظها في صندوق بعيداً عن المطر وأنظار أمي وحاستها حتى إشتد عودها، وأمسى وجودها في الحديقة أمراً مسلماً به وخارج إرادة أمي في العزل والطرد، فما الذي تستطيع فعله مع قطة لا تعرف مكاناً آخر سوى هذا المنزل وذلك الصندوق المحشو بالقش بيتاً لها، رغم محاولات والدتي في طردها وتشككها الدائم وإتهامها المستمر بأني من أعاد جلبها الى البيت.

أمي، هلا أصلحت لي هذا الشق في كتف الفستان.

إستسلمت أفنان لغمغمة أمي وتقريعها لها على إهمالها وعدم محافظتها على ثوبها الجديد، بعد أن هيأت لها الإبرة والخيط المناسب لترتقه، لم أتمالك نفسي من السخرية منها أمام أمي مختبراً صبرها وقلة حيلتها في الدفاع عن نفسها وإفصاح الحقيقة.

هكذا كانت شقيقتي، مستودع أسراري، يا الله! وكأني فقدت بعضاً مني حين غادرتِنا هاربة مما لمحته، كم أنا آسف على كل ما جرى، ليتك تصفحين أخيتي، ليتك تصفحين، إبتعادك عني هو الخسارة الأكبر، ما حصل لم يكن مدبراً له، وما رأيته أنت لم يكن سوى... سوى ماذا؟ هيا أكمل، سوى ماذا؟! لا تصمت هيا أجب سوى ماذا؟... لا أدري، لا أدري، سوى محاولة طائشة في الكشف... في الكشف عن ماذا؟ بل قل أنانية مطلقة في الإستحواذ على كل ما تملكه شقيقتك حتى خطيـ... لا تكملي، لا تكملي أرجوك، ليس الآن.

وإتجه نحو المرآة يتفحص ثيابه الجديدة في سعي حثيث الى رتق روحه، قبل أن يخرج من الفندق لشراء الهدية لصديقه.

- أنا آسفه عما بدر مني، لم أكن أنوي سرقـ...
- لا عليك.
- حقاً، لا أعرف كيف طاوعته وصدقت أكاذيبه ثانية، ذلك اللعين هو من حرضني على سرقة وديعة الشركة التي كانت بحوزتك والهروب معه كي نتزوج، لقد شعرت بالذعر من العودة ثانية الى التشرد والضياع بعد أن لمست تغيراً في مشاعرك تجاهي، فظننت أن الهرب بتلك الأموال سيوفر عليّ مغبة التفكير في قادم أيامي، كنت أجهل ما أكنه لك، لكني بعدها أدركت، أدركت حقيقة مشاعري ومدى خسارتي، لقد إنقلب السحر على الساحر!... لماذا هذا الصمت؟ قل شيئاً، أكره أن تعاملني بهذه الطريقة، وإنخرطت في البكاء.

- أستأذن أنا، ونظر في ساعة يده، وقبل أن يغلق الهاتف، بادرته بصوت أجش:

قل شيئاً أرجوك، لا تعاملني كعابرة مرت في حياتك، أرجوك لا تفعل ذلك معي، إصفح عني ودعني أطبب ما سببته لك من جرح.

- لا تقلقي... ما من جرح! كل شيء على أحسن حال.

- لا تكابر رجاءً، ودعني أكن قربك ثانية.

- أنا أستأذن، ليس لديّ وقت لمثل هذا الحديث.

- عدني أنك ستتصل، هذا رقمي إحفظه من فضلك.

- لا أعدك بشيء... وداعاً.

عشت كابوساً رهيباً مع ليالي، لا أدري كيف إنسقت لها؟ كيف روادتني عما كنت أبغيه طوال حياتي، أشهرٌ رهيبة من الشك والظنون القاتلة، بت أجهل من أكون، وماذا أريد؟ ماذا يريد غيلان غنام داود النساج؟! لم يكن يمر يومٌ دون أن يتفاقم هذا السؤال ويتنازع في داخلي ليحيلني الى مسخ ذميم لا يطيق النظر الى نفسه في المرآة، هل أخطأت حقاً في تحديد هويتي؟ دوامة، كدت أصاب بالجنون، أيعقل أن يحدث هذا لي؟! كيف أتضور شوقاً وولهاً الى ليالي؟ من أنا يا إلهي؟ ماذا فعلتْ بي؟ وكيف أطلقت تلك الرغبات الدفينة؟ فما من واحدة سبقتها الى ذلك، لم تشدني أي إمرأة من قبل، فماذا فعلت بي ليالي؟!

هل غيرت خارطة جسدي ونداءه المستغيث؟! فأمسيت لا أكاد أطيق الإبتعاد عنها، أهرع اليها مسكوناً بفرحة من وجد ضالته أخيراً، فتركت

نفسي تعوم في ظلال الرغبة مفتوناً بسحرها وما تقدمه لي كل ليلة من مباهج كان يحسدني شهريار عليها.

تراجعت غلوائي، وبت واثقاً أني غيلان، الرجل الذي أشعلت ليالي جذوته، فتهافت عليها كالمحروم أروي عطشي وجوع رجولة ظلت حبيسة الريبة والمخاوف سنيناً طويلة، فكففت عن تناول أدويتي مطلقاً سراح هرمونات الرجولة التي كابدت وجودها محارباً.

لا أدري كيف تحولت شفقتي على ظروفها الى تعلق وإدمان، طالت بأناملها كل ركن في شقتي وأعادت ترتيبها بطريقتها دون أن أبدي أدنى إعتراض وأنا المولع بالأثاث الكلاسيكي لم أفوت على نفسي فرصة مشاركتها إقتناء أثاث حديث عصري راق لها.

أمور متسارعة متداخلة تطرأ على حالي دون أن أَجِد تفسيراً لها مكتفياً بالإنسياق الى سعادة لم آلفها من قبل، إختبار حياة مختلفة خالية من تعقيدات معرفة الهوية وما ينم عنها من مصاعب ومشاكل نفسية، أطلقت العنان لروحي كسجين يتذوق طعم الحرية، إنصرف عقلي تماماً عما أثقله وإزدحم به من سنين وصار كل همي هو إقتفاء أثرها وكل ما تقدمه لي من فرح ورضا يطال أعماقي لم أعهده في أي وقت مضى، فأدركت أنها معجزة الحب التي أنقذت روح غيلان أخيراً من كل ما ينتابها من شكوك وتمزق، حبها لي وتمسكها بأهداب رجولة خلتها مفقودة فيّ جعلني أشعر بالخجل والندم مما كنت عازماً عليه، فرميت بكل ملابسي المحايدة مع أفكاري الى سلة المهملات، وبدأت أحلق ذقني بالشفرة على أمل أن يبزغ شعر قوي كثيف بدل ذلك الزغب الخفيف، يا الله كم بذلت جهداً في إظهار رجولة أنكرتها على الدوام وباتت مطلبي الوحيد لأجل إسعادها ونيل رضاها، فإشتريت

أطقم ملابس جديدة رجالية بإمتياز، وغيرت قصة شعري بحثاً عن ملامح ذكورية إختفت خلف شعر ناعم منسدل حد الذقن، تركت لحاجبي شعره دون أي تشذيب أو تعديل، لكني يئست في إظهار شارب يقيم الحد على وجه أملس مستدير صاف تكابد نساء كثيرة في إمتلاكه.

تباً لحبوب الهرمونات وما صنعته في جسمي من إنحناءات وتعاريج أنثوية أغالب في إخفائها أمام ليالي.

لم أكد أنال صك حريتي وتسريحي من الجيش بعد إنهاء الخدمة العسكرية الممتدة سنة ونصفاً بعد التخرج، حتى وافتنا حرب جديدة إستهلكت الرمق الأخير في رجال خرجوا تواً من سني حرب طويلة طالت أعناقاً كثيرة وخسائر كبيرة، كنت حينها مع والدي في تركيا في سعي حثيث منه لمعرفة أسرار عمله والأخذ بها عن عاتقه حيث عقد صفقة مع أحد معامل صناعة السجاد في مدينة غازي عنتاب، مما إضطره الى وقف التعاقد وعدم إتمام الصفقة لحين إستقرار الوضع، الأمر الذي إضطره الى الرجوع فوراً وإبقائي هناك منفياً في تلك المدينة ما يقارب السنة حتى إنتهاء حرب الخليج، مرت أيامها كأنها دهورٌ، وأنا أتتبع أخبار العراق من نشرات الأخبار العالمية على أمل العودة في أقرب فرصة الى وطن مخضب بجراحه.

أولاني العم شكيب قارمان صاحب مصنع السجاد عناية ترقى بمنزلة الصداقة التي يكنها لوالدي، فأقمت فترة في أحد أجنحة بيته الكبير بجدرانه الحجرية العريضة، وفنائه الواسع الذي تنتظم حوله وعلى طابقين غرف بأبواب وشبابيك عالية مقوسة على الطراز الإسلامي، إلفت رائحة البيت وما يجود به مطبخه من أكلات شرقية قريبة من العربية الى حد كبير

حتى إختلط عليّ الأمر في بيان أصل هويتها عراقية أم تركية، ليتضح لي أن مطبخنا العراقي هو مزيج لجنسيات مطابخ عديدة، لكني أذكر نفسي دوماً أن هذه المدينة لا تزال تصطبغ بلونها العربي القديم حين كانت جزءً من بلاد الشام وأخت حلب، وتنهل من نهر ساكرسويو أحد روافد نهر الفرات، كل ركن فيها يشعرني بالإلفة، بيوت حاراتها الحجرية القديمة المحاطة بالتلال، طرقها المتعرجة الضيقة المعبدة بالأحجار، سوقها المسقف الكبير يذكرني بسوق المغايز في العشار، حدائقها الملفتة للنظر بأنواع الأزهار والأشجار حيث الشيوخ المسنون يتقاسمون دفء الشمس من فوق المساطب الخشبية، منعمين النظر الى خضرة على مد البصر وسماء زرقاء لا يبان لها أفق.

قضيت الفترة الأولى من مكوثي في مدينة غازي عنتاب أتجول في النهار مستكشفاً أطرافها ومعالمها الأثرية الجميلة بإهتمام وحب بالغ بعيداً عن الوطن ومحنه المتتالية، غير مفوت لفرصة تذوق السكاكر والحلويات المرصوصة في (صواني) معدنية خلف واجهة محلات الحلويات بأصنافها المتعددة والمحشوة بأفخر أنواع الفستق الحلبي أو كما يطيب لهم تسميته بالفستق العنتابي خاصة (البقلاوة)، وما أن يجن الليل حتى تستوطنني البصرة، ويسرح نسيم شط العرب مداعباً أخيلتي وقاطعاً عليّ حبل تصبري، ليوقظ كل ليلة أشجان الغربة والقلق المتنامي عن تصاعد وتيرة حرب تكالب فيها البعيد والقريب بسكينه.

ضايقني بشدة ما شعرت به من تخاذل وضعف، الجند تحصدهم قنابل العدو في حفر الباطن ولا يسد جوعهم سوى خبز متيبس يتعثر في وصوله الى بطون خاوية، تشققت جلودهم من برد الصحراء وهوائها الجاف، بينما أنا أنعم بالدفء متقلباً على سرير وثير الفراش وسائده من الديباج الناعم

الخفيف، وتدللني الخالة أم خان وخادمتها أسما نور بما لذ وطاب من المأكولات حتى خلت أن كرشاً قد نما لي لولا ساعات المشي الطويلة التي حرصت على إدائها كل يوم تقريباً حتى بت ملماً بتفاصيل تلك المدينة.

بعد فترة من التسكع والتجوال قررت زيارة معمل العم شكيب كي أكون على مقربة من مكامن أسرار العمل، وأصبح ذا نفع لأبي ولهذا الرجل الذي أقبع تحت جناح رعايته.

وجدت في البداية صعوبة في التماشي مع هذا النوع من العمل، وصوت المكائن يملأ الرأس ضجيجاً حتى إعتدته، وأمست خيوط الصوف والأصباغ تنسج أحلام لياليّ، وحزت على رضا العم شكيب الذي إستبصر فيّ خيراً واثقاً بقدرتي المستقبلية في القيادة وتولي المسؤولية التي تهربت منها مراراً رغم إصرار أبي على أخذ دفة مركب شاخ ساعده وهو يقوده في تقليد عائلي متوارث يعود بالأصل الى جد جدي الذي تحدر الى البصرة، تاركاً أهله في الحلة وحرفة إجداده في صناعة السجاد اليدوي سعياً خلف فتاة لم يلمح من وجهها سوى عينين مكحلتين تداني لطف ليلة شباطية برموش سوداء قتالة، فسقط أسيرها مقتفياً أثرها حتى حدود بيتها وعشيرتها التي أثقلته بالشروط والضمانات لكي تزوجه إبنتها درة التي كانت محجوزة لإبن عمها الذي طال سفره في رحلة تجارية الى الهند، إستنزفت من درة خمس سنوات إنتظار وترقب يشوبه الكثير من الشك والإشاعات المضللة التي تشي بغرق السفينة في المحيط الهندي، حتى جاء الخبر المؤكد بزواجه من إبنة تاجر هندي يقيم في بومباي.

في غضون أشهر عديدة تشربت الصنعة جيداً، هذا إن لم تكن منقولة في دمي من رجل لرجل في بيت النساج، وأصبح رأيي في الألوان والتصاميم مطلباً عند العم شكيب قارمان وزبائنه الذين يوليهم إهتمامه.

ما كان لأبي أن يصدق عينيه، داعكاً إياهما ليراني واقفاً في المعمل أراقب سير العمل، وأتفحص الماكنات وجودة الإنتاج في تناغم كبير أنا نفسي لم أتوقع أن يحدث معي، لكن كما قال العم شكيب أن فرخ الوز عوام، وأنني أبن النساج بلا منازع.

شعرت بالشوق الى البصرة وهي تكابد ألم الإندحار والخسارة في سيل هادر لجنود وأرتالٍ عسكرية من دبابات ومدافع متروكة وحيدة تعصف فيها صحراء قاسية وآمال يائسة بالنصر في حرب نتائجها معروفة سلفاً، الى أمي وشقيقاتي وفـ... أكمل لماذا توقفت؟! أما كان الشوق الى فاروق قد أخذ منك صوابك وحملك من الظنون ما أترع مقلتيك بالدمع والسهاد؟... إخرسي، لا أريد أن أسمعك اليوم، ودعيني أنتقي النوع المناسب من أدوات الحلاقة للي شن، فأخرسي هيا.

شعرت حينها بالتوتر والضيق، لم يكن الطقس حاراً حتى أتعلل بحرارة الأجواء أو بزحام المكان، رافقتها الى العشار كأخ طيب حنون لا يرد لشقيقته أي طلب على الأخص حين يتطلب الأمر الى السرية بعيداً عن فضول بقية شقيقاتي وأسئلتهن، فإتفقنا على إنتظارها عند ناصية الشارع حيث إستقللنا الباص.

كانت عيناها تلمعان بحبور وفرح طفولي لم أستطع تفسيره إلا بعدما ولجنا شارع حنا الشيخ ومنه الى شارع الوطن في بحث دؤوب عن هدية عيد ميلاد مناسبة لقصي حبيبها الذي وقعت في غرامه منذ الأشهر الأولى لدخولها كلية العلوم.

تبرمت من ترددها في إنتقاء الهدية، حاولت إستعجالها متعللاً بأمر طاريء تذكرته، لا أعرف لماذا أحسست بإنقباض في معدتي وثقل ونحن نلف وعينا أفنان لا تبارحان زجاج واجهات المحلات حتى تلون وجهها بإبتسامة عذبة كمن وجد ضالته بعد تجهم، فدخلت متحمسة الى المحل تطلب من صاحبه أن

يريها عن قرب زوجاً من الدبابيس المذهبة اللون (البروش) الرجالي لكمي القميص لتدفع ثمنها الذي بدا مرتفعاً بعض الشيء دون أدنى مساومة على السعر مع البائع عكس عادتها في شراء الأشياء، دهشت من حماقتها وتسرعها في الشراء مؤنباً إياها لكنها لم تلقِ بالاً فسعادتها بالهدية كانت أكبر من أن تلتفت لتوبيخ أخيها الأصغر وكاتم أسرارها.

في طريق العودة الى البيت نزلت هي من الحافلة على مقربة من البيت وأنا أكملت طريقي الى حيث الموقف الأخير لها في محاولة للتمويه عن خروجنا معاً.

لازمني ذلك الإحساس بالضيق رغم درايتي الكافية بمدى حبها له ورغبتها الجارفة في الإرتباط بعد التخرج، لم أعرف سببه ولا بواعثه، إختلطت مشاعري بين الأخت التي أدعيها في صميم روحي لأفنان وبين الأخ الشرقي الذي لا يتقبل مثل هذه التصرفات من شقيقته، تنازعت مع نفسي في مهاترات يائسة لم تزدني إلا حنقاً وندماً على مرافقتها الى العشار... كيف طاوعتها على ذلك؟... ما كنت أعلم بنيتها تلك، كنت أظنها كباقي المرات السابقة... هاهاها يعني تعترف بأنها قد إستغفلتك!... لا لا، بل يطيب لها أن تشاركني أسرارها... أكأخت لها أم أخ؟!... سؤال خبيث لم أفكر به من قبل، فيا للؤمك!... ليس لؤماً، فقط يطيب لي أن أضع النقاط على الحروف، لا أهرب مثلك... لا أهرب أنا... بل تهرب ولا تستطيع المواجهة... لم أهرب... إذن أجبني، ماذا تعني أنت لأفنان شقيقها الأصغر، شقيقتها أم مسخ تشفق عليه؟!... أخرسي، أخرسي، ملعونة دنسة... هاهاهاها أهرب ثانية هذا ديدنك، لن ألومك.

تشظت مشاعري بين الحقد والحنق على أفنان أو ربما تنازعتني الغيرة منها، فتجنبت لقاءها بقية اليوم أو الحديث معها والنوم مبكراً دون عشاء

مستفيقاً في الصباح التالي على وقع هزهزة يدها وهي تسألني بإرتباك وصوت مضطرب:

غيلان، غيلان، إستفق، أما شاهدت فردة الدبوس الآخر؟ في العلبة فقط دبوس واحد! لا أعلم أين ذهب الآخر! أرجوك تذكر، هل لمست العلبة وأوقعته دون أن تشعر بذلك؟!

بصوت نعس، وأنا أفرك عينيّ أجبتها:

أفنان، ما بالك؟ أنا لم أقترب من هديتك هذه، ولم ألمسها قط. مستديراً بظهري عنها بعد أن تمعنت في قراءة ما إرتسم على وجهها من خيبة أمل وخذلان، وهي تردد بصوت أجش متهدج بلله الدمع ضيقاً وحيرة:

لكن أين ذهبت تلك الفردة، يا ألهي اليوم عيد ميلاده، ماذا أقدم له؟!

وتركتها تلف حول نفسها كالمجنونة تبحث بين أشيائي وأرض الغرفة أملاً في إيجاد فردة الدبوس التي ربما قد سقطت منها سهواً في غرفتي رغم وثوقها من أنها لم تأت بها أبداً، لكن الغريق يتعلق بقشة الأمل.

من فضلك غلف العلبة بورق هدايا.

ممتاز لم أستغرق وقتاً في إختيار ماركة الأدوات التي يحبذها لي شن، أشعر بالراحة، وآسف أختي من كل قلبي على إرتكابي تلك الحماقة، أية فكرة شيطانية إستحوذت على تفكيري! لم أفهم ما الذي دفعني حقاً الى أخذ تلك الفردة خلسة! كانت في جيب (بجامتي) أتحسس وجودها بطرف أصابعي مغموساً بمشاعر الثأر والإنتقام بينما أنت تغرقين في غمرة بحث عقيم مضنٍ.

أكانت الغيرة هي من دفعتني الى ذلك السلوك النذل معك أم الثأر منك؟! يا الله كيف ينساق الإنسان أحيانا الى سلوك دروب غريبة لا تطأها قدماه لولا

تحريض وإغواء مشاعر مبهمة تتسرب من مكامن مظلمة في النفس لا يستطيع العقل ردعها ممتثلاً هو الآخر لإغوائها يدفعه الفضول المقيت.

آسف أختي لم أستطع أن أحبك بعيداً عن أنانية وهفوات غيلان وحماقاته التي حملت وزر بعضها.

كان في صالون الحلاقة كما توقعته، فإنتظرت حتى أنهى زبونه، بادرني بإبتسامة عريضة غاصت معها عيناه في دعة ناعمة رقيقة، وبحماس قال:

ما هذا؟! لم أميزك للوهلة الأولى.

ورمقني بنظرات إعجاب باتت مألوفة لديّ منذ فترة، إظن أن شعرك يحتاج الى بعض التشذيب.

وحالما إنتهى من ذلك دعوته الى الغداء في إحدى المطاعم الأنيقة، فحاول تأجيل الدعوة الى وقت آخر متعذراً بإنشغالات أخرى لم تثنني من الإصرار على رغبتي في قضاء الوقت معاً والإحتفال بعيد ميلاده بكعكة صغيرة على شكل قلب من الشوكولا لا تحمل إلا شمعة صغيرة واحدة، أتى بها النادل ترافقه موسيقى عيد الميلاد، فبانت الدهشة على ملامح صديقي، وإلتمعت مقلتاه بدمعة تدحرجت على وجنته حين نفخ الشمعة على وقع تصفيق زبائن المطعم وهتافهم بعيد ميلاد سعيد.

أبدى لي شن تأثراً كبيراً وهو يشكرني على الهدية قائلاً بصوت مهتاج: هذا أول إحتفال يقام لي بعيد ميلادي، شدما تمنيت واحداً مثله حين كنت صغيراً، ما أدراك به! كيف علمت به؟! أنا نفسي لا أذكره!!

١١

كسائر الشباب والمراهقين تنقل من حب الى آخر بمتاع خفيف لاسيما بعد تجربته العاطفية الأولى الفاشلة، إذ يترك الشخص عندها أغلب أحماله وهمومه ليخوض بعدها تجارب أقل خسارة ومرارة، كنت من وقف الى جانبه وشجعه على الإرتباط بحبيبة الدراسة رغم تشكك والديه بجدوى الإرتباط بفتاة أهلها على قيد السفر والهجرة، وأن بقاءها معه قد حسمه الحب لا ختم الموافقة على أوراق الهجرة، لكن يبدو أن كفة الحب قد خفت أمام مغريات الهجرة وأحلام الحياة المستقرة والمواطنة الأوربية، فشدت رحالها مع أهلها بعد أن فشلت في إقناع حسن بالمستقبل الذي ينتظر أعماله الموسيقية.

شعرت أنا كذلك بالخيبة لأجل الحب الذي أمسى لا سوق له ولا رواد حقيقيين، فأغلب رواده هواة، يكتفون بذوقه على عجالة والذهاب، وهكذا فعلت زوجة حسن وحبيبته، حقاً شعرت بالإحراج والضيق حين ذكرتني أم حسن بمدى خشيتها وتهيبها من تلك الفتاة التي حاولت إصطحاب ولدها الوحيد معها الى بلاد الغربة والبرد، كنت مخطئة حين تصورت أن البقاء للحب على غرار دارون ونظريته في البقاء للأصلح، فما كان الحب هو الأصلح في كوكب يضيق بساكنيه، لم أستطع الرد عليها أو التبرير، يبدو أنها كانت أكثر إلماماً بعقلية الشباب وتطرف أحلامهم.

لن أنسى كيف عانى والداه، خصوصاً والدته التي نذرت وأشعلت شمعة عند كل إمام وولي أن يثبت الله قدميّ ولدها ويثنيه عن تغرير زوجته

وضغطها عليه بحصاد الهجرة وجنى ثمارها الدانية، وكيف تهلل وجهها فرحاً حين أرسل قسيمة الطلاق الى صبا قبل أن تسافر بأيام في شعور غريزي بإنتصار رابطة الدم على رابطة الحب التي راهنت عليها صبا مطمئنة من أن حسن سيشهر رايته البيضاء للحب مثل كل مرة تضعه فيها على محك حبه لها وإنقياده لسطوتها.

يا لسخرية القدر؟! ماذا أقول لأمه الآن إن جاءت تسأل؟! أي عار سيلحقني! لا لا لا أستطيع حتى التفكير بذلك الموقف، يا إلهي كيف إنجررت الى تلك المشاعر؟! كيف طاوعتها على السير نحوه؟ بعد إذ ألجمتها منذ سنوات مكتفية بالغناء لها لا عيشها والإحتراق بشظى لهيبها، ما عساني أقول لصديقتي؟ أعذريني هذه المرة أيضاً، فقد وقعت في حب إبنك، الذي كبر أمام عينيّ وأشتد عوده، حتماً ستصاب بذبحة قلبية وهذه المرة بسكين رفيقتها.

ما بالك؟ لا تطالعي الهاتف كل حين، هي فرصتك في الإبتعاد ونسيانه، لا تجري عكس التيار، ما عدت بعزم وتصميم السابق، العمر له أحكامه.

وسارت نحو المرآة ترقب خطوط وجهها في جري حثيث، تسابق زمناً في مسح آثاره عليها بعمليات التجميل وحقن البوتكس.

تلمست خطوط وجهها وتعابيره في بحث عنيد عنها، كل عملية تجميل تجريها تبعدها عن غفران، تمحو طريق الوصول إليها، ذقنها ما عاد هو، إختفت النقرة الصغيرة التي كانت يوماً تتوسطه وحل محلها رصعتين في الخد، غمازتين إصطناعيتين لا طعم لجمالهما، إبتسامة غريبة لا تكاد تشبه سابقتها تصدر عن شفتين أمسى إنطباقهما وإتساقهما مع بعض أمراً مستحيلاً، جبهة شُدت كورقة في نضال مستميت لحصار الخريف، رقبة تكشف بتحفظ ترهل جلدها رغم كل الإسعافات، ناهيك عن أنف قوض

حجمه وشكله أكثر من مرة في سعي محموم الى مواكبة الموضة، تمضي بأصابعها على وجهها مغمضة العينين تتحسس ملامح لم تعد موجودة، سبابتها تفتقد أثر الجرح في جبهتها قرب الحاجب، إلا أنها ماتفتأ تذكر طعم الدم الذي خر على وجهها، وهلع أمها في تقطيب الجرح، والقلق الذي إنتابها حول الأثر الذي سيتركه، لم تكف عن سؤالي عما جرى، بذلت جهداً في حفظ السر أمام تكهنات أمي وإستجوابها، لم أخبرها أن أفنان قد دفعتني عنوة فسقطت على حافة السرير الحادة، كانت السقطة مؤلمة لا توازي ثمن تطفلي على دفتر مذكراتها المعبئ بقلوب تقطر دماً أصابها سهم أحدهم الذي إكتفت بكتابة الفاء كحرف أول من إسمه، مما أيقظ فضولي الى سؤالها عن هويته، بعد إن فشلت في تكهن إسمه وغاب عني ما غاب حينها، الأمر الذي فتق خيوط غضبها المتأجج من عبثي في خصوصياتها، والسخرية من قلوبها المطعونة، فإندفعت نحوي مزمجرة دافعة إياي بكلتا يديها.

لم تطلب مني الصفح أو تحاول مسح الدم، كان غضبها مني أكبر من حرصها الذي عهدته منها، كذلك لم ألمح في عينيها أي شعور بالإمتنان على صمتي وعدم إفشاء سرها، وصار لزاماً عليّ أن أعتذر منها وأكفر عن غلطتي، يا الله كم تكون قاسية حين تغضب رغم وداعتها وطيبة نفسها؟!

أفنان هل ينفع إعتذاري منك الآن؟! هل يزيل عن قلبك ما بناه من أحقاد؟ ما كل هذا التغيير الكبير الذي طرأ على سماحة ولطف طبعك! لا أستحق أن تتخلي عن جوهرك بسبب فعلتي الحمقاء، إغفري لي من أجلك يا أختاه، فالحقد قد أنساك ما كنت عليه من إنسانة عطوف رحيمة، لا تستحق منك ألحان كل هذه المجافاة والبرود، وأنت أكثر من يعلم بدقة وضعها وصعوبته في كنف زوج عاجز يقضي حياته على كرسي مدولب

وبيت تحمل أوزاره على كتفها وحدها، كيف هان عليك أن تسلبي منها إبنتها التي ربتها لك بعد أن أعياك تربية توأمين مع إخوة ثلاث في بلاد الغربة؟! كيف إرتضيتِ بكسر قلبها على الإبنة التي كحلت بها عبث أعوامها الماضية مستأنفة معها ما فاتها من حياة قضتها بين الأطباء والفحوصات وإنتظار نتائج تحاليل ترفع وتيرة الأمل تارة لتحط به من سماء عليا بعد حين، لا أستطيع تصديق مدى قسوتك حين سحبت الفتاة الصغيرة من يد أمها وغادرت بها الى مدينة أخرى، حقاً لا أستطيع فهم ما فعله الحقد بقلبك! ولماذا ألحان تدفع الثمن؟! ثمن الحقد الذي تجذر في أعماق قلبك، أما آن لك أن تنزعي عنك ثوب الضغينة وتغفري!

أووووه كيف لهذا الجرح الغائر في روحي أن يندمل؟! وإسترسلت في تمشيط باروكة شعرها المستعار مبعدة عن مرمى نظرها الهاتف بعد أن أخرسته، لا يجب أن أبقى متحفزة بإنتظار رنة منه، ما هكذا إتفقت معه، عليّ أن أخرج بقرار بعيداً عن تأثيره، هكذا أخبرته... لكن ألم يفتقدك ويشتق اليك؟... ذلك كان إتفاقنا فلا تلحي... مشاعر الحب لا تحكمها إتفاقاتك البليدة، أتراه يفتقدك الآن؟!... لا أريد أن أفكر... كاذبة، لا أصدقك، أنت تدعين ذلك، أنا وحدي أعرف ما يجول في داخلك... ما بك؟! أحتاج الى الوقت ليس إلا... رجاءً، لا أودّ الإنخراط في هذه الأكاذيب، إفعليها وحدك، أنا لن أشاركك هذا الغباء، ما أفهمه أن ليس هناك ما يقف أمام الحب، فكفي عن المراوغة.

زارني مرة حين قدم الى دبي لأجل عمل طاريء تطلب رؤيتي لأجل مناقشة بعض الأمور التي تخص المعمل والإمضاء على بعض الأوراق، جاء

صوته عبر الهاتف متحمساً، فحاولت أن أبادله ذلك الحماس، بعد أن أرسلت اليه عنواني في رسالة نصية، لا أفهم ما الذي يجري لي؟ لم يخفق قلبي لسماع صوته ونبرته المترددة الهادئة، ولم أجرِ نحو المرآة أصلح شكلي ومكياجي، برودة داخلية تقطن أوردتي وشرايني، أنا نفسي إندهشت، إلا أني سويت مظهري بإعتدال لا ينم عن قلق أو خشية أن لا ألفت إنتباه المقابل وأثير إعجابه، أكانت ثقة كبيرة بالنفس وبمظهري الجميل المنسق أم عدم إكتراث بإنطباع الآخر عني؟! لست واثقة من شيء سوى أنني كنت متأهبة لرنة الجرس في أي لحظة، ذلك التأهب الهادىء المتحفظ الخالي من أي شعور بالتشويق واللهفة، لم أصدق وكدت أشك في رباطة جأشي التي ستنهار حال أن تراه عند مقدم الباب، فقد خبرت مراراً إرتفاع وتيرة نبض القلب، مع دوار خفيف يؤرجح موازين عقلي ويثبط عزيمتي في الصمود أمام جاذبية رجولته، فأتلوى على نفسي، أرفع قدماً وإنزل أخرى، أتكلم بطريقة أسرع، أضحك بصوت أعلى، أداري غصة تخنقني، ومرارة تعلو لساني خاصة حين تشد إنتباهك امرأة فتتلفت نحوها مثنياً على جمال تفاصيلها بطريقة فجة أحياناً فأحمر خجلاً من كلامك، مغيرة الموضوع، آه لو تعلم؟ كم كان يصبح الأمر شاقاً حين تدعوني للخروج في أمسيات الخميس للنزهة والجلوس في أحدى الكازينوهات المطلة على شط العرب، لم أستسغ يوماً طعم السجائر إلا أني تعاطيتها حباً في مشاركتك مضارها ودخانها الذي تفوح منه ملابسنا وأفواهنا، غيرتي عليك كانت أكبر من قدرتي على إحتوائها، كرهت كل واحدة إقتربت منها أو حتى جالت في خاطرك، وكم قاطعت طريق أخريات قبل أن يصلن إليك، كنت رسولاً خائناً، لم أبلغهن إعجابك، لا ولا أي رسالة حب، وتلك الشقراء التي

سلبت لبك، لم أوفر جهداً في إبعادك عنها رغم إصرارك على مراسلتها وتوطين علاقتك بها برسائل لم يصلها منها حرف، آه كم تمنيت أن تكتب تلك الكلمات لي، كم دمعت عيناي وأنا ألمس حرارتها إلا أن نار غيرتي قد أحرقتها قبل أن تصل الى يدها، وكم كنت عنيداً بإنتظار ردها الذي كتبته أنا بيدي اليسرى وسلمتك إياه، كانت رسالة شكر وإعتذار مقتضبة لا توازي دفق كلماته ودفئها:

تحية طيبة

"أشكرك على هذه المشاعر، لكني مرتبطة بشخص آخر..."

شعر بالإهانة، فما كان مني إلا أن أضمد جروحه حتى نسيها تماماً بعدما تزوجت، لم أشعر بالأسف في كل مرة أحبط فيها محاولتك للتقرب من فتاة أو العكس.

إستقبلته دون أن أشعر بشيء سوى بحميمية الذكريات والسنوات الطويلة التي جمعتنا، لا أعلم أين إختفت وكيف تلاشت كل تلك المشاعر التي حفظتها لك أعواماً؟! كيف تخبو نارها، وجمرها لا يكويني؟!

جلست قبالته بهدوء وثقة، إختلست النظر إليه، ممعنة في تفاصيله التي عشقتها يوماً وحفظتها في تلافيف الذاكرة، الشامة تزحزحت عن مكانها نازلة، كذلك تراجع شعر رأسه المتشح بالبياض الى الوراء تاركاً أمامه جبهة واسعة بصدغين أملسين، إختفى الوهج الذي أطلق ظلالاً جميلة على عينين حاصرها الزمن بخطوطه الرفيعة، زادت البحة في صوته من أثر التدخين الذي كسا أسنانه بلون باهت مثلما أحاط جوانب شفتيه بآثار داكنة، أووه تلك الشفتان التي تمنيت مراراً أن تقعا في قبضة فمي، أن تذوبا كقطعة سكر، أين أنا

من تلك الأمنية! فتشت عنها في جنبات نفسي فلم أعثر عليها، يداه بدتا خشنتين بعض الشيء وظهر النمش عليهما، إحدودب ظهره المستقيم قليلاً، وهو يرفع كرشاً كبر بهدوء تحت قميصه البنفسجي الفاتح لونه المفضل.

كان مضطرباً قليلاً وغير مستقر فإستأذن بإشعال سيجارة أعقبتها أخرى ظلت ترتعش بين أصابعه، لم يتفوه بالكثير كعادته مكتفياً بأحاديث في صلب العمل، ثم أطلق بصره يستكشف أثاث غرفة الإستقبال قائلاً:

- لديك ذوق رفيع في إختيار الأثاث.

إبتسمت قبل أن أرد عليه:

- لقد ساعدني مهندس الديكور في ذلك.

- لكن لا أظن أن المهندس قد إختار هذه اللوحات الجميلة والأنتيكات!

بإبتسامة أعرض وأكثر رضا على ملاحظته قلت:

- نعم هذه الأشياء أنا من إختارها وحدي.

- أعرف ذوقك، لست بتائه عنه.

هزتني جملته الأخيرة، كابدت بشدة نزول دموع ما تلبث تحرجني في مواقف كهذه، فبادرت بالقيام لإستعجال رحيمة بصينية الضيافة.

تصدرت أخباري عناوين الصحف والمجلات، وجد معها مدير أعمالي صعوبة في دحضها أو إخفائها بعدما تسربت صورة لي إلتقطها أحدهم دون علمي وأنا على سرير المستشفى موصولة يدي الى سلك المغذي، لم ترق لي الصورة، كنت قد ظهرت فيها بشكل مزرٍ للغاية، الأمر الذي زاد من

حقدي على ذلك المصور وقلة خبرته في إلتقاط صور تشي بمعانٍ أكثر جذباً للقاريء ولفت نظره، حتماً إلتقطها من الزاوية الخطأ، فرميت الجريدة عني مستاءة، لكن ليس بقدر إستياء منذر الذي وبخني حينها على إهتمامي الذي إنحصر على مظهري وتعاسة شكلي في الصورة، دون أن أولي إهتماماً بالخبر الذي إعتلى الصورة، وعدد الإحتمالات والشائعات التي ملأت ما يقارب نصف الجريدة، تكهنات عديدة حول دخولي المستشفى، البعض أشار الى مضاعفات وفشل عملية تجميل، إجهاض حمل خارج خيمة الزواج مع ذكر أسماء لفنانين أصدقاء وشعراء طالتهم الإشاعة بشكل أو بآخر، إلا أن بعضهم كان في حدسه الكثير من الصحة رغم إختلاف الأسباب التي أودت بي الى خيار الإنتحار لإنهاء حياة ترزح تحت وطأة كآبة وإحباط ما بعد عمليات التجميل أو إنتهاء قصة حب كما إعتقدوا، ثمن ضريبة الشهرة ليس بالقليل، وها أنا مستمرة في تسديده.

الحمد لله لم تؤكد الشائعات سبب دخولي المستشفى، كثرتها وتنوعها أفقدها مصداقيتها بين الناس وتناسيهم الأمر بعد فترة وجيزة.

كنت قد أعددت العدة، لم أتوقع أني سأنجو هذه المرة أيضاً، أحقاً يناكفني الموت؟! ولا يجد لي مكاناً في رحلته، إخترت ليلة الخميس بعد أن تركنا الأستوديو، أنا ومدير أعمالي وبعض من طاقم فرقتي الموسيقية، كل شيء بدا بخير وعلى أتم وجه في إتفاق على اللقاء مساء الأحد لإتمام تسجيل بعض المقاطع وتعديلها.

حاولت أن أبدو هادئة مسترخية طوال فترة العمل، كذلك حين وصلت الشقة، أخذت حماماً سريعاً وحبة منوم شديدة المفعول، تكفي لتطيح بفيل

في أقل من ربع ساعة، ثم إستلقيت في سريري بعد أن فتحت أنبوب الغاز في المطبخ مستعينة بفكرة شاهدتها مؤخراً في فلم، غططت في نوم عميق على أمل التحليق والخلاص من أوزاري الأرضية بهدوء، لكن يبدو أن مخرج الفلم لم يكن واقعياً، إذ لم يضع في الحسبان أن يطرق أحدٌ الباب وينزع خطة الموت التي ظننتها محكمة هذه المرة.

لا أعرف ما الذي أتى بمنذر ثانية، ما الموضوع الذي كان مستعجلاً لديه ولا يقبل التأخير حتى الصباح، كانت رائحة الغاز قد تسرب بعض منها الى عتبة الباب الخارجية، فشابه الشك حين لم يُفتح الباب له حتى بعد إصراره على المحاولة والإتصال بي هاتفياً مرات عدة -كما أخبرني لاحقاً-

لم يدر بخلدي أن يقاطع أحدٌ ذلك الموت المنشود، لم أَجِد تفسيراً لكل تلك المحاولات الفاشلة في الرحيل، لماذا يُصعب الموت طريقي إليه!؟

صحوت في المستشفى يملأني الرعب من مواجهة الحياة ثانية، يا الله... يا الله ليس ثانية، ما عدت قادرةً، ما عدت قادرةً يكفي... يكفي ما لقيته.

إنتابتني نوبة هياج عصبي وفزع من مواجهة الألم، لا قدرة لي... لا قدرة لي على معايشة تلك التفاصيل ثانية، الإستغراق في إسترجاعها، كل شيء حولي جلي بأن يذكرني، شديد ما أقاسيه من وجع، لا طاقة لي على المواصلة وفِي روحي هوة كبيرة تستنزفني، فراغ داكن وخواء يلفني، صمت موحش مهيب يتسلل يخنقني، يا الله أغثني، ما كنت أظن يوماً أن الغدر سيطال بنصله أعمق بقعة في روحي، وأن طعم الخيانة مر لا يجاريه أي شيء، أطرافي ترتعش، برد... برد يحتويني بأضلافه الطويلة الحادة، أسقط في جوفي المثقوب، منحدر مفزع يتلقفني يتقاذفني.

أشعر بالبرد... إرتعاش هستيري يثير ريبة الممرضة فتبادر مسرعة الى تغطيتي ومناداة الطبيب الذي طلب منها أن تزرقني بحقنة مهدئة بعد أن قاس نبضي ودرجة الحرارة، خشية من نوبة صرع أو أنهيار عصبي.

طال بقايي في المستشفى ما يقارب ثلاثة أسابيع، حرصاً عليّ من تلك النوبات التي تجتاحني حالما أستفيق وأعي حجم خسائري، قضيت تلك الفترة على الحقن المهدئة في هروب حتمي يمنع إنزلاق عقلي الى إجترار ذكريات تحط على حافته متيقظة ما تبرح تهاجمني حين أستيقظ، تداخلت الأحلام بالحقيقة وتشابكت، فقدت التمييز بين ذلك الفاصل بين الوهم والواقع، إستسلمت لذلك الشعور العائم بينهما، وبت أنا نفسي أطالب الممرضة بتلك الحقن التي بدأت بتخفيفها حسب إرشادات الطبيب، حقاً وجدت الراحة في الهروب، فما جدوى المواجهة والوقوف أمام سيل الذكرى وما تحمله بين طياتها من ألم الغدر والحنين الشديد إليها رغم زيفها وكل الخداع الذي مارسه معي.

لن أصدق أن كل ما عشته معه كان محض سراب، وما تلك القصائد التي أمطرني بها سوى كلمات منمقة لا تحمل من معانيها شيئاً، لا شيء حقيقي... لا شيء، يا ألهي كم هو صعب التعايش مع واقع كان هو فيه من أسباب إستمراري، إفتقدت سطوته وظلاله على حياتي ولوهلة فضلت خداعه وغدره على هجره لي بهذه الطريقة، كنت مشوشة، إضطراب مشاعري وتأرجحها بين رفضه وإحتقاره وبين تداعيي وإنزلاقي الى حنين موجع يقض مضجعي ويفتح الباب لموجات حزن وذكريات تتدفق نحوي بلا تردد، لكني عولت على الزمن في دحضها.

إرتدت ثياباً تتسم بالبساطة والراحة بعد إن إكتفت بمسحة مكياج خفيفة، إستدارت حول نفسها أمام المرآة تتفحص ثنايا جسد قد أرهقه الشد والقص ليبدو فتياً نضراً، سوت الشعر البني المستعار في محاولة لإضفاء الشباب عليها، يجب أن أطمئن على أمي وكرم، مر إسبوعان على غيابي عن البيت، إتمنى أن يسير كل شيء بهدوء، وبحثت بين الأسماء عن رقم هاتف رحيمة، مستفسرة منها عن أحوال الجميع، وحال المنزل الذي تولت العناية به ورعايته ما يقارب خمسة عشر عاماً، فلم تعد تزاول النزول الى أهلها كما السابق خصوصاً بعد وفاة والدتها مكتفية بالذهاب الى إخوتها في الأعياد والمناسبات لقضاء بعض الوقت معهم، أخيراً وجدت رحيمة ضالتها في بيت تكون فيه الأم والأخت والجدة، بعدما عز عليها الزواج من رجل يحفظ كرامتها التي هدرت على يد زوجات إخوتها وتعاملهن القاسي الذي تبدل الى طمع حين أمسكت مقاليد كل الأمور المتعلقة بمنزلي، فرحيمة أمرأة من زمن آخر، لم تلوث ماديات الحياة ومصاعبها من روحها النقية، وجهها بشوش على الدوام، لا تتفوه إلا بكلمات تبعث على الشعور بالراحة والإيجابية، يشع من عينيها هدوء ورضا بعدل الله وحكمته، لم تتأفف يوماً على واقعها وقسمتها الضيزى بحياة تحت كنف أم عاجزة وأخوة كل همهم توفير لقمة العيش لأفواه تتزايد بإضطراد مع الفقر.

وجهها يميل للإستدارة بلون سنابل القمح مشرق، تلفه بشال أسود أغلب الأوقات، تظهر أحياناً من بين جنباته خصل شعر ناعم داومت الحناء على صبغه ودمغه بلونها رغم زحف الشيب الذي توقف تقدمه بخلطات ومواد يصفها العطار لها في إصرار كبير على دحض مقولة لا يصلح العطار ما أفسده الدهر، متوسطة الطول والوزن، تترك لشهيتها أن تخرج عن عقالها

فتطبخ في بعض الأحيان أكلات مغمسة بالدسم، وهي تتمتم مستنكرة على قواعد الصحة كل هذه الضوابط والقيود التي لم يلتزم بها أسلافنا رغم ما كانوا يتمتعون به من صحة وطول عمر، فلا أملك إلا أن أشاركها الرأي والطبخة الدسمة لأرزح بعدها تحت وطأة لوم وتأنيب نفسي على شراهة شهية ألجمها عدة أيام كنوع من العقوبة والتخفيف عن ضمير مثقل.

شهدت رحيمة كل آلامي وعذاباتي دون أن تضايقني بفضول أسئلتها ولو بنظرة إستفسار، كانت تحترم خصوصية من حولها وتوجد لكل شخص المبررات والحجج بإسلوبها العفوي، لكني عمدت الى إحراجها مرة حين واجهتها بما فعله صلاح معي، وهل وجدت له بدورها أية مبررات أو ذرائع مقنعة! كان يضايقني أسلوبها هذا، فأقول لها نحن لسنا في الجنة، ومن حولك ليسوا بأولياء أو ملائكة، إلا أني بالمطلق أطمئن لحسن سريرتها وطيبة قلبها.

آزرتني في مرات عدة دون أن تطالب بتوضيح ما يحيط بي من إشاعات وتقولات تشاهدها على شاشة التلفاز أو تقرأها في الصحف.

ربتت على كتفي مطيبة، عندما عدت غاضبة حانقة، وقد تفجرت عيناي بدموع حارة حاقدة، من دار الأيتام تلاحقني كلمات مديرتها المتهكمة الساخرة من طلبي بالتبني، وهي تردد بنبرة هادئة: ربنا يرزقك، ويعطيك مرادك، فإرادة الله أكبر.

كفكفت دمعي على أمل أن يسمع الله نداءها حتى لو صم أذنيه عن دعائي، فأنا لا شعورياً أثق بأنها واحدة من أحباب الله.

جاءتني بعد سنوات من هذا الحادث تحمل بين ذراعيها مولوداً صغيراً لم يتجاوز عمره ثلاثة أشهر وهي تقول بإنشراح: هذا الولد لك.

لم أتحمس بالبداية لهذه الفكرة التي باغتتني بها على حين غرة، فلم أتمالك نفسي عن السؤال: أهو أبن حرام أم ...

فأجابت بنبرة هادئة لكن معاتبة: وهل يغير هذا في قبولك به وتقبلك له؟!

شعرت بالإرتباك من سؤالها، فتلعثمت وفقدت تركيزي على تصويب ما أودّ قوله، فبقيت صامتة، أنظر الى الصغير غافياً في لفافته البيضاء. أحست هي بصعوبة موقفي فتداركتني قائلة: ما كنت أظن أن من أكتوى من الناس، يفكر بطريقتهم، ما ذنبه إن كان إبن حرام؟ ما جريمته يا ست غفران؟!

وعادت بأدراجها منسحبة لتضعني أمام نفسي وما يخالها من تناقضات قد تجذرت فيها، رغم ما أبديته من رفض لكثير من تلك المعتقدات والتقاليد الجامدة، ها أنا ألوذ بها طارحة عني كل ما حاربت لأجله، كلماتها القليلة جعلتني أدرك كم أنا مرائية أنانية لا أطلب من الآخر سوى أن يتفهم قضيتي ويمنحني تقبله، بالمقابل لا أمنح الآخر تلك الفرصة، وأخسر في أول إختبار أوضع فيه على يد رحيمة التي خرجت بالطفل وعادت بعد ساعتين دونه، وأنا جالسة إنتظر قدومها وبعض التفاصيل عنه التي شحت بها مقتصدة وهي تقول: راح الولد لصاحبة النصيب.

حينها شعرت بالضيق من إنسانيتي التي سقط قناعها مع أول تجربة في قبول الآخر، وإحترام ظرفه، حقاً أحسست بالعار مما أنا فيه... ماهرة أنت في التنظير وفاشلة في التطبيق... لا لست كذلك... وماذا تطلقين على فعلتك هذه؟ لا تصمتي هيا أجيبي...أنا في طور التفكير لم أرفض بعد، هي إستعجلت، لم تفهمني جيداً... بل تفهمت سلوكك، ولم تود إحراجك

أكثر... لا بل إستعجلت في فهمي... لا أظن، رحيمة لا تخطيء في فهمك، هي فقط حاولت تجنيبك مواجهة نظرياتك وتشدقك في نبذ التمييز بكل أصنافه، وإضفاء صفة الإنسانية على أحكامنا، خاب ظنها فيك للأسف هاهاهاها... لا تبالغي رجاءً.

تنبهت من شرودها وأعادت الهاتف الى حقيبة يدها، بعد تفحصه ونفث خيبة أمل عن صدرها، ماذا تريدين منه؟ تعقلي يا إمرأة، لا تجازفي بكل شيء... هي حياتي الخاصة ولا أحد له شأن بها... حياة الفنان ملك لمحبيه ومتابعيه، فلا توهمي نفسك... وأنا لا أفعل شيئاً يسيء لهم أو لفني... أظنك تجازفين للغاية بكل ما حولك في ذلك الخيار... هو ليس بخيار... ماذا إذن؟ أجيبي، ماذا تسميه؟! هيا أجيبي...

- بكم علبة السكائر هذه؟

- ١٠ ليرة.

- واحدة من فضلك.

ونفثت دخان سيجارتها بعد أن أخذت منها نفساً عميقاً في هروب يتقنه المدخنون ويمسي مع الوقت الحل لأغلب مشاكلهم.

توقفي عن الإلحاح، لست أعلم، أنا في دوامة، لا أعرف أي طريق أسلك! ضائعة حقاً، فلا تصبي نارك على زيتي، ليتني أستطيع تركك أنت أيضاً مع رحيمة...

كنت أظن أني قد توصلت الى قرار نهائي يكفل لكلينا القناعة بالإبتعاد والتسليم بما يفرضه الواقع، فخلت لوهلة أني سأنعم بعده بهدوء وسكينة مرتقبة حتى تلك الليلة حين شعرت بإحتقان في حنجرتي، دوار وصداع

يدق نصله عميقاً في رأسي، ففقدت رباطة جأشي وأنا أشاهد معجباته من الفتيات يلتففن حوله طلباً في توقيع أو أخذ صورة (سلفي) معه حالما إنتهت حفلتي الغنائية، لم أعرف ماذا جرى لي بالضبط؟! وكيف أفسر ما أصابني من توتر وضيق خشيت أن يلحظه بقية أفراد الفرقة الموسيقية التي يتفردها حسن بعزفه على آلة السكسفون.

لم أستطع تمالك نفسي، حريق ألَمَ بي ونشب بين ضلوعي... نار الغيرة تلك... لا، ليس من غيرة، فقد عزمت أمري على التخلي عنـ.. لا يحق لي أن أغار، ومع ذلك إستعجلت الفرقة بالمغادرة على أمل أن يلحقنا كالعادة، لكنه إنشغل بمعجباته كنوع من التعويض، فغادرنا دونه ولم أتذكر بعدها سوى أني إستفقت في غرفة الطوارئ.

شخص الطبيب حالتي بإنخفاض ضغط الدم المتكرر أثر إجهاد الحفلة وعدم إلتزامي بوجبات أكل منتظمة تضمن الحفاظ على طاقتي وسلامتي البدنية.

كان مستنداً الى الكرسي وقد بانت عليه ملامح الندم والضيق، وحالما لمحني أفتح عينيّ نهض إليّ وأمسك بيدي التي بدت ضعيفة ترتجف بين يديه، فسحبتها ببطء خجلة وهو يقول بصوت خافت وعينين محمرتين: آسف حبيبتي.

أشحت بوجهي عنه، إلا أن قلبي خفق لوقع عبارته في تحدٍ بالغ لمفاهيم العقل المحكومة بالعادات والتقاليد.

١٢

إدراك الفارق بيني وبين شقيقتي أفنان ما كان واضحاً، لاسيما وأني قد شاركتها معظم ألعابها وأشياءها الى أن جلست على ذلك الكرسي المرتفع بعد أن أعانني والدي على الجلوس عليه دون أن أعرف السبب الحقيقي لدخولنا ذلك المحل الضيق المنخفض السقف والذي تتربع جداره مرآة كبيرة تمتد على عرضه تقريباً وكرسيين جلديين شحب لونهما الأسود وتشقق جلدهما، لم أفهم ما يجري حولي حين لف ذلك الرجل حول رقبتي قطعة من القماش إلا بعدما لمحت خصلة من شعري تتدلى من يده الثخينة بمحبسها الفضي النافر الى الأرض، ذعرت وبكيت، حاولت النهوض من الكرسي، لكن أبي منعني وهو يمسك بي من كتفيْ حتى إنتهى الحلاق من عمله.

ملأني شعور غامر بالحزن على ذلك الصبي الذي إنكمش على نفسه أمامي في المرآة. تلألأت عينا أمي بالدمع عندما أقبلت عليها حسير الرأس محمر الجفون، ينوء صدري الصغير بكلمات أبي وتشجعيه لي على شكلي الجديد.

لم أتمالك نفسي من البكاء ثانية وأمي تصب الماء عليّ في الحمام، وتحاول إقناعي بأن ذلك الشعر ما عاد يليق بولد مقبل على المدرسة، فسألتها بحنق عن مصير ضفيرة أفنان التي وصلت الى خصرها، لم تحبس ضحكتها وهي ترد عليّ: هي فتاة وأنت صبي. عندها شعرت بالغبن والحيرة من هذه التقسيمات والتصنيفات، كيف لهم أن يحددوا فينا من الصبي ومن البنت؟!

ولماذا إختارتني أمي أن أكون الصبي وحدي، لأجرد من شعري كمكافأة على منصب الذكورة.

بت أكثر إرتياحاً وأقل حرجاً في الظهور أمام العامة بمظهري الجديد الذي جاء كنتيجة مؤكدة لجلسات العلاج النفسي الكثيفة، رغم أن الصوت لا يزال يلاحقني ويكدر عليّ عار، كافر، اللعنة عليك، عار، عاررررر، أقر أن حالتي النفسية تتراجع أحياناً فتلازمني الكآبة والإحباط أياماً أغلق فيها على نفسي، لكني أعاود النهوض كمحارب قديم لا يكل من الفشل ولا تثنيه الخسارة عن بلوغ غايته. مع العلاج الهرموني تحددت هويتي أكثر وبانت تفاصيلي الجسمانية بشكل أكثر ثقة ووضوحاً، تعرب عما حاربت لأجله ونبذتُ.

نلت ثقة طبيبي النفسي، وأصبح متأكداً من تشخيص حالتي وتثبيتها في تقريره الطبي الخاص بي، مفيداً بحاجتي الماسة لإجراء العمليات اللازمة لأكون أنا في جسدي أنا، لا طارئاً غريباً على جسم لم آلفه رغم كل محاولاتي، وما سببته لمن حولي من شعور بالألم والخزي والعار، وعلى الأخص أبي الذي قتلته الحسرة على ولده الوحيد وخليفته فيما ترك له أبوه وجده من إرث ومسؤولية حمل إسم النساج حتى آخر الدهر.

حاولت مراراً إخباره بما أشعر به وبرغبتي الشديدة في العلاج، لكن في كل مرة تخذلني نفسي ولا يطاوعها أن ترى ما سيرتسم على ملامحه من ذهول وإنفعال، فألزم الصمت وفِي داخلي بركان موقوت، وأحياناً تشد من عزيمتي كي أذهب إليه في المعمل وأخبره بما يحاصرني من ألم يقض مضجعي ويجثم على صدري، فأتراجع وكلي شفقةٌ عليه وهو الذي أفنى شبابه في

معمل أبيه لأجل أن يسلمه هو الآخر الى إبنه، ماذا أقول لك أبي وقد شاب شعرك وحلت غمائم بيضاء على ليله، مضى الزمن سريعاً تاركاً آثاره عليك، تغضن جلد يديك وبرزت عروقها، إحدودب كتفاك وإنحنيا بعد أن كانت قامتك مثار إعجابي وشدوي، تباطأت مشيتك وتراخت وعم هدوء محبب وقور على أحاديثك ونبرة صوتك، وتلك الإبتسامة التي تلمع في عينيك حين تلمحني قادماً، فما عساني أخبرك؟!

عدت من تركيا بعد أن أمضيت فيها سنة وعدة شهور هرباً من حرب الخليج وكل ما رافقها من مداخلات وإضطرابات سادت البلد، لازمتني كآبة حادة وإحباط شديد مربك في تحديد هويتي أو الإفصاح عن كل تلك الرغبات والهواجس، شعرت بالقرف مني، فزهدت في الخروج والإلتقاء بالأصدقاء، حابساً نفسي معظم الوقت في غرفتي نائماً متكاسلاً حتى عن الذهاب الى الحمام للإستحمام، لم تنفع توسلات أمي، ومواعظها وكل تمائمها في إخراجي من قتامة تزداد وطأتها عليّ، مثلما لم يفلح إستنجادها بفاروق كي يروح عني، فباتت الساعات طويلة والأيام مفزعة مستفزة الى حد التفكير بإنهائها والتخلي عما أنا فيه من خواء، إلا أن الرصاصة طاشت عن مسارها بعد أن إرتجفت يدي فأحدثت جرحاً مفزعاً أسفل ذقني، جعلني أغرق في بركة دم مغشياً عليّ.

تماثلت للشفاء ظاهرياً لأجل أبي وأمي اللذين تكدرا وساءت أحوالهما بسبب ما أقدمت عليه، لكن تلك الوساوس ظلت تنخر في روحي، فهزلت صحتي وشحب وجهي رغم ما تكابده أمي كل يوم في تدليلي وإطعامي كطفل صغير.

زارني الأصدقاء دون أن يتطرقوا الى سؤالي عن السبب، معظمهم ظن بما فيهم فاروق أن حساسيتي المفرطة لم تستوعب معاناة الوطن وإخفاقاته المتلاحقة، والبعض أرخى لخياله تأليف قصة حب فاشلة بطلتها فتاة تركية سددت ضربة قوية الى قلبي، فصمت مؤكداً لهم ظنونهم بعد أن لمحت في عيونهم الشفقة على صديقهم المدلل وحيد أهله، وصغيرهم بعد أربع إناث لن تحمل أيٌّ منهن أعباء الحفاظ على ديمومة بيت النساج، فكان فرحهم كبيراً وسعادتهم غامرة حين أبديت رغبتي بالزواج من ثريا، فعجلوا في الخطبة ولبس الخواتم.

يا الله كم شعرت بالقنوط، والغضب، ضاقت عليّ المكان، سقط السقف على رأسي، أوشكت أن أتجشأ قلبي وألفظه ألماً وحسرةً.

لا أدري أي قوة دفعتني الى الزواج منها، وأي قربان قدمتُ؟!... أنا أم هي؟

كشفت لي مدينة غازي عنتاب الكثير من جمالها الأصيل، أسواقها الشعبية المكتظة، طرقها الفرعية المتشابكة، دكاكينها الصغيرة المتلاصقة، أصحاب الحرف اليدوية. إستهوتني المدينة بطابعها الشرقي الموغل في تاريخ إسلامي عميق باد على مظاهرها، الأمر الذي خفف من شعوري بالغربة والإنزواء، فأمسى التجول بين أنحائها وإكتشاف خباياها شغفاً يحثني على النهوض كل يوم من الفراش في رغبة غريبة لتأمل المارة وأنا أجلس داخل المقهى الشعبي أرتشف الشاي الساخن، أشارك كبار السن هدوءهم المتوجس، وأياديهم المعرورقة وهي تدور بملعقة صغيرة في قدح الشاي،

أصغي بحب الى الأغاني التركية القديمة والتراثية الهادرة من مذياع كبير خشبي بأزرار ناتئة، يشبه التلفاز من حيث الحجم، يتوسط أحد أركان المقهى بوقار وهيبة لا تقل عن روادها ومالكه الذي يتصدر بطاولتة الخشبية المنقوشة، صوراً فوتغرافية عديدة لأجداده وذويه الذين قضوا حياتهم على أرائك هذا المقهى وكراسيه، معلقة خلفه على حائط شاحب اللون عتيق بمسامير صدئت وخيوط أتعبها العمر وأهزلها حمل تلك الصور بأصحابها الذين بهتت ملامحهم وما عاد يجمعهم سوى الصلع الذي إتسع نطاقه ليشمل كل الرؤوس بما فيهم مالكها الحالي الشيخ ريدوان الذي إستطعت تمييزه بعد جهد في إحدى الصور حين كان شاباً يافعاً من الإبتسامة البشوشة ذاتها وهي تطفو على فم عريض بشارب كث يمتد نازلاً حتى الذقن من الطرفين في شبه كبير للولاة العثمانين الذين سبق أن رأيت صورهم في كتب التاريخ المدرسية، ولطالما تساءلت مع نفسي ما الذي ينتظره حتى يعلق صورته الشخصية هو الآخر كسائر من سبقه على ذلك الحائط التاريخي، وإكتفى بصورة جماعية مع رجلين كهلين، أحدهما على ما يبدو من الشبه جده.

حتمت جلسته المواجهة الى باب المقهى، أن يستقبل جميع زبائنه بتلك الإبتسامة دون نقص أو مواربة، الذين يأتونه من كل حدب، بعضهم أصدقاؤه والكثير منهم جذبتهم إليه حسن الضيافة والروائح المنبعثة لأصناف الشاي بمذاقاته المختلفة، شاي بالهال، وشاي بالنعناع، وآخر بالليمون والزنجبيل أو الزعتر، كذلك توجد مذاقات أخرى بمواد عطرية وزهور جافة جمعت في قناني زجاجية شفافة مرصوصة على رفوف خشبية تزين المكان، وتعطيه طابعاً أليفاً دافئاً ككل شيء فيه من طاولات مستديرة

صغيرة، وكراسي بطراز فلكلوري مع أرائك بأغطية صوفية حمراء منقوشة بزخارف نباتية وزهور... كم سحرني ذلك المكان حتى بات ملجئي ومحراباً لروح متقيحة بالتناقضات والألم.

مع التغييرات التي طرأت عليّ وعلى مظهري، أمسى صديقي لي شن أكثر تحفظاً معي مما في السابق، هو الآخر أدرك أني أصبحت إمرأة حقيقية يخشى مزاحها بخشونة، ويراعي رقة أحاسيسها ودقة وضعها، حتى بت أخشى أن نفقد روابط الصداقة التي جمعتنا وما تتيحه من صدق وسلاسة في التعامل دون أدنى تكلف، فصارحته بمخاوفي هذه التي قابلها بضحكة عريضة رغم حمرة الخجل التي إصطبغت بها وجنتاه، مؤكداً أننا سنبقى أصدقاء رغم أنه يجد صعوبة في مصادقة إمرأة بهذا الجمال والجاذبية، فأحسست بالإرباك حين لمحت في عينيه نظرة إعجاب أكدت مغزى وصدق كلماته، وأكمل مازحاً: لا عليك صديقتي... سأتدبر الأمر.

وقمنا بجولة قرابة نصف ساعة مشياً على الأقدام رغم ما سببه لي الكعب العالي من ضيق وألم في قدميّ لم أعهده من قبل، حتى توقفنا عند أحد المطاعم التي تقدم الأكلات البحرية والأسماك، فكافأت نفسي بسمكة كارب طلبت شيها بطريقة مشابهة الى حد ما من طريقتنا العراقية.

بتلك البشرة البرونزية والعينين الزرقاوين المطلتين على ملامح وتقاسيم وجه لا مكان فيه لأي عيب أو نقيصة، كانت تقف عند باب المطعم، عرضت عليّ الدخول وتجربة طعامهم، ترددت في أول الأمر، فقد إعتدت

الأكل في مطعم آخر يقدم أصنافاً قريبة من أكلاتنا العراقية، إلا أني خجلت أن أتغاضى عن دعوتها وإكمال سيري بين تلك الطرق المعبدة بصخور مقطوعة تختلف في أشكالها وأحجامها، تهب السوق بعداً تاريخياً وأصالة حافظ عليها منذ قرون.

ولجت من باب خشبي مقوس، بمسامير ناتئة كبيرة معدنية توزعت على جسده، وإكتظت في قلبه، لوهلة أشفقت عليه، وحقدت على صانعه، المكان صغير يحمل طابع البيت أكثر من كونه مطعماً، يشعرك بالألفة والحنين الى شيء غامض حزين، يستحث الذاكرة على تقليب أروقتها الخاملة، ومع ذلك لم أفلح مرة في معرفة كنه ذلك الشعور أو أسباب بواعثه.

كل ركن في المطعم يبعث على الراحة والدفء، ديكور منزلي بإمتياز، بصماتهن واضحة لا مجال للشك على الوسائد الصغيرة المطرزة باليد، وكل المفروشات الصوفية المحاكة، أشكال الأواني والأقداح كل شيء يشي بأنوثة المطعم المفرطة حتى طبيعة الأكلات المقدمة وطريقة إعدادها وتقديمها، راق لي المكان وذلك الهدوء الجميل الذي يفرض على الزبائن الإصغاء لروحه وتلمس ذرات الضوء المنسابة عبر نوافذ مقوسة مرتفعة طويلة بطراز إسلامي وزجاج ملون تضفي عليه الإمتداد والسعة.

تكرر ذهابي الى المطعم، وتشكلت صلات صداقة مع صاحبة المطعم وصديقتها وإبنتها الشابة التي يأخذ جمالها بلب كل قادم، حتى أكاد أجزم أن بعضهم يأتي ليشبع عينيه ببديع صنع الله وقدرته قبل معدته، رغم أن ما يقدمه المطعم من خدمات ضيافة وأكلات هي بالفعل ممتازة، لكن أوزلام تهب له حضوره الساحر وتميزه الفريد.

إستطاعت وجدان فرضه على والديّ والقبول به صهراً لهما رغم الإعتراضات الكثيرة بشأنه، وما شاب سمعته من تقولات وإشاعات عملت وجدان على تفنيدها أمام أمي التي إقتنعت أو بالأحرى رضخت لمطالب إبنتها الكبيرة على أمل أن الزواج والمسؤولية سيقومان سلوك شهاب، فعمل هو جاهداً على التقرب من أبي وعمله بعدما تضرعت وجدان ثانية الى أمي لأجل تشغيل زوجها في المعمل، فكان كالأخطبوط نهماً نشطاً، تشرب أسرار العمل، وكل ما يتعلق به من متطلبات وعلاقات، أكاد أن أضحك وأنا أصفها باللوجستية، حتى بات ملماً بكل صغيرة وكبيرة، فأزاح من الحمل كثيره عن أبي، الذي تخلى عن تعامله المتحفظ وشكوكه إزاءه، معتبراً إياه فرداً من العائلة بعد أن أثبت ولاءه وأمانته لأبي.

لا أعلم متى وكيف حملت وجدان شقيقاتي على بيع حصصهن في المعمل الذي قل مدخوله بسبب سنوات الحصار وشحة الطلب على السجاد والمنسوجات الجديدة لبيوت هي نفسها كادت تفرغ من أثاثها لأجل لقمة العيش، فبعن بثمن بخس إرث العائلة وإسم النساج وأولاده، الذي ظل المعمل يرفعه منذ سبعين عاماً الى أن جاء زوج وجدان معدلاً عليه مضيفاً شركاءه بدلاً عن أولاده في وقاحة سافرة ولؤم بغيض كان قد إعتمل في قلبه ففاض حقداً.

لكن يبقى الأدهى والأمر تلك الرسالة التي بعثت بها وجدان إليّ تقايضني فيها على بيع حصتي، في ترغيب وترهيب غبي ليس من العجيب أن يبدر منها، رسالة طويلة، متضاربة الرؤى والحجج، تيقنت للغاية من مدى خبث وطمع صاحبتها التي تجرأت بمساومتي على الإعتناء بإمنا ورعايتها بعد أن أمست وحيدة إلا من ذكريات تضج بعقلها فتملأ عليها سكون البيت الذي

خبا صخبه وأصحابه، مقابل موافقتي على البيع، وكيف نقلت لي خبر تعديل إسم المعمل بتهكم بالغ وهي تقول: ما عاد من أبناء للنساج.

أصابني سهم حقدها في مقتل، فآثرت الصمت وعدم الرد عليها بأي جواب، الأمر الذي أثار عدوانيتها وشتائمها تجاهي برسالة تلو الأخرى رميت جميعها في سلة المهملات، ومن ثم قمت بتغيير عنواني حتى لا يصلني زعيف سمها، فحمّلت ألحان وابل سخطها وسليط لسانها على أمل إستثارتي والإستسلام لرغبتها في بيع آخر حصة للنساج في معمله.

حبها لشهاب جعلته يبالغ في فرض سطوته عليها وتسييرها وفق ما يخدم مصلحته، ففعلت كل ما بوسعها لأجله، إيماناً منها أن حبهما يستحق أن يعلو ويرتفع ولو على رؤوس بيت النساج أجمعين.

كان أداء مهام الزوج وواجباته أمراً صعباً أخذ يتفاقم تأثيره على نفسيتي مرة تلو مرة ويوماً إثر يوم، كنت أدرك تماماً ما أنا مقدم عليه من إنتحار حقيقي وموت بطيء، إلا أني تغاضيت عن كل تلك الحقائق دافعاً بي وبثريا الى فخ الزواج والأسرة الذي أثمر ضحية أخرى بعد سنة، فأصبحت أباً لطفلة لم أشعر تجاهها بالأبوة، مزيج مشاعر مختلطة متداخلة، توقفت أمام نفسي مراراً لأجل معرفة وتفسير ما أكون بالنسبة لإبنتي، أبوها؟! لم أشعر بذلك رغم محاولاتي العديدة في إستنهاضه، بالطبع أنا لا أشكك بحبي لإبنتي مرة، لكني لم أمنحها الذي تحتاجه من أب حقيقي، فتهربت منها ومن ثريا مبتعداً بذرائع عدة، لمستها هي بغريزتها الأنثوية معاتبة لائمة في مرات عدة، خاصة بعد أن توظفت في شركة تضمن بقائي خارج البيت أوقاتاً طويلة، الأمر ذاته ضايق أبي للغاية بعد أن كان متحمساً لعملي معه في

المعمل، لكنه صابر وتصبر على حماقاتي آملاً في رجوعي الى رشدي بعد أن يأخذ بي التعب والملل من ذلك العمل وساعاته الطويلة المرهقة.

أطفأت إبنتي الشمعة الأولى من عمرها ولم أكن حاضراً أو مبالياً لتلك الأشهر التي مضت وأنا بعيد عنها متباعد رغم أنها لا تضيع فرصة في الحبو نحوي، رافعة يديها الصغيرتين بغبطة طفولية، وطلب في حملها بين ذراعيّ وهي ما تفتأ تتأتأ با با... با با... با با.

لا أستحق ذلك الجمال الذي تتلون به عيناها عندما تلمحني عند الباب قادماً، ألم يثقل صدري ويشتت تركيزي فأعاود الهرب أكثر، لا أستطيع النظر في تلك العينين البريئتين، وأنا لا أعرف ما أكون بالنسبة لها، بابا الذي تغمغم به أم مسخاً بلا هوية؟ فباعدت أيام النزول الى البيت بعد أن إنتقلت الى فرع الشركة في الناصرية، لم تعلق ثريا على ذلك بل ظلت واجمة صامتة، إكتفت بعينيها رسولاً بليغاً لكل ما أرادت قوله، فإدعيت عدم الفهم متغاضياً عن بوادر ثورة تعتمل في ذهنها، أكاد أحس بأزوف إندلاعها في كل مرة تحاول التقرب فيها مني وإستدراك مكنوناتي، فألتجئ الى حافة السرير مبتعداً بظهري عنها.

أدرك جيداً قبح وفضاضة ما أفعله معها لكني لا أملك من نفسي شيئاً، ليتني أموت، أختنق بألمي وعذابي، أتلاشى كأني لم أكن يوماً، ليتني وليتني... سامحيني ثريا لا تستحقين ما لقيته مني من صد وهجران، لست بالزوج والأب اللذين تفخران به... آسف حقاً.

كم من مرة تقول فيها آسف وتعتذر طالباً الصفح؟! لا أظن أن أحداً سيغفر لك، لا أظن أن العار الذي جلبته لهم يغتفر، لا أظن!... إخرسي،

إخرسي ليس اليوم، ليس اليوم. وصم أذنيه بقوة واضعاً رأسه بين فخذين أكمل قبل أيام جلسة الليزر للتخلص من بقايا زغب الشعر العالق بهما.

مع مساعدة صديقي لي شن الذي عرض خدماته في تعريفي بالطرق الأساسية في فن المكياج والتبرج بات الأمر أقل صعوبة وتحدٍ مما كان في السابق، مستحضرات كثيرة متنوعة لا أجيد فهمها أو التعامل معها دون دراية وخبرة لي شن التي يسرت عليّ الأمر في إنتقاء ما يلائم طبيعة بشرتي ولونها آخذاً بالإعتبار كذلك الأنواع السهلة الوضع والتي لا تحتاج الى خبرة ومهارة عالية.

في الماضي كان يروقني الجلوس والتحديق في شقيقاتي وهن يتزين، وكنت لا أمل من مشاركة أفنان في وضع أحمر شفاهها العطري المذاق، فتظل تضحك معجبة بالنتيجة التي أبدو عليها بعد تجربة مساحيق تجميلها لتبادرني بالقول: حمداً لله أنك لست بنتاً، الجملة التي تكررت على مسامعي في مناسبات شتى، لكنت سرقت الأنظار والخطاب من شقيقاتك، فحمداً للرب، وإلا فستكون نداً قوياً لوجدان التي تظن أن لا واحدة تضاهي جمالها هاهاهاها.

تمتعت أفنان بروح دعابة وحس فكاهة أضفيا جاذبية وتميزاً على شخصيتها التي سحرت بها من حولها فكانت صديقتي وشقيقتي الأقرب... التي حطمت حياتها حين تلاعبت بخطيبها وسقته خلفك... كانت لحظات عابرة ليس إلا... ما من داعٍ للكذب! نحن وحدنا، هل تنكر أنك حاولت إستدراجه وإستمالته؟!... أنا فقط، فقط، أردت أن أجرب، أختبر ذلك الشعور، وددت أن أتبين هويتي، لم تكن سوى قبلة عابرة إستوقفت طريقها أفنان حين فاجأتنا... لا تنكر أنك قد أغويته وراودته...

لم أخطط لذلك أبداً، كل شيء حدث بسرعة حين غمرتنا تلك القبلة، كنت مراهقاً أبحث عن هويتي الحقيقية... ألم تجد سوى خطيب أختك طعماً لتجربتك؟ يالك من نذل!... هو من إندفع نحوي منتهزاً فرصة غياب الجميع، كان يدرك ما هو قادم عليه، هو من إستغل الفرصة لا أنا... لكن أنت سايرته ولم تبدِ أي تمنع!... نعم جاريت تلك الرغبة التي قدحت في عينيه لأكتشف من أنا؟ من أكون؟ أنا فقط أمطت اللثام عن ميوله، وجب على أفنان أن تشكرني... لا تكن وغداً! فقد خيبت أملها في أخيها وحبيبها... الحقيقة أفضل مهما كانت قاسية، ما لها بهذا الحبيب، بشبقية مشبوهة منحرفة!... لا أبرر لنفسي ما إقترفته من خطيئة، لكن بواعثي كانت مختلفة للغاية عن بواعثه، والذي أرجوه هو غفرانها وصفحها عني... هربت الى غرفتها مذهولة مغلقة عليها الباب الذي لم يفتح إلا بعدما تماثلت قليلاً الى الشفاء ولملمت كل الهدايا والأشياء الخاصة بزواجهما المزمع، لأجل فسخه... لم تكلمني من حينها ولم ترد عليّ بعدما حاولت جاهداً شرح وتفسير ما حدث... لقد أبصرت بعينيها إنغماسكما في تلك القبلة اللعينة، وشراهة جسدين فاحشين، فماذا كنت تقول لها؟!... لقد أخذني على حين غرة، لم أتوقع إندفاعه نحوي بذلك النهم، فحبست أنفاسي وإستسلمت مغتنماً الفرصة في إيجاد جواب أمسى سؤاله يشقيني ويحيرني بشدة... وهل توصلت الى الجواب؟ أي أناني قذر هو أنت!

تتمايل بخصرها، يشتعل المكان، يهتز بطنها ويرتعش بإنقباض متقن متناغم مع إيقاع طبلته، تغدو وتجيء على المسرح بإبتسامتها اللطيفة وقدها الأبنوسي الخلاب فتدير الرؤوس وتذهب العقول، يتناثر شعرها الطويل

الأشقر حولها كغجرية ملتهبة، تتهادى في حركة يديها وتموجات جسدها بإنتشاء كامل مع الموسيقى في لوحة إستعراضية مبهرة، ترقص على النغمات عاليها وواطئها، تتحكم في كل عضلة من جسمها بتفرد مدهش مغرٍ يشدك الى النظر، وحبس الأنفاس دون التكهن بالحركة التالية، فتستلب مداركك وأحاسيسك بلا تمهل أو إنتظار، لا شيء يطغى على سحرها وما أنغام الموسيقى وصوت الطبلة المتصاعد سوى كومبارس يتضاءل مع وقع خطواتها تتقطع أنفاسه ملاحقاً خفة حركاتها ورشاقتها.

تنهي وصلتها الراقصة دون أن ترف جفون زبائن النادي، وتحت وطء الدهشة وإبهارها تختفي ليالي بفستانها الراقص الزمردي اللون كحورية بحر يصعب نوالها، في الأشهر الأولى من قدومها لم يسمح لها صاحب النادي بالنزول الى الزبائن بعد إنهاء وصلتها الراقصة، حتى باتت مطلباً صعباً وغاية أغلب الزبائن وسبباً في إستمرارية قدومهم، توسله المتنفذون المتخمة جيوبهم، إرتفع سعرها أكثر مما توقع المالك، لكنه تريث في العروض المقدمة إليه، مما زاد في سحرها وسعرها، وظل يعزف على وتر الممنوع مرغوب حتى نال مراده هو والزبون الذي أغدق في عطائه، وبعدها بدأ سعر ليالي بالتناقص وبات متاحاً لذوي الدخل المتوسط، ونزعت عنها هالة الحورية رغم أنها لا تزال على المسرح الحورية التي تشد خيال الرجال وتثير فيهم أقوى النزعات وأشدها، جمال صاف كمنبع نهر، أنوثة متدفقة تحمل بين طياتها الدفء وعذوبة زمن مضى وأحلام عتيقة نامت في مهدها، كل من جالسها شعر بمغناطيسية تشده نحوها، نبرة صوتها ولغتها الهجينة بين العربية والتركية تغري الآخر بالإستماع والإنصات، دعاها ذات مرة أحد الأصدقاء الى طاولتنا، لم تشرب إلا القليل، أكاد أجزم أن الكأس هو من إنتشى بين يديها العاجيتين وفمها الشهي.

إلتزمت الصمت من بين الجلوس مكتفياً بإختلاس النظر الى جمال أبدع الله في صنعه، ويبدو أنها قد لاحظت ذلك فرمقتني بنظرة حرت في تفسيرها، تودد إليها الأصدقاء طمعاً ورغبة في إنثى لا تستوعبها حتى أحلامهم، كل خطيئتها أن والدها التركي قد غرر بأمها العاملة الفقيرة من أصول عربية وهرب من مسؤولياته تجاهها بعدما كبر بطنها.

قصة تتكرر، ضحايا لا حصر لآلامهم وشقائهم، وليالي لن تكون الأخيرة فيهم حتى بعد أن أصبحت راقصة النادي الأولى والأعلى أجراً والأكثر إقبالاً، مما أثار حفيظة إحدى الراقصات وحسدها، فوشت بها الى زوجة مالك النادي وعلاقته السرية بليالي وتفضيله لها على الأخريات، الأمر الذي تسبب بنزاعات مستمرة بينه وبين زوجته التي إمتدت يدها لتطال ليالي بشكل بغيض قاسٍ حين وظفت طبال الفرقة الموسيقية لأجل التغرير بها، وإستمالتها اليه بطرق مختلفة، لم يكن الحب والتعاطف إلا إحداها، فإنزلقت ليالي في براثين ذلك الرجل الذي مثل دور الحامي والمنقذ لها من حياة الملاهي والليل، ووضعت بين يديه كل ليرة جنتها على أمل أن يشتريا شقة لهما، كان هو السبب في إدمانها على العقاقير المهدئة التي جعلتها تتهاون في أدائها على المسرح، فتباطأت في حركتها وثقلت الى الحد الذي أصاب الزبائن بالملل والرفض لوصلتها، فقضت معظم الوقت راقدة في فراشها نحيلة خدرة، وهنت عضلاتها وشحب وجهها، إنحسرت ملامح ذلك الجمال الساحر، وباتت مثار قرف وإشمئزاز بعضهم وشفقة الآخر وحمله على مساعدتها ببعض الأموال التي تسد رمق عيشها بعد عزوف المالك عن رعايتها والنفقة عليها بذريعة أنها مدمنة لا طائل منها أو فائدة ترتجى من واحدة أهملت في عملها وصحتها على السواء.

إلتقطتُ ليالي من على عتبة النادي، عندما ألقى بها المالك بمساعدة الطبال بعد أن هاجمته إثناء عمله، متهمة إياه بسرقة كل مدخراتها، الأمر الذي أثار لغط الزبائن وفضولهم، فما كان منهما إلا أن يجراها من يديها وهي تزعق وتصرخ، رافضة النزول من على المسرح وممسكة بخناق الطبال مطالبة إياه بأموالها.

أخذتني الرأفة بحالها وما آل اليه ظرفها من بؤس، لمحتها منزوية في الظلمة تبكي وتنتحب، مرتجفة الأوصال لا يغطيها سوى رداء خفيف وسخ إنكمشت متضائلة تحته.

بين همز ولمز الرفاق، وترددهم في مساعدتي لما ينطوي على ذلك من مسؤولية ومتاعب قد تجرها عليّ هذه الراقصة المدمنة، حملناها الى سيارة الأجرة التي إنطلقت بنا الى شقتي تاركاً إياهم ينفثون دخان أنفاسهم وحيرتهم تحت مصباح الشارع الذي نازعهم برد ليل أسطنبول الكانوني.

كانت نصف واعية ولا يزال تأثير المخدر يخيم على عقلها ويرخي حركتها، فتعثرنا في الصعود الى الشقة تحت أنظار بواب العمارة المتحفزة وصمته الثقيل.

تمددت ليالي على أول كنبة صادفتها في الصالة وإنغمست في نوم عميق تخلله شخير مشحون بالتنهدات والإرهاق، فما كان مني إلا أن جلبت لها لحافاً.

١٣

طال غيابه أكثر مما توقعت، فإستبد بي القلق، هاتفه مغلق طوال الوقت، مضى أسبوعان والثالث أوشك على الإنتهاء، كذلك أيام إجازته من العمل، أخذت بي الظنون الى مسالك وعرة فتهاوى صبري على إصطباري، ساورتني كل أنواع الوساوس والمخاوف إلا...، ضربت أسداساً بأخماس، باتت الأيام طويلة، أشحذ ساعاتها الثقال على مبرد الترقب والإنتظار حتى إنبرت أسنانه وتهالكت قواي تماماً مع نزوح البدر الى محاقه.

بوشاح غطى الكثير من معالم وجهي، ونظارات عريضة سوداء مع ملابس واسعة فضفاضة لا تشي بالجسد المرتجف تحتها، ذهبت الى الشركة التي يعمل فيها صلاح، ترددت في الصعود عند باب المصعد، لكن لافتة شركة البناء الكبيرة دفعتني الى الولوج من بابها الزجاجي الأنيق الفخم، إستقبلني موظف الإستعلامات بإبتسامة آلية إلا أنها مشجعة على طرح السؤال الذي غص به فؤادي، وتحشرج في فمي حين نطقته مستفهمة عن وضع المهندس صلاح ودوامه، فكانت إجابته صادمة، لم أستسغ سماعها، فكررت السؤال أملاً في إجابة أخرى، لم يسخُ بها عليّ الموظف حين قال بعد أن بحث في جهاز الحاسوب: المهندس صلاح عبد الغفار مجيد أنهى خدماته الشهر الماضي مع الشركة.

لمح الذهول الذي إرتسم على ملامحي، فأعاد البحث مرة أخرى في حاسوبه بين الأسماء، وأعاد قراءة إسمه في عمود الموظفين المنتهية عقود عملهم.

تلجلجت الكلمات فزفرتها دفعة واحدة قائلة دون وعي: وأين ذهب؟!

رمقني بنظرة مستغربة، إلا أنه رفع الهاتف متصلاً بأحد زملاء صلاح الذي أخبره بأنه قد عاد الى بلاده العراق، ليشهد ولادة الصبي الذي إنتظره بفارغ الصبر.

هزتني جملته الأخيرة، لا بل نزلت على رأسي كصاعقة... ولادة صبي!... أهو متزوج؟!... أهو متزوج؟!

كنت حينها أتمتم مذهولة مع نفسي، ولا أدري إن كان قد أحس بشيء إلا أنه سألني بفضول واضح: هل أنت قريبته؟

تظاهرت بعدم سماعه مستديرة بظهري عنه الى الخارج لألتقط أنفاسي، وأستجمع بعضاً من رباطة جأش تحفظ كرامتي أمام المارة قبل أن أنهار في شقتي ألماً وحسرة على سنواتي الخمس، الأحلام، المستقبل، الحب، الآمال، أمعقول كل ذلك كان زيفاً ومحض سراب؟! كيف إستطاع خداعي الى هذا الحد؟... كيف؟ كيف؟!

من مآق جفت وأنين قلب صاخب، تنازعت عقلي كل هذه الأسئلة، دوامة موحلة وضياع موحش، فراغ بارد صامت لا قعر له، وخواء داخلي يبعث صفيره في النفس وجعاً يتصاعد يوماً إثر يوم حد الإختناق، الرغبة الملحة في موت هادىء والرقود بدلاً عن التجوال حافيةً في براري الروح المقفرة وحصد وابل أشواكها.

إصبت بإنهيار عصبي، لم تفلح الأدوية المسكنة في إيقاف زحف ظلمة ليله التي غشّت على نهارات أيامي، وككل مرة يخذلني الموت فيها ولا يأتي، فأعود خائبة من لقياك ربي... لا أظنني أستحق كل هذا النبذ!... فلماذا؟...

لماذا؟... لماذا خدعني الى هذه الدرجة؟ أي مغفلة كنت أنا؟... بل كنتِ مؤمنة واثقة بحبه... هل كان حباً؟ لا أظن!... محض هراء وكلمات شاعر يقول ما لا يفعل... لا أصدق، لا أصدق، أن ما كان عبثٌ، لا أصدق، ليتني...

لن أنسى تلك الأمسية وما وضعه على وجهه من تعابير حزينة حين همس بحنان: سيكون أطول أسبوع إجازة، لكن للضرورة أحكام فوالدي ليس على ما يرام، كما أني متحمس للغاية لأجل إخبارهم عن نيتي بالزواج منك، أودّ مباركتهم لي، وخاصة أمي التي ستفرح كثيراً، حقاً أرغب أن أرى الحبور في عينيها وأنا أزف لها هذه البشارة.

تناولنا العشاء على ضوء الشموع، طفونا على سحابة الأمل، دفء عم المكان، ذبذبات من السعادة سرت في أوصالي، لم أشعر بأبعاد جسدي فأماني تحلق بي عالياً، أنهل من نبع الحب وأغرف، أبصر في عينيه حاضري وقادم أيامنا السعيدة، أذوب كالشمعة عشقاً طارحة عني كل أسمال الماضي ودواماته العشقية، مؤمنة أخيراً أني أجني ثماراً إنتظرت قطافها كثيراً.

لا أبالغ حين أقول أني قد طلت عنان السماء حين أحببته، أمسكت نجماً ولاحقت شهاباً، صدح قلبي وليس حنجرتي بأعذب الأغاني وأصدقها إحساساً، خرجتُ من شرنقتي فراشة الى رحاب زهره، أكل ما شعرت به كان سراباً؟! وهم وخيالات؟! أجيبي، أجيبي!

أحسست بالرضا حين لمحت القلق والخوف البادي على ملامحه عندما إستفقت في المستشفى من تأثير المنوم، وهو ماضٍ بإضطراب في سؤال تلو الآخر عن سبب إغمائي على المسرح، فطلبت منه أن يكف عن خشيته على

وضعي الصحي، فأنا بخير، وما حدث لا يعدو سوى عارض من مراعاتي القليلة بالأكل وكل ما يرافق عملي من إنفعال وإجهاد، لكن يقيناً كنت حينها سعيدة بإهتمامه وملاحقته للطبيب المختص بالإستفسار عن تفاصيل حالتي، لم أعر حينها بالاً لتلميحات الطبيب عن قلق صديقي من إحتمالية وجود حمل، إلا أني تضايقت من لمزه وإبتسامته الملغزة كونه أدرك من فحص السونار الحقيقة، فأشحت بوجهي عنه لوهلة وبلهجة يشوبها نوع من العدائية أجبته:

- أظن أن هذا أمر شخصي، وعلى الطبيب حفظ أسرار مرضاه، وأنا أحدجه بنظرة أربكته أردفت: أليس كذلك يا دكتور!

- بالطبع مدام غفران... بالطبع، هل يوجد لديك شك؟

لم أغير نبرة صوتي المتصلبة قائلة:

- أنا لا أشك، وددت التأكد فحسب. وأشحت بوجهي ثانية في إشارة جلية مني بالرغبة في إنهاء الحديث، فرد متلعثماً مع إحمرار شاب صفحة خديه: أرجو أن تخلدي الى الراحة الآن.

- شكراً.

يا الله كم كنت غبية، لم أدرك أن خشيته بالدرجة الأولى كانت من إحتمالية حمل هو المسؤول عنه وليس على صحتي، عندما نقع في الحب نصبح حمقى، أغبياء بإمتياز مطلق، تغاضيت عن كل الحقائق في تفسير الكثير من تصرفاته المتحفظة والغريبة على أنها ناجمة عن طبع منزوٍ لا غير، حتى تردده وتباطأه في طلب يدي للزواج بررته بخجله الفطري وإنتظاره الفرصة المناسبة ليعرض عليّ، وكم كانت فرحتي عارمة لا توصف حين

أخبرني بنيته على السفر الى العراق لأخذ مباركة والديه وأهله في الزواج من الفنانة المشهورة غفران -على حد قوله-

هل كل ما باح به قلبه وكتبته أنامله من قصائد حب وشغف محض كلام وثرثرة رجل يجيد رصف الكلمات وضبطها في وزن وإيقاع وقافية؟!

هل كل ما عشته معه كان كذبة؟ لم أستطع التصديق أنه تركني خلفه هكذا دون أي شرح أو تبرير يفسر فيه سر إخفاء زواجه عني.

ترقبته شهوراً، لا أدري كيف غفر له قلبي وإلتمس له الأعذار والذرائع أمام عقلي المسكين! الذي إمتثل لرغبة قلب لا يزال موقناً بالحب ومؤمناً، فزاد شوقي له وحنيني إليه رغم إرادتي، ورغم كل محاولات عدم التفكير به والإنشغال بأمور العمل، من تسجيل بروفات أغاني وأمور أخرى دلفت فيها بكثافة لأجل نسيانه، فوسعت دائرة المعارف والإجتماع بأشخاص من الوسط الفني في سبيل إمضاء وقت أكبر بعيداً عن نفسي وإستغراقها في الذكريات حتى باتت العودة الى البيت مثار قنوط ويأس.

أمسى إنتظار هاتف منه أو رسالة نصية هاجسي وكل غايتي، تصدرت الأغنية التي كتبها ألبوم أغانيي، ولاقت رواجاً واسعاً بين الجمهور الذي تهافت على سماعها في كل حفلة لي، مشاعر حب وكلمات مدهشة كان ماهراً في إزهاقها على الورق.

أعددت في ذهني رداً عديدةً على رسالته المتوخاة أو إتصاله، أعاتبه بشدة، أغضب منه، أتمرد فأغلق الهاتف في وجهه.

بكيت بمرارة ودعوت الله أن يكون نسياً منسيا، وكل شيء حولي يترقب عودته، الأريكة والوسادة الخضراء، منفضة السجائر، التلفاز وقناة العراقية التي خذلته أخبارها، دفتر الملاحظات الجلدي وقد سطر بعضاً من قصائده على وريقاته السمائية اللون، علبة سجائره مع قداحته الذهبية اللون على الطاولة منذ أشهر.

أو ربما أترك اللوم جانباً، أشد على قلبي ولا أنكأ جرح غدره الماضي في روحي، ولدموع الفرحة أخلي السبيل وأنا أقول له بشوق عارم: تعال..... أحبك.

شغلت رأسي بتلك السيناريوهات المختلفة والسجالات والمهاترات البائسة التي تفضي جميعها الى ألم فقده، وعذاب إنتظاره مهما علا هياجي، وأرتفع صوت رفضي، تحسسَ كبريائي وأبت عليّ كرامتي.

ملعون ذلك الحنين عندما يتسلل إلينا كلص، يسري مع النبض، يغمرنا حتى الإختناق، يهاجمنا بضراوة، قاتلاً تصبرنا بسكين الشوق واللهفة، آه منه، لا يعرف الإستسلام مهما تجاهلته يعود ليغشاك دون تمهل، كم من مرة تشجعت في الوقوف بوجهه، حسمت أمري ضده فما نلت سوى الدمع من مآقٍ فاضت بفقده.

أمست حياتي مضطربة، تتناقض مشاعري وتتشابك فكلما إزداد حنيني إليه زدت عناداً وشدةً، بت أضع العطر الذي يفضله بعد أن إمتنعت عن وضعه أشهراً، في تحدٍ لغيابه وغدره، وأحياناً شوقاً لوصله، لم أعد أعرف ما أريد، أأثأر منه أم أبكيه حباً وأملاً في لقاء باعدته الأيام والشهور حتى خلتها دهراً، غيرت عاداتي وطباعي، هجر كل ما ألفناه

معاً، أضفت الى حياتي تفاصيل جديدة وإهتمامات تختلف عني تماماً في دأب حثيث الى نسيانه وإزاحته من ذكرياتي، من قدح الشاي، عدة تبرجي، أقلام أحمر الشفاه ومرآتي.

لا أدري ما وجه الشبه بينهما، لكن كلاهما يملكان الإحساس ذاته مع الكلمة، يجيدان تغنيجها وتدليلها بشكل لافت كميزة لهما، فيه شيء من ذاك، ليتني أعرف ما هو؟ لأول وهلة تأهبت فرائصي وتوترت، إحساس غريب إنتابني، حاصرتني صورة صلاح رغم عدم وجود أي شبه جسماني، لكنه يرسل الذبذبة ذاتها فشعرت بالضيق والتوتر طيلة فترة إجتماعي به التي لم تتجاوز ربع ساعة.

آسفة يا حسن لا أستطيع أن أقبل أية قصيدة من قصائده، فبين طياتها يكمن ذلك الشعور الخفي الذي لازمني سنوات، لن أتعاون مع صديقك الشاعر هذا، فأعذرني... لكن ما ذنبه هو إذ تعاقبيه بجريرة غيره؟!... لا أدري، لكني لا أشعر بالراحة مع تلك القصائد، فليذهب الى الجحيم... أصبحت صعبة المزاج... ربما!

ورمت بالكراس بعيداً عن مرمى عينيها مجتنبة ما أثار فيها من شعور بالضيق، ثم إسترسلت في الوقوف أمام المرآة تتعقب بعينيها كل عضلة ونتوء في جسدها في سباق محموم مع الزمن، إقتربت بوجهها من المرآة، تمعنت النظر في ذقنها الجديد وخطوط رقبتها، وبالسبابة رفعت حاجبها وشدت جبينها، تفحصت وجهها من زوايا مختلفة، غمغمت مع نفسها وهي تضع قليلاً من المساحيق على بشرة مجهدة أوصى الطبيب بإراحتها.

مدام غفران، أرجو أن تتوخي الحذر، جسمك بات مشبعاً بأدوية التخدير والمسكنات، أنا طبيبك، وأتمنى أن تثقي بكلامي، لقد إستنفدت قواك في عمليات كثيرة لا لزوم للكثير منها، أدرك أنك فنانة مشهورة تسعى جاهدة للحفاظ على جمال شكلها أمام جمهورها، لكنك أفرطت في ذلك سيدتي.

لم يعد بإستطاعتي إجراء أية عملية أخرى لك، واجبي كطبيب يحتم عليّ عدم الإنسياق لرغبة مريضي، فسلامتك أهم من أي شيء آخر، أتمنى فعلاً أن تصغي لصوت العقل هذه المرة، في العمليات السابقة لم أكن متحمساً لإجرائها لكني هذه المرة أرفض تماماً التورط في قتلك، جسمك تتضاءل قدرته على الإعتلاء لصهوة طموحك المتعطش لشباب لا يخبو وجمال لا يبلغه العطب، ليتك تفهمين أن الجمال شعور وإحساس معنوي، لا ينبع إلا من ذواتنا ولن يشعر أحدٌ به ما لم تشعري أنت به أولاً، أرجوك مدام غفران... لن أدخل بك الى صالة العمليات، فهذا ينافي قسمي كطبيب.

سيدتي هلا تفضلت بالوقوف أمام المرآة هناك (مشيراً الى المرآة الطويلة المسمرة على الحائط عند الركن الأبعد) أخبريني الآن (بعد أن ترك لها فسحة للتمعن) ما الذي يضايقك في هيأتك؟ لا تتسرعي في الإجابة، خذي وقتك.

إستدرت حول نفسي، أمسكت خصري بيديّ بعد أن شفطت معدتي، تحسست أطرافي، رفعت وجنتيّ ومططت فمي قبل أن أقول بإعياء: كل شيء... كل شيء دكتور.

- لكني كطبيب مختص لا أرى أنك بحاجة الى عملية أخرى، أبعاد جسمك في حال متناسق ومنسجم.

- لا دكتور، أنظر هنا (قالتها وقد شدت قميصها عليها) لا أملك الخصر الذي أرغب به، كذلك إنظر الى الأفخاذ يكسوها الشحم، ساعداي نفساهما لم يعودا متماسكين كما السابق، رقبتي، فمي يتراخى، حتى الوجنتان ذبلتا، لا شيء على حاله، لا شيء...

كيف لك أن تتنافسي مع فتاة في عشرينياتها؟! وكيف تظنين أن عمليات التجميل ستؤهلك لتلك المنافسة؟! لابد أنك مجنونة! لم تعودي راضية، إزداد هوسك بالتجميل وملاحقة آخر الإبتكارات والتقنيات فيه!... بشرتها مرنة يافعة تنبض بالحياة، جمالها طبيعي عفوي، جلستها ساحرة وهي تحرك بأناملها الرقيقة أوتار كمانها المطواعة، أحاول بخبث البحث عن عيب فيها فلا أجد، لوحة أجاد الباري رسمها، أفتعل الأعذار والحجج لأجل التخلي عنها من فرقتي الموسيقية فلا أَرى أي منقصة في أدائها المتقن، تتقرب مني بحب وطيبة رغم أني أواضب على ترسيم الحدود، والتحفظ في علاقتي معها عكس ما إعتدت فعله مع باقي أفراد الفرقة الذين كسبت ودهم وإحترامهم ببساطة وظرف طبعها، فما عساي فاعلة؟! ماذا يحدث لو كانت أقل جمالاً مما هي عليه! أقل عذوبة ولطفاً، وليست صديقة حسن وزميلة الدراسة.

هو من رشحها للعمل في فرقتي، ليتني حينها رفضت، لم أتوقع يوماً أنها من ستثير الغيرة في قلبي، فتنازعني الهواجس والظنون، أشعر بالضيق والتوتر عندما ألمح ذلك الإنسجام والتناغم بينهما، أشيح ببصري بعيداً، أهرب من الواقع فتتعثر خطاي بصدى ضحكات سما ووداعتها، بت أفسر كل تصرفاتهما على منحى خاطيء رغم علمي أنهما مجرد صديقين، الغيرة أعمت بصيرتي لدرجة أني تسللت في إحدى المرات ملاحقة إياهما بسيارة أجرة، ولم يطمئن بالي حتى لمحتها تنزل من سيارته عند باب بيتها، يا لوضاعتي!

سمحت لنفسي بالتجسس عليها وأنا من إقترح عليه أن يقلها الى بيتها بعد كل بروفة ليلية، أنبت نفسي على وقاحتها، لكني لم أستطع منعها من التخلي عن غيرتها التي باتت تتلاقح وتثمر في قلبي مرارة وجزعاً...

- أرجوك دكتور، لا أَجِد الراحة في هذا الجسد، أشعر بالخوف، الزمن يتربص بي، تنحسر ثقتي بنفسي يوماً تلو الآخر، ينتابني الغضب من أبسط الأمور، نوبات هلع تفقدني رغبتي في النوم، لا أريد الشعور بهذا المقدار من السوء والتوتر، إنظر من فضلك الى كل هذه الزوائد (وهي تشير الى جسمها ممررة يديها بإنزعاج) أظن أن عملية النحت هي من تخلصني منها، نعم ما أحتاجه هو عملية نحت تخلصني من هذه الترهلات والزوائد!

- ثقي بي مدام غفران، العمليات المفرطة تهيج مزاجك، وتمضي بك الى كآبة وإحباط، جسمك مشبع للغاية وستنخفض مناعته وقابليته على الشفاء، أنسيتِ كم كانت عملية نزع ضلعين شاقة وقاسية عليك؟! لم تتماثلي للشفاء حينها بسهولة، أرجوك مدام لا تجازفي بحياتك مرة أخرى في هذه العمليات، وتذكري دوماً أن الكمال لله وحده.

- لكني لا أشعر بالراحة مع هذا الجسد!!

- مدام غفران، أنصحك بمراجعة طبيبتك النفسية قبل الإقدام ثانية على أية عملية.

أكملت وضع زينتها الخفيفة، ثم إرتدت نظارة سميكة وإعتمرت قبعتها القشية الواسعة لتقابل البحر في موعدهما الصباحي الهاديء بعيداً عن السياح الذين ما لبثوا يغطون في شخيرهم بعد ليلة صاخبة.

أمسى فاروق متحفظاً في تواصله بي لاسيما بعد زيارتي البصرة والإقامة عنده في الشقة، وما شاب ذلك من محاولات تأقلم وتفهم بيننا لم يستوعبها فاروق، أو يستطع التواؤم معها، عندها أدركت جيداً أنه لن يبرح منزلة الصديق الى الحبيب رغم ما يعتلج فؤادي من حب نما معي ورافقني سنين طويلة، إقتنعت بحتمية الخطو بعيداً عن فاروق والخروج من دائرة ذلك الحب الأحادي الطرف الذي غلبت عليه مشاعر ملتبسة غريبة، بت أنا نفسي غير واثقة من كنهها، لكن هذا لا يتعارض مع التقدير والحب الذي أكنه له مهما كان تصنيفه، فاروق هو فاروق، وإن إختلفت بِنَا السبل وإفترقت.

كان الوقت ضحى وكوب الشاي لا يزال ينفث بخاره المتصاعد برفق ودفء حميم، عندما إتصل بي، محدثاً إياي بنبرة متسارعة لمست فيها الضيق الذي عهدته حين يكون غاضباً أو منزعجاً من شيء، وأخبرني بأنه لمح لوحة إعلان لبيع معمل النساج معلقة على بوابته، وجاء يستعلمني مستغرباً من صدق رغبتي في البيع لإرث النساج وتاريخه الطويل.

لا أدري ماذا ألم بوجدان حتى سمحت لزوجها أن يعبث بميراث عائلتها، كنت متشككاً منذ البداية بنيتها عندما أقنعت بقية شقيقاتي وأمي ببيع حصصهن في المعمل، لكني أبداً لم أشك أنها ستضيع ذلك الإرث الذي أفنى فيه والدي زهرة شبابه، وتتبع نزوات زوجها وأطماعه.

هاتفتها أستعلم منها الحقيقة، فلم ترد عليّ وجدان التي عهدتها بما تمتلكه من بأس وقوة تصل الى حد القسوة والخشونة، كانت مكسورة الصوت والقلب، طعم الخيانة والغدر ما يزال رطباً في فمها، فأشفقت عليها، حين

أخبرتني بأن زوجها قد أحالها الى التقاعد، منهياً سنوات خدمتها الزوجية بزوجة صغيرة شابة تعمل في معملنا الذي أوكلت إليه إدارته وكل ما يتعلق به، الأمر الذي حمله في نهاية الأمر على إعلانه للبيع بعد عجزه على المواكبة في ظل ظروف الحصار الذي أطبق على حياة العراقيين وبطونهم، ليزدحم السوق بعد عام ٢٠٠٣ بالبضائع المستوردة التي نافست بتفوق الإنتاج المحلي، وما يتطلبه من مواد خام كأصواف وخيوط وأصباغ كثيرة لا تغطي نفقات بيعه، فتراجع إنتاج المعمل وبنت العناكب فوق ماكناته التي توقف هديرها في تقاعد قسري عن العمل هي الأخرى.

قمت بشراء حصص المصنع وعاد يحمل أسم النساج بلا ولد ولا شريك له، تحت إدارة فاروق الذي تخوف للغاية من هذه المهمة وشاطرني قلقه وسؤاله الدائم حول قدرته على إعادة دبيب الحياة في مكائن وآلات أدمنت النوم والكسل.

ومع الوقت أدرك أنه قادر على بعث الحياة في المصنع رغم فشله في تدوير عجلة حياته وإنقاذها من الملل وما تجره الحياة الزوجية من روتين، ومتطلبات تقاعس في إنجازها الى الحد الذي أوصل به الى إنهيار زواجه، والوقوف على عتبة المحاكم لنيل صك الحرية كما سماه ذات مرة، نافياً أن يفرط فيه مرة أخرى.

لم أعرف التفاصيل والأسباب الملزمة لفض ذلك الزواج والعودة به الى أحضان العزوبية بشكل نهائي، وتلك الشقة المقلوبة رأساً على عقب، لكن الذي أفهمه أن فاروق لا يحسّن العيش مع إمرأة واحدة، ولا يطيب له المقام إلا بالتنقل من زهرة الى زهرة كنحلة تتفانى في صنع عسل

مختلف ألوانه، ولابد أن زوجته قد إكتشفت سر تلك المذاقات، هو لم يعترف لي بذلك صراحة، لكنه نوه إليه من بعيد في إبتسامة قد ألفت معناها من سنين عتيقة بعيدة، من تلك الرحلة الخشبية التي تشاركنا عليها الجلوس رغم إختلاف أحجامنا، وإصرار المعلم على جلوسي في المقاعد الأمامية لصغر حجمي.

مع إستقراره في العمل كمدير للمعمل، راح أهله يضغطون عليه في الزواج ثانية، لكن هذه المرة من إبنة عمه للم الشمل الذي تفرق ذات مرة على يد صديقه وأقرب الناس إليه، وكأن فاروق بات مذنباً هو الآخر في طلاق ثريا وهدم حياتها التي ما فتأت يستقيم حظها بالزواج بمن رغبت به حتى تلقت صفعتها الكبيرة، فأنزوت بين جدران البيت وأسوار المدرسة في ذهاب وإياب تقطعه أقدامها عن ظهر قلب.

لم توافق ثريا على عرض عمها بالزواج من إبنه، معلنة رفضها الخوض في الموضوع بتاتاً بعد أن نبذت فكرة الزواج وطردتها من رأسها الى الأبد لرغبتها في التفرغ لتربية إبنتها دون رجل قد يضيق الخناق عليهما، فتنفس فاروق الصعداء من جوابها الرافض رغم شعوره بالذنب مما آلت اليه حياة إبنة عمه اليتيمة.

الساحل أكثر هدوءً هذا الصباح، ليس هناك إلا عدد قليل من المارة، وعمال النظافة المنهمكين في عملهم، لاسيما شارع مارينا المطل بفنادقه المرتفعة الفخمة ومقاهيه الجميلة على بحر مرمرة، حيث إستقبل الجموع المحتفلة بالعيد وكل مظاهر الإحتفاء به.

البحر بأجمعه لي، أمواجه المسترسلة الكسلى، رمل الساحل وهسيس القواقع، حتى الكراسي بمظلاتها الملونة الزاهية، كل شيء لي، إحساس بالتفرد والملكية المطلقة يجتاحني ويملؤني بالنشوة، لا أريد أكثر من البحر ملاذاً أقص عليه متاعبي وأشجاني لا طبيبتي النفسية إخلاص التي ترفض بشدة فكرة خضوعي لعملية نحت للجسم تعود بي الى حلبة المنافسة مع... أكملي هيا لماذا توقفتِ؟ المنافسة مع من؟ أي جنون يطبق على عقلك؟! لقد قالها لك مراراً أن ما من شيء خاص يربطه بها سوى صداقة وزمالة عمل، أستغرب أمرك أحياناً، كم تكونين متناقضة متطرفة في أحكامك ورغباتك! تبعدينه عنك وتحاولين النأي عنه من جهة، وتموتين غيرة وحسرة على عمرك السالف حين تلمحينه واقفاً معها يتحدث، ما من شيء يرضيك ويقنعك! طبيبتك ذاتها تجد صعوبة في إقناعك وترويض تلك الرغبات الهدامة التي تودي بك الى مخاطر جسمانية ونفسية كبيرة، إفتحي هاتفك هيا، وأنظري الى صورك، ألا تلاحظين كيف تغير شكلك على مر السنوات الفائتة، بت لا أعرفك، من أنت من بين تلك الوجوه؟! وأين أنت؟ لماذا كل هذا التداعي والقنوط؟ متى تدركين أن حدود الكمال لا تنتهي، وأن الجري خلفه مدعاة للولوج الى متاهة عميقة يصعب الخروج منها، لم تكذب طبيبتك حين أومأت:

أنتِ قد أدمنت عمليات التجميل، مبضع الجراح وندوبه، ليتك تشعرين بالرضا وتكفين عن قتل نفسك رويداً رويداً.

ما بالك يا غفران أنت امرأة جميلة، فلمَ كل هذا القلق بشأن إنوثتك؟!... لا تضيقي علي الخناق، ودعيني أستمتع بجمال البحر وروعة

المكان هذا الصباح... أمسى الهروب طبعك، لن أزعجك... إفهميني، إفهميني إنه الصوت، ذلك الصوت يواصل تعذيبي ونهش قلبي بكلمات يرن صداها في رأسي دون سابق إنذار ليحيل فرحي ونجاحي الى ذنب معتق، أشرب كأسه في ليال كثيرة فلا أعود أملك الثقة بخياراتي وكل ما حققته، يصفر في أذني كرعد مجلجل عاااااااار، كافرررررر مأواك النار وبئس الجحيم، تستلب عقلي هذه الفكرة، فأتصبب عرقاً وخشية أن تكون حقيقية، هل من الممكن أن تكون حقيقية؟! هيا أجيبي، هيا أو دعيني أصنع بنفسي ذلك المسخ الذي تخلى الله عنه وتركه مضطرباً مشتتاً بلا هوية، ونُبذ حين أفصح عن ذاته كاشفاً الحقيقة التي رفضها الجميع، عبر مسيرة خطَ الألم والحيرة فصولاً طويلة منها، دعيني لا يجدر بك لومي... لكنك حققتِ كل ما رغبت به فارضة إرادتك على الجميع! وها أنت مطربة مشهورة يترقب صدور ألبوماتها الملايين، وتتصدر أغانيها وحفلاتها أغلب المناسبات، ألا تفخرين بكل هذا؟!... وأنت ألا تنظرين الى ما خلفته من خسائر في سبيل هذا الجنوح؟!... عزيزتي لا شيء في هذه الحياة بلا ضريبة، فأدفعيها دون تبرم أو شكوى، عمليات التجميل ليست هي الحل... أرجوك دعيني الآن، أودّ أن أتنفس هذا الهدوء والجمال وحدي.

١٤

إنساقت قدمايّ مرات عديدة بعد التجوال والتقصي في أنحاء مدينة غازي عنتاب وما يتملكني من دهشة وإعجاب كلما توغلت في تلك الطرق الضيقة والأحياء القديمة الى ذلك المطعم القصي كخاتمة حتمية لجولة إستكشافية لمدينة لا تشي بأسرارها ومكامن جمالها دفعة واحدة، تماماً كأوزلام التي فتقت أسرارها أمامي على مهل ودلال لا يليق إلا بفاتنة مثلها.

لا أذكر بدقة كيف تطورت علاقتي بها وكيف إنجرفت معها مشاعري، فكانت أوزلام أول فتاة تدخل حياتي رغم كل ما أعانيه من إضطراب وتشويش لحقيقة هويتي، لكني جاريتها أملاً في فهم ومعرفة من أكون أنا، لا أنكر أني قد حملت لها الكثير من المشاعر ظناً مني أنها مشاعر الإنجذاب الطبيعي بين الرجل والمرأة، بالفعل حاولت مع أوزلام أن أغدو الرجل الذي أحبته، نعم فعلت كل ما بوسعي لتطوير تلك العلاقة التي نمت كزرع بري في صحراء روحي.

تشاركت معها العيش بضعة شهور في شقة صغيرة إستأجرتها بعد خروجي من بيت العم شكيب قارمان، لم تُقم معي بشكل دائم، إلا أني كنت قد إعتدت رفقتها وأحببت أحاديثها وما تطلقه في الأجواء من روح مرحة وإحساس غامر بالرضا والسعادة، خلت لوهلة أني معها قد شفيت من وساوسي، وأن ما كان ينتابني هو مجرد هواجس وإضطرابات مراهقة متأخرة نوعاً ما، دحضت بأوزلام كل تلك الوساوس المرهقة، حقاً كنت مأخوذاً

بها... لا، بل بفكرة وجود فتاة في حياتك للمرة الأولى... لكني أحببتها... نعم لكن ليس ذلك النوع من الحب الذي ينشأ بين الرجل والمرأة، الوقت كان كفيلاً بكشف الحقيقة التي حاولت تضليلها بتعلقك بأوزلام التي إكتشفت هي الأخرى بحدسها الأنثوي أنها لا ترقى الى مستوى الحبيبة في علاقة تتصاعد من طرفها فقط... لقد إتهمتني بوجود أخرى في حياتي وأني قد مللتها رغم كل جهودي في إقناعها بعدم صحة ذلك، فتوترت العلاقة بيننا وتذبذبت الى الحد الذي حملها الى حمل حقيبتها والمغادرة.

كنت جباناً، لم أستطع الإفصاح لها عما يدور في خلدي وما تتنازعه روحي من شكوك وظنون، فماذا أخبر المرأة التي أحبتني وتهيأت للعودة معي الى العراق كي تعيش الى جانبي طوال العمر.

آه أوزلام، كم حاولتُ التعايش بإخلاص مع الرجل الذي وقعت في حبه! وكم زاد ذلك من مرارة شعوري وألمي بأني لست ما تظنين، كان من الصعب أن أخبرك بما أشعر به، بذلك التناقض القاسي الذي يغمرني والإدعاء بما لم أكنه يوماً.

لن أنسى ما ذرفته من دموع حين أخبرتك برغبتي أن نكون أصدقاء، أن تصبحي صديقة من حلمتِ أن تكوني أماً لأولاده، ما أقبحني! وما أشد قسوتي؟!

تأزمت نفسيتي وإزدادت سوءً وأنا أجبر نفسي في كل مرة على مجاراة أوزلام في إدعاء فحولة تليق بشغفها وحبها لي، بت عصبي المزاج والخلق، يتهاوى هدوئي الى سخط مفرط مع أبسط أمر، عاودني شعور الكآبة والإحباط، التخبط من جديد في مجاهل إضطراب الهوية وتناقض الرغبات،

فتجنبت إقترابها مني وتهربت، أمسيت أخشى ملاطفتها لي وما ينجم عنها من رغبات ومشاعر مشحونة لا تعود عليها سوى بالخيبة والألم.

عذاب شديد وشعور مؤرق للغاية أن تكون لست أنت، أن لا تملك الشجاعة للإفصاح عما يضايقك لأقرب الناس اليك، وأن تكون السهم المصوب الى قلوبهم، فكيف لي أن أخبرها؟! وهي تبذل كل ما بوسعها في إستنهاض رجلها وشده اليها بإفتعال مناسبات وأجواء رومانسية حميمة لئلا يتسلل الملل والفتور الى علاقتنا، فيا لها من مسكينة! ويا لي من...

السماء صافية إلا من غمامات بعيدة وقفت على إستحياء من شمس كل همها تبديد رطوبة الأجواء وثقل الهواء. خرجت للتو من المركز الطبي للأمراض النفسية، أحمل بين يديّ أخيراً ملفاً لشهادة رسمية تفيد بسلامتي النفسية والعقلية بعد مضي ما يقارب سنتين على المراجعة والخضوع الى جلسات مكثفة، تقيم وضعي النفسي وتدرسه بشكل دقيق من قبل طبيبي الذي مهر توقيعه أسفلها بكامل قناعة وثقة في مريضه الذي أثبت أنه لا يعاني أي نوع من إنفصام الشخصية، ولا مرض عصابي يؤثر على خياراته ورغبته.

بات هو الآخر يتحين الفرصة لتثبيت موعد مع الطبيب الجراح. لا أدري لِمَ إجتاحني فجأة شعورٌ بالقلق عند تسليمه الشهادة لي، ثقل رزح فوق صدري، إرتفع الصوت داخلي، علا ضجيجه في رأسي، عار، كافر، عاااااااار، إرتجفت يدي وأنا أمسك بالملف الذي يتوجب عليّ أخذه الى الطبيب الجراح لتحديد موعد للعملية المرتقبة الأخيرة التي تضع الحد والفاصل بين زمنين وجسدين، حقاً لا أعلم ما سر ذلك الحزن الذي داهمني! هل أدمنت الألم، والشعور بالإضطهاد والرفض من الآخرين،

الوحدة التي تقتات عليها أيامي من سنوات، الشرنقة التي تخبئني، لا أعلم! لا أعلم ما طبيعة هذه المشاعر!

أحسست بالوهن، يداي ناحلتان، قدمايَ لا تكادان تحملاني، دوار خفيف يتملكني، تضطرب أنفاسي، ألهث، حتماً هي الرطوبة، جلست على إحدى المساطب في حديقة المركز أستظل بالشجرة من خوفي ومن صعوبة ما أنا مقبل عليه، السباق أوشك على... إقتربت من شريط النهاية.

تملكتني الرهبة ذاتها والخوف عندما أخبرتني الطبيبة بإبتسامة منشرحة: زوجتك حامل، لم أكد أصدق أنني سأصبح أباً، فزعت من الفكرة، أنا أبٌ؟! كيف يكون ذلك؟ وقدرما شعر أهلي وثريا بالفرح والنشوة بقدوم حفيد يحمل أسم النساج ويحفظ خلوده، أحسست بالأسى والتوتر من هذه الفكرة، أنى لي أن أكون أباً؟! أي خبر مشؤوم هذا؟! جهدت في إخفاء ضيقي من نبأ الحمل، لكن ثريا أحست بذلك وعاتبتني، فلم أملك جواباً سوى أن الخبر جاء مفاجئاً خصوصاً ونحن قد إتفقنا على تأجيل الحمل الى سنة، فبادرتني بإبتسامة ماكرة فهمت مغزاها ولم أعقب شيئاً سوى أني تمنيت أن تجهض حملها الذي رافقته صعوبات ومشاكل صحية متعددة، أدرك أني أناني لا أستحق إبنتي التي ولدت قبيل الفجر بعد مخاض طويل مؤلم لتستحق ثريا بجدارة الأمومة التي يمنحها الله لإناثه.

لماذا عليّ أن أعاني أنا لأكسب تلك الأنوثة التي دمغها الله في روحي دون جسدي؟! لماذا؟ ولماذا؟! سؤال أردده كل يوم أملاً في جوابك، في إشارة أو تلميح منك، ألا أستحق تلك الإشارة؟ وهل نبذتني خارج حدودك، بعيداً عن ظلك ورحمتك كما يقال لي؟! كافر وعار، مستقري جهنم؟! لماذا؟ كل ما فعلته هو المطالبة بهويتي! العيش داخل جسدي الحقيقي، بلا هواجس

تؤرق ليلي وتحيل نهاراتي الى ضياع وتشتت، بحث متواصل وإستغراق لسماع ذاتي، بوحها ورغبتها العارمة في فك أصفاد ذكورة تحمل تهمتها منذ سنوات طويلة بلا ذنب.

ما ذنبي يا الله؟ أن لا أرى نفسي في المرآة حين أقف أمامها، أن أصفف شعراً قصيراً لطالما خلته طويلاً ناعماً بأشرطة لماعة، أن أرتدي بنطالاً وعيناي على تنانير وثياب شيقيقاتي الزاهية الألوان، أن أتبرج وأتعطر في إنتظار حبيب يأتيني بوردة حمراء بدل التجسس على حبيبات فاروق والتحرق ألماً وحسرة منهن، أن أجلي الأواني وأطبخ، أن أحمل بإبنتي، أشعر بركلها، تكبر رويداً في رحمي، تنام في حضني، ترضع من صدري، أناغيها، أجري خلفها تحبو، ما.. ما ماما تناديني حين تبكي، ما ذنبي؟ ما ذنبي؟ أسئلة تتكاثر في رأسي، هواجس تنمو مرتفعة على بصيرتي فلا أعود أدرك من أنا؟ وما أكون؟! أعيش تناقضاً وإزدواجية فظيعة، يتعثر لساني بكلمة بابا فلا أناديها بها متجاهلاً تلك العلاقة التي تربطني بإبنتي رغم حبي لها، قسوة متناهية لا تستحقها صغيرة تحبو تتعلق بركبتيْ لتحضنني.

كنت قد إرتديت فستانها الأسود المزركش ذا الأكمام المنتفخة القصيرة والصدر المفتوح الذي إقتنته ثريا من أجل الظهور به لحفل زفاف أحد أقاربها، لم يدر في خاطري أن أجربه لولا أني فتحت خزانة الملابس بحثاً عن شيء ما فإعترض هو طريقي مشاكساً مراوداً، ترددت في تجريبه بعد أن تركت تلك العادة من سنوات لكن نعومة ملمسه ودقة تفاصيلة التي خيطت بعناية كذلك فرصة تواجدي وحيداً في الغرفة بعد أن خرجت ثريا في زيارة بيت عمها قد حبب لي الفكرة، بدوت فيه رائعاً، تفحصته أمام المرآة

من جهات مختلفة، كأنه خيط على مقاسي وليس لثريا التي لم ينل إعجابها وإنتقصت من الخياط وخبرته.

ملمسه الناعم على جسدي تفاعل مع طاقة الفرح التي إعتلت روحي، فجلست الى مرآة الزينة منتشياً أحاول تجريب مستحضرات التجميل الخاصة بثريا، نسيت من حولي، إنغمست كلياً مع ذاتي وتوحدت، حاولت إستذكار المعلومات والخطوات التي إلتقطها عقلي لا شعورياً من شقيقاتي، فدهنت وجهي بكريم حنطي اللون أغمق قليلاً من لون بشرتي، أمسكتْ يدي بثبات قلم الكحل لتخطه فوق عينيّ البنيتين، وردت وجنتيّ بالفرشاة الطويلة الشعيرات، بأصبع أحمر الشفاه رسمت فماً تواقاً شغوفاً، أطلت الرموش وعقصتها بأداة معدنية خاصة كادت أن تؤذي عيني لعدم درايتي الجيدة في إستخدامها، فقد ظننت أن الأمر باليسر الذي تفعله أفنان بها، بمثبت الشعر صففت تسريحة بسيطة تناسب خصلات شعري القصير مع تاج صغير من الكريستال إعتلى رأسي، وضعت قرطين تدليا الى أسفل رقبتي في تناسق جميل مع التسريحة وصدر الفستان الدائري المنخفض، لم أنسَ أن أرتدي كعباً فضياً كانت ثريا قد أهملته رغم جماله فإنتعش في قدميّ.

درت حول نفسي في الغرفة، تأملت شكلي كثيراً أمام المرآة، أحسست بحب كبير لم أشعر به من قبل لإنعكاس شكلي عليها وقد بدا في غاية الرقة والأنوثة، تمشيت في أرجاء الغرفة كسيدة راقية برقبة مرتفعة وظهر مستقيم أنيق، حلقت روحي عالياً رغم سقف الغرفة، وناشدتني أن أنيط اللثام عنها وأفصح عن حقيقتي دونما إكتراث لأحد في جرأة غير مسبوقة أثارت حفيظتها قنينة البيرة التي شربتها خارجاً مع الأصدقاء. أغمض عينيّ، فاروق يشدني من يدي وخصري في رقصة حالمة على موسيقى هادئة تتسلل

الى ذاكرتي، لا أود فتح عينيّ، شعور غامر بالسعادة يحتويني، رأسي على كتفه، شعيرات لحيته الصغيرة تدغدغ أنفي في تماه شديد مع عطره الذي يملؤني بالسحر والثقة.

أفقت من خيالي على وقع صرخة صادمة من ثريا التي فتحت عليّ باب الغرفة وأنا مستغرق في رقصتي مع فاروق مغمض العينين فسقط قلبي بين قدميّ، موقف ما من بشاعة تضاهيه، للآن يقشعر بدني وتنتابني رعشة باردة تسري في أطرافي حين أستذكره، وددت حينها أن تبتلعني الأرض وأنا ألمح هول الصدمة والمفاجأة على ملامح وجهها التي لوهلة جمدت الحياة فيها وتوقفت.

جلست على حافة السرير منكس الرأس صامتاً، أكاد أختنق من الخزي، لا أدري أين أداري نفسي أو ماذا أقول، إنعقد لساني بينما إسترسلت هي في نوبة بكاء ونشيج أثار خوف إبنتنا التي تعلقت بكتفي باكية تجر كم الفستان وترمقني بإستغراب بدا في عينيها المفتوحتين على إتساعهما وهي تردد بصوتها الطفولي المتلكأ با با... با با.

رجعت إلى الفندق، دفنت رأسي كما النعامة تحت الغطاء ونمت حتى المغرب، ولم أجرؤ على الخروج من باب غرفتي، أحسست ببرودة تمسك بأطرافي فأرتعش، جلدي يقشعر، ومغص يلاحقني بين الحين والآخر، وجهي شاحب التعابير، حاولت أن أزدرد بعضاً من الكعك فلفظته معدتي رغم أنها فارغة منذ إفطار الصباح، أشعر بغربة كبيرة، يضيق نفسي وتزداد وتيرة دقات قلبي، أعاود الرقود والإختباء تحت الأغطية، صداع يثقل رأسي وجبهتي تقطر عرقاً، أخلد الى نوم متقطع وأصحو، يمتزج الواقع بالخيال وتتلاشى حدودهما، كل شيء من حولي غائم مقفر، وها هناك معطف أسود

بالكاد ألمحه، ألحقه فيبتعد، نهر واسع يفصلنا، قدماي تنزلق عن الصخرة، أكتم صرخة، أتهاوى الى الأسفل ساقطاً، تلمس يداي غيمة وتحوم ساقاي في فراغ مهيب، خرير الماء ونقيق الضفادع يتكاثر حولي، وكالمصلوب الى الجرف لا أقوى على النهوض، صوت بعيد يتردد صداه مقترباً، أتكور على نفسي عارياً بلا خرقة تحتويني، يزداد إرتعاشي وخوفي، عااااااار عاااااار آآآآآثم آآآثم صوت يطبق على أذني، ويشل حركتي، غيلاااااان غيلاااااااان أمي تنادي، فلا يستجيب لساني، حواسي خدرة ثقيلة، تقطع أفنان رأس الدمية ساخرة بضحكة مدوية، قطرات دم، تلقمه فمي، أختنق به لاهثاً، غيلااااااان وحدها دموعي قادرة على الإستجابة، سكين طويلة ومقص كبير، شراشف بيضاء، (دشداشة) أعلى الركبة تسترني، يد ضخمة تمسك بذراعيّ، أصرخ فلا أسمع صوتي، نافورة دم حار يبللني، رائحة صدأ تضج بأنفي، لفافة بيضاء كبيرة حولي تلفني، لا أكاد أرى سوى بصيص نور يتأرجح بين الظلمة، شده يا ورد شده... من هي الورد... شده، نمسك بأيادي بعض وندور مقتربين ومفترقين على إيقاع النشيد، غيلان الورد شده، أتوسط الوقوف فيقبلن نحوي في دائرة يضيق قطرها عليّ وينفرج في مرح صاخب، شده يا ورد شده، غيلان الورد شده.

تتقاطر الأحلام والكوابيس بلا هوادة، فمي ناشف، أشعر بظمأ شديد فلا يحملني جسدي على القيام، يتباطئ نبضي وتزدحم برأسي الأمكنة، الروائح والصور في ترتيب مارق في غرابته وجنونه لا أدرك فيه صحوي من غفوي.

لازمتني الحمى ثلاثة أيام، فقدت معها إحساسي بالوقت بعد أن كان السرير هو ملجأي معظم الوقت، إنهارت قوايّ ومعها تصميمي، لوح الشك بكلتا يديه إليّ، من أنا؟ وماذا أريد؟ أسئلة باتت تقهقه في عقلي، تجلد

كل ما آمنت به على مدى سنوات، عدت الى نقطة البداية أحمل صخرة الشك الثقيلة على ظهري في قدرية محتومة لا فكاك منها، تراجعت صحتي بعد أن عافت نفسي الأكل في إعتراض ورفض غريب لم أستطع فهمه أو تبين أسبابه، ماذا يجري لي! ما كل هذه التناقضات التي تخيم بين عقلي وروحي! خلت أن السنوات الماضية قد ردمت هذه الفجوات والثقوب بشكل نهائي وقاطع، لكن ها هي تعود لمهاجمتي بضراوة شديدة أفقد معها قدرتي على الحكم وإتخاذ القرار، يا إلهي لماذا أتراجع الآن؟!... لماذا؟ ممَ أخشى؟ جسمي يرتعش حالما أفكر بما ينتظرني... لا إنها الحمى تعبث بمقدراتك، فلا توليها أذناً... أشعر بالرهبة والخوف يجتاح كل خلية فيَ، تصطك أسناني بقشعريرة وينكمش جلدي على نفسه، أرتجف بشدة، أتكور في السرير تحت المزيد من الأغطية لأوقف نوبة هذا الإرتعاش المجنون، أغط في نوم تهدهده الهواجس ويعقبه صحو مثقل برواسب أحلام وذكريات وصور تتلاحق في رأسي متداخلة وفق ترتيب وزمن فنطازي لا تحكمه إلا الحمى، وما تبثه الى عقلي من ذبذبات مشوبة بالإنفعال وعدم التركيز، فلا أستطيع أن أَجِدني في هذا التيار والمد الجارف الذي يأخذ بي الى متاهات وحلقات مفرغة إعتقدت أني قد وجدت طريق النجاة منها وتشافيت، لماذا أعود ثانية الى القاع وأتمرغ بوحل ظنوني، هواجسي وكل تناقضات أفكاري؟! الرحمة يا رب... يا رب الرحمة، ما عدت قادراً على مجاراة نفسي، وساوسي وكل عذاباتي..... الرحمة.

أمسك تقرير الطبيب النفسي، فتتملكني الرغبة في تمزيقه الى قطع صغيرة أنثرها حولي في سماء الغرفة المستأثرة بصمتها، أحاول فهم كلماته الممتدة على أسطر طوتها ورقة تحمل شعار المركز وختمه، كذلك تواقيع مجموعة من

الأطباء الذين تناوبوا في دراسة حالتي والبت في سلامتي النفسية من أمراض تعوق موافقتهم على منحي جواز الخروج من شرنقة بت اليوم ألتصق بجدرانها، أتعلق بخيوطها خشية السقوط والإنحدار الى مجهول غامض لا أَجِد فيه موضع قدم لأنا.

يا إلهي لم أعد أحتمل المزيد، لماذا أنا؟! لماذا أظل أتقلب بين جمر الحقيقة ونار الشك والريبة؟!... لا تتقاعس الآن ولا تجبن، وكن ذلك المحارب الذي عهدته، لا وقت للإنسحاب الآن من قضيتك، كن أنت مهما كلّف الأمر، مهما كلّف الأمر.

إستيقظت في اليوم الرابع بصحة أفضل وقد تراجعت فلول الحمى وكل ما حملته لي من إضطرابات وتشويش ذهني فظيع.

إرتديت ملابسي دونما إهتمام، ليس كعادتي في الأشهر الأخيرة بعد أن أضحى المظهر الحسن الأنيق، والتموضع أمام المرآة ومراقبة ما يجري على جسدي من تغيير من أولوياتي المبهجة، ودون أن أشعر وجدتني ألبس تلك الملابس المحايدة الألوان، قميص باهت الألوان لا يحمل هوية هو الآخر، مع بنطال جينز رُكن أسفل خزانة الملابس بعدما حلت محله بناطيل أكثر حياة وزهواً منه.

تناولت في المطعم إفطاراً يليق بصيام طويل لمعدة أوشكت أن تأكل نفسها، حتى النادل لاحظ إقبالي النهم وجاملني بإبتسامة خجول صغيرة قابلتها بضحكة كبيرة على ما صنعته، وكيف حملت المائدة بأصناف مختلفة من الأطعمة لم ألمس إلا بعضها في إستحضار مفاجئ لذكرى مائدة رمضان التي يتوسطها أبي ولا تترك أمي وشقيقاتي فراغاً عليها إلا وشغل بأصناف من

الطعام، والحلويات الرمضانية في كرم باذخ يتماشى مع سخاء ذلك الشهر الذي ينتهي بإدعائي المرض في أول أيام عيده، حتى بات ذلك مثار إستغراب أهلي ودهشتهم من تكراره في كل سنة، فعلاً كنت لا أقوى على الخروج ومشاركة الصبية ألعابهم في الكر والفر ببنادق ومسدسات بلاستيكية تصدر أصواتاً مزعجة، لا تثير فيهم سوى نشوة ذكورية عدوانية أمقت الإنسياق لها تماماً مثلما أمقت الظهور بملابس باردة الألوان باهتة، وكأن الفساتين الملونة البراقة حكرٌ على شقيقاتي في تذكير قاسي على أني اليعسوب، ملكة النحل، الأنثى التي ظنها العرب في السابق ذكراً، ففضلت ملازمة السرير صباح العيد والتواري عن رغبة تستفحل في نفسي وتكبر مع الأعياد.

لا أفهم أحياناً من أين تتفتق تلك الصور والذكريات؟!

ينتهي الصباح وأنا ألف في طرق طويلة وأماكن ضيقة متزاحمة ترصدني عيونها بفضول كبير دون أن أشعر بالخوف الذي كان يلازمني من تلك الأمكنة ويجنبني السير فيها، أما اليوم فما من شيء يثير ريبتي أو خشيتي من تلك النظرات المتلصصة المتأهبة بإنتظار اللحظة المناسبة للإنقضاض دون أن يهجم عليّ أحدهم بسكين تسلبني محفظتي أو حتى حياتي إن لزم الأمر، لا أدري ماذا يحدث بالضبط! سنتان وأنا أتجنب الإقتراب منها مصغياً لنصائح رواد الفندق الذي أقطنه الى حتمية الإبتعاد لئلا أكون طعماً سهلاً لتلك العيون الجائعة المترقبة، فما بالها اليوم؟! أشبعت فجأة؟! توغلت في تلك الأحياء الفقيرة المتخمة برائحة العفن والحيوانات النافقة التي إضطرتني في مرات الى وضع يدي على أنفي، مستئنفاً السير بلا تردد في أزقة تزداد ظلمة وضيقاً لا سماء لها.

أمسك الملف كحمل ثقيل أنوء به، تحدثني نفسي بتركه على أحد المقاعد وتناسيه تماماً، تتعرق يدي عليه تاركة أثر أصابعي وهي تقبضه بشدة كدليل براءة أو إدانة، لا أدري! لم أعد أعرف ما أريد! كان ينبغي عليّ أن أذهب به الى الطبيب الجراح المختص بحالتي، وها أنا أقدم ساقاً وأوخر أخرى... يجب أن تفرحي بذلك وتهللي، التقرير الذي إنتظرته فما بالك اليوم؟! هل تراجعتِ بعد كل هذا الشقاء والألم؟... لا تبدأي بالسخافات أرجوك، كل الأمر أني أحتاج الى بعض من الهدوء، هل أن ما أطلبه كثير؟!... أنت خائفة هيا إعترفي، أنتِ خائفة!... لست خائفة، لست خائفاً... إذن لماذا لايزال الملف في يدك؟! أصبحت أوراقك جاهزة، فلِمَ التأخير والمماطلة؟! حقاً بت لا أفهمك... دعك مني، دعك مني، لا تُمارسي هذا الضغط اللعين عليّ... كل تقاريرك الطبية جاهزة، ها قد وصلنا الى نهاية المطاف، فلماذا أشعر بأنك لست على ما يرام؟... إخرسي، أنا فقط أستجمع أفكاري، وأضع خططاً للمستقبل... ها ها ها إذن إستعجلي (وإستمر يقهقه بشكل هستيري أثار فضول بعض الموجودين على مقربة منه في المتنزه).

في الظهيرة يخلو صالون لي شن من الزبائن على وجه التقريب، فيعود الى وحدته المعتادة، وإنزوائه المقرون بصمت عميق وهو يستعد للذهاب الى المطعم المجاور لتناول الغداء الذي شاركته إياه في بعض المرات كمحاولة لكسر ذلك الروتين البائس، لكني اليوم هرعت إليه مسرعاً وأرتميت بكل عجزي وحزني على الكنبة غامراً رأسي في حضنه كطفل أضناه الحزن على فقد أمه، أجهشت بالبكاء بحرقة دون أن يقاطعني إلا بالربت على كتفيّ

مواسياً حانياً، شعرت بالخجل من إنهياري بهذا الشكل الدراماتيكي بعد أن ساعدني على كفكفة دموعي مطمئناً إياي بأسلوبه الهاديء بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فرفعت رأسي أنظر اليه من بين الدموع وأنا أقول له: لقد تعبت يا صديقي، لقد تعبت، أنت لا تستطيع أن تشعر بالألم الذي أعانيه... لن تفهم ما أقوله، لن تدرك حجم العار الذي يوثقني بأغلاله النارية، لن تفهم معنى النبذ والقطيعة، الغربةِ والإغتراب في وطنك ومع أهلك، صعب عليك يا صديقي أن تقيس ذلك الألم وتلك اللوعة التي تحرق روحي كل حين ما لم تجرب جميع ما مررت به.

فجأة أفقد إرادتي، أشعر بالضعف والرعب، لا أدري ماذا يجري لي!... لا أدري! تقهقر إيماني لكل ما جاهدت لأجله من سنوات، لا أدري يا صديقي! لا أفهم ماذا يحصل معي! لا أفهم، حقاً لا أفهم! بت أشعر بالرعب مما ينتظرني (وأشار الى الملف الذي ألقاه جانباً كقنبلة موقوتة) الطبيب أعطاني شهادة موثقة بقدرتي على إجراء العملية، لي شن هل تصدق أني بعد كل هذا الإنتظار المرير والعمل المجتهد تتخاذل قوايّ؟ ويتلاشى ذلك التصميم، فهلا أخبرتني ما الذي يجري معي يا صديقي؟! عقلي متخم، محشو، أشعر بالإرهاق، تجتاحني مشاعر متناقضة، تبلبل فكري، وتخلخل كياني، من أنا؟ لي شن هل تعرف من أنا يا صديقي؟

بت موسوساً، فقدت الرغبة في أن أكون شيئاً، ليتني أخبو وأموت دون هوية، فليحاروا هم في النداء عليّ، ما عساهم يدعونني، هل يجب أن أموت يا لي شن حتى أعرف من أكون؟!

وإنخرط في بكاء إستنفد دموعه في تطهير روح مثقلة عاجزة.

حاول لي شن أن يشدد من أزري ويرجعني الى ساحل التعقل بعد أن أبحرت بي الظنون الى كهوف ظلمتها، فطال حديثنا، وأنا أصغي الى صوته المشجع الهاديء وهو يحثني على الوقوف ثانية، وعدم التخاذل لأجل حلم أمسى حقيقة أعيش تفاصيلها كل يوم، وأمسكَ الملف في نية وعزم ثابت على مرافقتي الى الطبيب رغم أنه لا يطيق تلك الأبنية الشاحبة المرتفعة الكبيرة بأروقتها المتداخلة، ورائحة المطهرات الطبية المنبعثة منها، الوجوه المتشحة بالحزن والألم في إستسلام ورهبة مما هو آت.

إستقبلتنا الممرضة بإبتسامة مصطنعة كأحمر الشفاه الذي تضعه على شفتيها، وأشارت بالجلوس في إنتظار دورنا الذي تمنيت أن يتأخر ويطول لكن بعد نصف ساعة أومأت إلينا برأسها للدخول الى الغرفة المجاورة، لم تحملني قدماي، خارت قوايّ، قلبي يصل الى حلقومي فزعاً، أحس لي شن بإضطرابي فأمسك بيدي واقفاً، وكم وددت التشبث بيد المقعد وعدم مرافقته، الخطوات القليلة إلى غرفة الطبيب تكبر وتتباعد، وأنا أنزف خوفاً وخشية ولي شن يضغط على يدي مشجعاً.

كنت صامتاً متبلد الإحساس، فلم أسأل الطبيب عن العملية الجراحية التي سبق وأن خضت تفاصيلها معه مراراً دون القلق الذي ينتابني الساعة، تفحص الملف بعناية وهو يشيد بتقارير وشهادات الأطباء النفسيين الذين تتابعوا على دراسة حالتي، ثم تمعن قليلاً في مفكرته ليقول بصوت حازم: الأسبوع القادم موعد عمليتك، أفضل من الغد أو بعده أن تبدأ بكافة الفحوصات والتحاليل التي دونتها لك... تفضل.

تنفست الصعداء بعد أن خلفنا المستشفى وراء ظهورنا وخارج مدى بصرنا إلا أن رائحتها رافقتني عالقة بجلدي وثيابي، لا أدري لماذا أصابني

كل هذا الجزع؟ وكأني لم أقضِ سنوات في مراجعة الأطباء وإستشارتهم حول حالتي! لم تكن العملية الأولى التي أجريها في سلسلة عمليات متعاقبة، لكنها الأكبر والأكثر خطورة وأهمية، هي الحد الفاصل بين كل ما مضى من ملابسات الرفض والقبول، هواجس وإضطرابات، مزاج متواتر في الصعود والهبوط، تلمس أهداب الحقيقة شيئاً فشيئاً، ونبذ كل ما يعتري نفسي من الصراعات والظنون، وما هو قادم من مستقبل وأيام محفوفة بالتحديات والمجهول تنتظرني.

صدى أصوات بعيدة، صور غائمة لوجوه حولي، أشعر وكأني عدت من الموت تواً، لا أتذكر سوى كلمات الطبيب وهو يقول: لا تقلقي كل شيء سيكون بخير، زمن صامت بارد إمتد لساعات تعطل فيه إدراكي وكل حواسي وها أنا ثانية أعود فأشعر بالربت على خديّ: إنهضي... إنهضي... ما إسمك؟! صوت عجلات تحملني، دوار يفتك بي، ضوء يغمر وجهي فلا أطيق فتح عينيّ، أطرافي خدرة لا أشعر بها كأني موثوقة، تستقر الذكريات والصور في مقدمة رأسي فيتلاحق سيلها أمامي كشاشة تلفاز، تقترب الجدران عليّ، أمسك السقف، يضيق مدى بصري وينحصر، همهمة وأصوات تحتي، أشعر بالبرد لكن يدي بعيدة لا تصلني، أغمغم بكلمات تختنق في فمي، أنادي: أمي... أمي، أحاول رفع صوتي لأسمعه لكنه لا يستجيب، أضحك بشكل هيستيري، أشعر بالهلع، عينايّ تدمعان، لا تزال الوجوه ضبابية غريبة، ملابس خضراء وبيضاء، أشعر بوخزة في يدي وأخرى في جنبي، ألمح من بين عينيّ المثقلتين خيال لي شن جالساً، أحاول مد يدي إليه فلا أقدر، يغط عقلي في إغفاءاتٍ متقطعةٍ فتمتزج الأخيلة

والذكريات في محاكاة واقع لم أعشه من قبل أو آلفه، دبيب خدر وخمول يصعد الى رأسي، ويبث في جسدي الشعور بالوهن والنحول، ولا أستفيق ثانية إلا مع خطوط الفجر الأولى وهي ترسم لوحة فريدة على زجاج النافذة المتسع على بقايا ليل وظلام.

صداع يقطن في رأسي ويثقل إدراكي، لكنه لا يخفف من إحساسي بالألم وهو يهجم عليّ في موضع العملية، أتحسس بيد مرتعشة موضع الألم فلا أَجِد سوى لفاف طبي سميك يطوق أسفلي ولا يمنع عني نوبات وجع ما تلبث تجتاحني بشدة، لا يوقفها سوى دواء مسكن أخذته لمدة خمسة أيام متواصلة وأنا أرقد على سرير المستشفى، أغط في نوم معظم الوقت بفعل الأدوية المسكنة، ولا يقطع صحوي المتقطع القليل سوى صوت لي شن وهو يبث في روحي الأمل في الشفاء وتجاوز هذه المحنة.

كانت العملية صعبة، إستغرقت ساعات طويلة كافح على إثرها جسدي المجهد من فعل المخدر أسابيع تلت الى أن إستقرت حالتي بشكل نهائي، وزالت الأعراض التي رافقتني ما بعد العملية من حمى شديدة كادت تودي بحياتي، لا أعرف التفاصيل لكن هذا ما أوجزه لي شن بعد أن منَ الله عليّ بالشفاء.

خرجت من المستشفى بهيئة أنثوية كاملة بصحبة صديقي لي شن الذي رافقني طوال تلك الأسابيع الثلاثة العسيرة دون أن يتركني.

أعد عدتي وأجمع النزر اليسير من أشيائي بعد أن تبرعت بمعظمها لعمال الفندق الذين ربطتني بهم علاقة طيبة على مدى سنتين.

أطوف في كل أنحاء مدينة بانكوك، تلتقط عينايَ وكامرتي الصور لبعض التفاصيل والأمكنة، أملأ قلبي بزاد الذكريات لمستقبل غامض، لا أكف عن إقناع لي شن بمرافقتي الى تركيا لكن دون جدوى، فأكتفي بإلتقاط الصور له والتي بدا في معظمها خجولاً هارباً من عدسة الكاميرا التي لاحقته بفيض من الصور.

ودعت لي شن في قاعة الإنتظار متجهاً الى قاعة المغادرين تاركاً خلفي صديقاً لن يتكرر ولن تمن علي الحياة بمثله ثانية، غمر قلبي الحزن وإبتلت مقلتاي بالدموع وأنا أبتعد عنه ملوحةً.

في مطار أتاتورك في إسطنبول وعند الرواق الفاصل بين الركاب المغادرين والقادمين ألمح إمرأة في غاية الأناقة خمسينية، يظهر على قسماتها الإرتباك والحزن، تلاقت أعيننا لوهلة ونحن نمر قرب بعض.

١٥

كنت دوماً متحمسة بشأن مستقبله الفني، خاصة وأنه قد أثبت براعة كبيرة في عزفه على آلة السكسفون، مانحاً لتلك الآلة جمالاً آخر بعد أن كنت مترددة في إدخالها الى الفرقة وسط موسيقى أغانيي ذات الطابع الشرقي، لكن حسن جعلها تتآلف مع بقية الآلات الموسيقية ويتناغم صوتها معهن في تميز ملحوظ، أثار بعزفه دهشة الموسيقيين وإعجاب الفنانين، فإنهالت عليه العروض لأجل التعاون والعمل معهم، لكنه حرص على البقاء معي وتطوير موهبته في التأليف الموسيقي التي تكشفت أمامي منذ البداية، فشجعت فيه روح التفاني للحاق بأحلامه، ونسج خيوطها في واقع أسفر عن مقطوعة جميلة من تأليفه باغته في طلب عزفها أمام جمهور كبير في إحدى حفلاتي الغنائية، حينها إرتبك كطفل صغير يدق قدمه في الأرض معترضاً لكنه أمام تلك الحشود وعلى وقع تصفيقها إنبرى لتلك الرغبة متحرراً من توتره وخشيته، فمشى بخطوات متباطئة نحوي يحمل آلته بملامح شاحبة مترددة، قربت منه المكرفون وأنا أقول بإبتهاج غامر: اليكم أعزائي الموسيقار الشاب حسن الرافع، وإبتعدت مسافة فاسحة للكاميرا والضوء أن تسلطا عليه في إلتقاط مباشر قريب لرشاقة حركة أنامله وبراعته المتفردة في إيصال تلك الأحاسيس الرقيقة الصادقة التي نجمت عنه وهو يبهر الجمهور بمعزوفته التي صفق لها متفاعلاً، بعد أن أخذهم لدقائق الى فردوس

أرضي ونغمات تبعث في النفس ذلك الإتساق والإنسجام مع ما حولها، بعيداً عن كل ما يلوث صفاءها ويضيق عليها الرحاب.

بعد تلك الليلة، إكتسب حسن شهرة فردية، وبانت ملامح موسيقاه واضحة قوية تنم عن موهبة صاعدة ومشاعر مرهفة خرجت عن عقالها في شكل أنغام موسيقية، فأصدر آلبومه الخاص الذي لاقى رواجاً بين فئة الشباب، وإحتراماً من قبل الموسيقيين الكبار، وبات متابعوه على دراية بأخباره من خلال وسائل التواصل الإجتماعي والقنوات الفنية التي سجلت معه لقاءات وأماسي موسيقية في مناسبات شتى، وأصبحت الفتيات الشابات يحاصرنه طلباً في إمضائه وعناقه إن سنحت الفرصة، أنا نفسي لم أفوت الفرصة وطلبت منه في إحدى المرات ممازحة أن يمضي لي على بطاقة تذكارية، فطبع على وجهي قبلة مباغتة وهو يبتسم رامقاً إياي بنظرة متحدية مشاغبة قائلاً: هكذا أنا أوقع للمعجبات.

مددت يدي نحوها في حركة لا شعورية، ولم أعرف كيف أتعامل مع تلك القبلة، أصبت بالدهشة من إقدامه عليها، فقد كان معي متحفظاً خجولاً، فمازحته متغاضية عن جرأته:

- والله وطلعت عينك يا ولد.

فرد عليّ ضاحكاً، لكن بنبرة معترضة:

- لم أعد ذلك الولد، فقد أطفأت من الشموع قبل شهرين خمساً وثلاثين.

- إذن تصرف كما الرجال حتى لا أشك بذلك.

مط شفتيه مباعداً، وعقد حاجبه وهو يقول خارجاً:

- آسف... لم أقصد إزعاجك!

أوقدت تلك القبلة النار في هشيم روحي، رغم أنها حملت بين طياتها من البراءة ما يجعلني لا أقف عندها مستذكرة، لكن ما لحقها من مصادفات ومكابدات غير مقصودة وضعني في مواقف وردود أفعال لم أتوقعها أن تبدر مني يوماً، فباتت معجباته مثار غيرتي وتوتر أعصابي، بالأخص تلك اللواتي يطالبنه بصور (سلفي) في تموضعات حميمية يفعلنها دون أدنى خجل.

ما كنت لأعير بالاً لذلك في أول الأمر، وخلته مجرد إنزعاج من الفضوليين، لكن تكرارها أخرج تلك المشاعر عن لجامها كاشفة عن نابها وهي تغرسه في قلبي ليتمادى حسن في إختبار مشاعري، والإمعان في إظهارها أمام نفسي أولاً للخروج بها من حالة الإنكار التي تلازمني، فعايشت ضغوطاً كبيرة لأجل كتمان ما ينتابني من أحاسيس مجهولة لا أفهمها ويستحيل عليّ تقبلها، إنها الجنون بحد ذاته، لا لا لن أخوض هذه التجربة، محال أن أترك نفسي الى تلك المشاعر الغبية المبهمة، لن أفقد هيبتي ومكانتي لأجل إشارات واهمة وذبذبات لا منطقية. فتأزمت علاقتي به بين شد وجذب أثار فضول العاملين وثرثرتهم حول أسباب تركه العمل في فرقتي الموسيقية، لم أتمسك به حين أتى الى غرفتي الخاصة في الأستوديو وأخبرني بقراره، لا أعرف حينها بم شعرت؟ لكني كنت هادئة، مقتنعة بجدوى ورجاحة قراره، عندما تمنيت له التوفيق بشق طريقه، وأنني سأكون على الدوام حاضرة لمد يد العون والمساعدة.

أحيانا أصاب بالدهشة من قدرتي الشديدة على التمويه والتماشي عكس رغباتي في ثبات وعزم شديد.

لم يستقر حسن طويلاً مع أي من الفرق الموسيقية التي عمل معها، وخلال تلك الفترة لم ألتقِ به أو أحاول ذلك رغم أن إحساساً غامضاً ظل

يذكرني بغيابه وفقده، وبالصدفة عرفت من أحد الموسيقيين أنه سافر في عقد عمل الى عُمان، إعتصر الخبر قلبي لكنه أزاح عن كاهلي حمل التفكير به، وتحاشي لقائه في الأمكنة العامة التي إعتدنا التواجد فيها بحكم عملنا الذي يلزم بصداقات وعلاقات مشتركة، وحمدت الله على تصريفه للأمور بهذا الشكل المناسب.

لن أنكر شعوري بالحنين والشوق إليه، لاسيما حين أشاهد بعض حفلاته على شاشة التلفاز، أصابعه الرشيقة وهي تتحرك بخفة على آلة السكسفون، عينيه المغمضتين إنفعالاً وتوحداً وجدانياً مع أنغامه، رأسه المتمايل في خضوع ساحر إستغراقاً، الخطوط الرفيعة أعلى وجنتيه حين يبالغ في غلق عينيه، ذقنه باللحية الخفيفة السوداء المشذبة بإتقان، جسمه المتناسق وتسريحة شعره المحببة، إنحناءته اللطيفة وهو يحي الجمهور بتواضع مؤدب وإبتسامة لطيفة، فيأخذ بلبهم في تصفيق حماسي حاد.

إنتهى تعاقده مع المعهد الموسيقي في عُمان بعد مضي سنة دون أن يجدده، وأقفل عائداً ثانية الى دبي حين هاتفني قائلاً: لن أستسلم هذه المرة.

وأخذ مكانه في الفرقة الموسيقية التي إشتكت غياب آلة السكسفون دون أن أفكر ببديل له رغم إقتراح المايسترو وترشيحه لأحد العازفين.

هل كنت سعيدة بعودته؟... لا أدري! سؤال صعب. ونفثت دخان سيجارتها بعيداً في زفرة طويلة... كنتِ فرحة، تهلل وجهك وتصاعد نبض قلبك طرباً لموجات صوته... لا تبالغي رجاءً، رجوعه أعادني الى الحيرة ذاتها، مشاعر مضطربة متذبذبة بين الرفض والقبول تداخلت وإمتزجت، ما عدت قادرة على الفصل بينها أو وضع المسافات والحدود، إرتبكت أيامي

وتغير إيقاع حياتي الذي لا يبدأ عزفه إلا بحضوره، أخشى ما أنا فيه، أخشى ذلك التعلق المؤلم... آه كم أكره هروبك وتهربك! واجهي الحقيقة لمرة واحدة، كفاك هروباً، كفاك... لا أعرف عن أي حقيقة تتحدثين؟ ما أعانيه أكبر من الإختباء، أنا لا أعلم ماذا أريد، لا أعرف طبيعة تلك المشاعر أو حتى تسميتها، كالمتاهة لا أعرف طريق خروجها، تتقطع وتتشابك، تتداخل فتفترق، تتقارب لتبتعد هكذا مشاعري لا أعرف لها منفذاً، لا أعرف. نافثة نفساً آخر من الدخان لسيجارة أوشكت على الإنطفاء.

آه لو يطواعني الطبيب على عملية النحت، لا أشعر بالثقة بهذا الجسم الممتلئ، كيف أفهمه أني أشعر بالهزيمة أمامها، أخسر المعركة مع قدها المشوق المنساب كجدول؟! كيف لي أن أشرح له عن معركة غير متكافئة الأطراف؟!... لكنه يحبكِ أنت، فلِمَ كل هذه الغيرة؟! هذه الشكوك وهذا الألم! عيشي لحظات الحب الساحرة، إمضي قدماً في قطاف ثمارها، أنت تستحقين ذلك، لا تغرقي بنرجسيتك المفرطة، ولا تهربي نحو المزيد من عمليات التجميل، ما تبحثين عنه خارج ظلال هذا الجسد المرهق، متى تفهمين أن الحب وحده من سيخلصك من كل متاعبك؟!... وماذا عن ذلك الصوت؟ هو يتعقبني، طنينه في أذني معظم الوقت، يستنزف روحي ويقوض أحلامي وكل نجاحاتي، لا شيء يخرسه، لا شيء، لا شيء يوقف زحفه الى رأسي، دبيب أقدامه المتسللة الى قاع الذكريات موقظاً، الصوت اللعين... وهل يخرسه المزيد من عمليات التجميل؟ المزيد من التشويه والتنكر؟! لِمَ لا تكفين عن الرسم بالقلم والمسطرة تاركة لبعض الإنحناءات أن تسترسل في طريقها على خارطتك؟!

ومسحت دمعةً عن وجه فقدت كثير من عضلاته القدرة على التعبير بشكل طبيعي مريح لا تشعر معه بالشد، وألقت نظرة أخيرة على نفسها وهي تشد بطنها تحت قميص كتاني ناعم يحاكي زرقة البحر الذي يترقب قدومها منذ الصباح.

بعد أن تشافت جروح الكرامة وخفت غلواؤها لم تعد ذكريات صلاح تهاجمني بشراسة أو تثير في نفسي ذلك الألم والرغبة في الإنتقام، فقد حطمت عجلة الأيام بصريرها الليلي المؤرق كل ما حملته في نفسي تجاهه من حقد وغضب، وبات العمل الجاد المكثف ترياقي ونديمي، وصلتني في إحدى المرات وعلى بريدي الألكتروني الخاص الذي لا يعرفه إلا القلائل رسالة تلو الأخرى، تشي بين طياتها بتهديدات ضمنية غامضة لم أستطع تفسيرها، فأهملتها ولم أفكر بهوية مرسلها معتبرة إياها مزحاً ثقيلاً من أحدهم الى أن إصطكت ركبتاي من هول الصدمة، وأنا أفتح البريد على صورة إلتقطتها قبل سنوات حين كنت في تركيا، تبعها عشر صور واظب على إرسالهن لي على مدى أسبوع دون أي كلمة أو تعليق حتى بادرته أنا بالسؤال: صلاح... ماذا تريد؟!

إستغرق أسبوعاً آخر ليرد عليّ ناكراً هويته ومعرفته بالمدعو صلاح، لكني كنت واثقة أنه هو، أكاد أسمع أنفاسه، كيف غاب عليه أني من كلماته القلائل أستطيع كشف هويته؟ يا لغبائه! كيف فاته أن يتحاشى جملته الملازمة له في بداية أحاديثه "هسه هنا"؟! رغم تندري عليها في بعض المرات وترديدها أمامه!

حقاً خاب ظني بذكائك يا صلاح بعد أن خيبته في وفائك وإخلاصك، أنت مثار شفقتي، تمعنت في رسائله المتناقضة، فبعضها كانت تفصح عن ندمه وأسفه، والأخرى إبتزازاً مبطناً لي، لم أرد عليه في البداية وأرغمت نفسي على قراءة كل رسالة مرة تلو مرة في محاولة لتأنيبها، وتوبيخها على هذا الرجل الذي عشقته بكل جوانحها، فأفشت سرها الكبير أمامه دون أدنى تحفظ أو تردد، مأخوذة كالمجنونة بسحر الحب وما يمليه على العقل من ضلالات وأوهام.

ليتك بقيت بعيداً، أن تكون خائناً أكرم بكثير من أن تصبح مبتزاً حقيراً، حقاً أشفقت عليه، هل بلغ القبح فيك حد الإبتزاز؟! وكم أضحكني وأبكاني وعده الذي ختم به إحدى رسائله " وبشرفي راح امسح تلك الصور نهائياً، وأبداً ما أفشي سرك".

وددت أن أسأله عن أي شرف تتحدث؟! لكني لم أجرؤ على تسديد طعنة لميت، مسكين صلاح، هل الفاقة والعوز الى ذلك المال تدفع بالرجل الى إبتزاز إمرأة؟! إمرأة كانت تسري نبضات قلبها مع إيقاع وذبذبات صوته الهادر عبر الهاتف حين يقول " صباح الجوري حلوتي" عندها فقط كانت تشرق شمسي ويصحو من نعاسه صباحي، إمرأة حاولت ضبط إيقاع قلبها وإمساك لهاث نفسها المتقطع عندما تبادر بفتح باب السيارة لها لتقلها في طريقك الى الأستوديو، إمرأة قضت نهاراتها تستدرج ملامحك وخيالاتك إليها رغم كثافة مشاغلها، إمرأة غنت أشعارك وكلمات الحب بكل إيمان ويقين أنك أنت وحدك، وحدك لا أحد سواك من يملك مقدراتها.

إستمرت رسائله في الورود إليّ بكل ما تحمله من تناقضات، عواطف مضطربة متشابكة يشوبها الندم أحياناً ونداء الواجب والأهل وما تمخض عنه من تبريرات أباحها لنفسه في هجري بذلك الشكل المهين.

لم أناقشه أو أرد عليه بل تركته يسرد كل ما في نفسه كإعتراف أو بوح ذاتي رغم ما تخلله من ذنوب دون أن يقر بإقترافها بشكل صريح، كانت الكلمات لعبته، فتحاذق في ترتيبها والتلاعب بها في محاولة للتكفير عن نفسه، رغم أني لم ألقم ضميره الجائع أي كلمة تأنيب أو عتب على الإطلاق، كنت هادئة في ردودي معه، لكني مقت نفسي الى حدود بعيدة، لمتها على الثقة والحب الكبيرين التي أولتهما لشخص مثله... ها هو يضع مستقبلك وحياتك بين يديه وفكه الجشع... لا، لا أظن هو فقط بحاجة الى تلك الأموال لعملية زوجته في الهند... أما زلتِ تدافعين عنه؟! ما أغربك من مخلوقة؟ إغربي عني، ما عدت أطيق سماعك... لولا حاجته لتلك الأموال لما... هيا أكملي! لماذا توقفت؟ هل غسل دماغك حتى بت تبررين له إبتزازك؟!

عشت فترة عصيبة خانقة، لا أعرف ماذا أفعل أو كيف أتصرف تحت ظلال تتناقص أطرافها من حولي كل يوم لأنكشف تحت الضوء دون حجاب، هل أنا مستعدة لذلك؟ هل أنا جاهزة لتقبل الرفض من جديد؟! يا الله لِمَ عليّ الخوض ثانية في ذلك الأمر؟ إلا يكفيني ما أعانيه من ذلك الصوت؟ يا الله جد لي السبيل وطريق الخلاص.

تمكنت بعد فترة من الرد عليه بإقتضاب قائلة: " أحتاج كم يوم حتى أجمع لك المبلغ".

فرد عليّ في رسالة أخرى مقدماً شكره وإمتنانه، وبأنه سيفي بوعده ويمسح الصور حالما يصله المبلغ.

إستجمعت رباطة جأشي بعد ليال من التفكير المرهق الطويل وما يعقبه من كوابيس مزعجة تؤرق منامي وتكسر مجداف صباحاتي التالية، فلا أعود قادرة على التركيز والعمل مع الفرقة الموسيقية إستعداداً لحفل عيد الأضحى المرتقب، فأخبرت مدير أعمالي السيد منذر الذي بدت عليه علامات الدهشة وأنا أطلب منه أن يهيء لي مؤتمراً صحفياً كبيراً يحضره أكبر عدد من القنوات الفضائية والإعلامين المهتمين بشؤون الفنانين وأخبارهم.

لم تثنِ رغبتي في إقامة المؤتمر كل تساؤلات السيد منذر وحرصه الملح على تأجيله الى ما بعد حفل العيد، لن أنتظر أكثر، كنت أشعر بالإختناق، أريد أن أفك أغلالي، لا مزيد من العتمة، أستحق أن أعيش في الضوء، نعم الضوء مهما كانت النتائج... وهل أنت مستعدة لذلك؟! إنتبهي أرجوك... وليكن، لن أعيش في العتمة ثانية، لن أعيش، ألا تفهمين؟! أنا نخلة ورأسي لن تعانق إلا الشمس، فلتسطع شمس الحقيقة... إذن حذاري أن تحرقك... سأموت حينها حرة.

أوشك الأسبوع الرابع من الإجازة على الإنتهاء، لا أدري كيف إنقضت الأيام هكذا، بالرغم من شعوري بالوحدة والإنعزال عن عالمي، وكل ما فرضته عليّ طبيبتي من إنقطاع عن كل وسائل التواصل لأجل راحتي، وطلباً في سلام وهدوء داخلي لا تعكره تداعيات الماضي ولا تناقضات الحاضر وأزماته المتواصلة.

حتماً سأشتاق الى هذه الصباحات ببحرها الوادع الممتد، هدير موجاته، وكل الصخور النائمة على جنبه، حبات رمله الداكنة، قواربه، المظلات الملونة المزروعة على ساحله كزهرات عباد الشمس في لوحات فان كوخ، شارع مارينا المحاذي له الذي يغص بالسياح حالما ينير سماء جزيرة الطيور (قوشي أزادي) قمرها الفضي مع جاراته المتلألأت، النوارس المتدافعة على ما يرميه السياح لها من نوافذ وشرفات المطاعم المتاخمة للبحر، الأسواق الشعبية، باعة بلح البحر بصوانيهم، عربات رؤوس الذرة المشوية والمسلوقة، باقات البالونات البراقة المرفرفة في أيدي الباعة المتجولين والأطفال الملتفين حولها في حماس وفرح لأجل الإمساك بخيط واحدة قد تحاول جهدها في الإنسلال بعيداً عن الأرض وجاذبيتها كما فعلت باقة كبيرة من البالونات حين أطلق سراحها أحد السياح في محاولة لإثارة إعجاب حبيبته، والسحر الأخاذ الذي لون قزحية عينيها كطفلة.

صحوت من النوم بصعوبة بعد ليلة طويلة قضيتها في سريري أتقلب يمنة ويسرة، أهش على هواجسي وكل المخاوف التي يذكيها العقل ليلاً، عينايّ متورمتان، رأسي يضج بالأفكار، وخز مؤلم في صدري، شعرت بالوهن وقلة الحيلة، لكن عليّ أن أستريح، أستحق الراحة بعد كل هذه السنوات، لن أختبيء، حان الوقت، فرجاء لا تواصلي بث مخاوفك فيّ، هذه المرة ليس من مفر... لكنه وعدك!... كما أخبرتك، ليس من مفر، فأرجوك لا تخذليني ودعينا ننهي هذا الأمر.

مرت ساعات النهار ثقالاً وأنا أروح وأجيء في البيت، أستحضر في عقلي عشرات السيناريوهات وردود الأفعال، وجوههم التي ستبهت

ملامحها فجأة بظلال الخيبة، الصمت الكريه وهو يعقد الألسنة، أصوات همهمتهم المندهشة، الميكرفونات المحتشدة على الطاولة، الكاميرات المنصوبة في أنحاء القاعة، الهواتف النقالة كعيون مترصدة، تحاذق بعض الصحفيين، وجه السيد منذر المحمر وهو يمسح حبيبات العرق التي تفصدت على جبينه من الدهشة، الخبر الصادم الذي سيتصدر معظم الأخبار وقنوات التواصل مع صور شديدة التركيز والدقة من زوايا مختلفة تستعلم مواطن الشبه والإختلاف بيني وبينها، تحليلات ومقالات، مقابلات وشهود عيان لم يشهدوا شيئاً، ستقتات تلك القنوات على هذا الخبر الطازج فترة ليست بالقليلة حتى تستهلكه في برامج وإحصائيات بين موافق وضد، وجبة دسمة للإعلام.

إرتديت ملابس رسمية تليق بهذه المناسبة بعد أن قامت خبيرة التجميل الخاصة بي بعمل مكياج هاديء لي مع تسريحة أنيقة تميل الى البساطة لا تعكس طبيعة ذوقي المبهرجة في مثل هكذا مناسبات، الأمر الذي أثار ريبتها دون أن تنبس ببنت شفة، فرمقتها بنظرة مطمئنة متفائلة.

هل أنتِ متأكدة من قرارك هذا؟!... بالطبع، أرجوك، كل ما أحتاجه منك هو الثقة... أرجو أن تدرسي كل الإحتمالات... لا تقلقي، كل الإحتمالات مطروحة، المهم الآن أن أفك هذا القيد اللعين... للحرية ثمن... لا تخشي، سندفعه اليوم بكل إمتنان.

جلست لوحدي قبل إبتداء المؤتمر الصحفي ألتقط أنفاسي بعد أن أرسلت رسالة نصية قصيرة الى صلاح "شكراً، بفضلك أنت سأفتح

صندوقي الأسود... المبلغ سيصلك في الغد على أبعد تقدير... تحياتي"، إلا أن يديّ لا تلبثان ترتجفان مع مغص يلازمني منذ أيام تتصاعد نوباته بإقتراب اللحظة الحاسمة، دوار خفيف يستأثر برأسي، أخشى أن يتشتت ذهني وتضيع مني الكلمات أمام الحشد الحاضر المتأهب!... ليست المرة الأولى، التي تقفين فيها أمام الجمهور، وكم أسرته بصوتك، فقط تشجعي... لا عليك بعد قليل سأقع في براثن الإعلام والصحف، سأكون خبر الموسم.

سرت وأنا أضغط كعب حذائي بشدة على السجادة كنوع من إرساء ملامح الثقة على مشيتي رغم ما أشعر به من إضطراب داخلي، لكن عليّ أن أتماسك... لست مطالبة بإقناع أي أحد منهم، كل ما عليك أن تبوحي بالحقيقة لا غير.

دخلت الى القاعة وسط تصفيق الحضور وترحيبهم مع السيد منذر الذي بدا مرتبكاً وعلامات الحيرة تظلل عينيه بالسؤال عن سبب إقامة هذا المؤتمر الطاريء، جلس الى جانبي متحلياً برباطة جأشه المعهودة وسرعة بديهيته في الإجابة، وبعد بروتوكولات التقديم والمجاملات المملة، وفسح المجال أمام بعض الصحفيين في السؤال عن أعمالي الجديدة وآخر الفيديوهات وما الى ذلك من أسئلة معهودة تركت إحابة أغلبها إليه، في الحقيقة كنت شاردة الذهن، إنتظر اللحظة التي أشرع بها بإعترافي.

ألن تعدلي عن رأيك؟! بإمكانك الإنسحاب فلا تكابري عزيزتي... لا، سأكمل، لن يعود الفرار ملاذاً، فقد حسمت أمري... هيا إذن خذي نفساً وأزفري عنك كل ما ضاق به صدرك من سنين.

بعد مضي ربع ساعة من بدء المؤتمر، إلتقطت تلك اللحظة التي أمسك بها بالمكرفون بإرادة مصممة على البوح، لم تثنني عنها نظرات السيد منذر التي كانت تترقب أن أعدل عن موقفي رغم عدم معرفته بما أنوي التصريح به، رمقته بنظرة ثابتة راسخة، فحسر عينيه عني، وطلب بأسلوب محترف من الحضور الإصغاء الى ما ستدلي به الفنانة الكبيرة غفران.

بصوت رزين هاديء لا أدري كيف دوزنت أوتار حنجرتي عليه رغم ما يداخلني من مشاعر مضطربة متناقضة إحتدم الصراع بينها، بدأت:

الحضور الكريم، السيدات والسادة الأعزاء.

أودّ أن أقتطع القليل من وقتكم ولن أطيل عليكم، بالطبع يشرفني تلبيتكم هذه الدعوة، ولا أطمع الآن بسوى إصغائكم دون أي مقاطعة أو تعليقات.

تتسارع دقات قلبي ويرتفع صوت لهاثي، وحمداً لله، لا أحد يستطيع سماعه سواي... هيا واصلي!

تنحنحتُ قبل أن أردف قائلة:

لا أخفي على حضراتكم كم طالني في السنوات الماضية من الشائعات والأخبار غير الصحيحة كسائر الفنانين في هذا الوسط، لكن ما سأدلي به الآن ورغم غرابته هو الحقيقة، لذا أتمنى أن تسمعوها مني، وأخذت بعرض الصور لهم على شاشة كبيرة، هل تعرفون الشاب الذي في هذه الصور؟! قد لا تبدو الصور واضحة وقريبة، لكن هل عرفتموه؟!

رِن هاتفها، خفق قلبها قبل أن تخرجه من حقيبتها وترى المتصل، لابد أنه حسن، أخيراً قد نقض وعده، خارجاً من صمته مشتاقاً، لماذا كل هذه القسوة يا حسن؟! ما حسبت أن بإمكانك الإنقطاع عني كل هذه الفترة!

هذا الرقم غير مألوف؟! أوه، ليس بحسن، فما أقساك؟ لن أرد على أي إتصال غريب وسأتبع نصيحة إخلاص طبيبتي.

وقبل أن ترجعه الى الحقيبة مرة أخرى، يعاود الهاتف في رنينه مرتين متواليتين، تحاول كتم صوته، فاقدة الأمل في أن يلين قلب حسن ويبادر هو بالإتصال، لكنه يرن مرة أخرى بإلحاح يثير فيها فضولاً تلاشى مع سنين خبرتها في حياة ملأى بالمفاجآت والأحداث، فيحسم أصبعها الأمر، قاطعاً على عقلها مغبة التردد والتفكير ويفتح الإتصال:

ألووو... من معي

صوت نسائي متلعثم، يدق طبلة أذني بلكنة إنكليزية، إفتقدت سماعها منذ فترة قالت:

Madam... your friend is dying..sorry.

لتغلق الإتصال وتتبعه برسالة ألكترونية تفصح عن سعادته ومدى بهجته في التعرف على صديقة مثلي في وقت كان فيه هو الآخر وحيداً متعباً، يائساً من حالته وما آلت إليه حياته من تسارع وتغيرات جذرية، أفضت الى نبذ قاهر ووحدة إجبارية فرضها عليه ذلك المرض اللعين الذي بطش بقسوة بالغة مستقبله وأحلامه في عائلة صغيرة، زوجة وأولاد يحيطونه بالدفء والإهتمام الذي إفتقده طوال حياته.

لقد جئتِ يا صديقتي في وقت كان يضيق عليّ برتابته وخمول أيامه التي أضحت مجرد هاجس لموت مرتقب يراودني كل حين فأختنق، وحين رأيتك أدركت أن الألم أصنافٌ، ولست الوحيد المطالب بدفع فاتورة البقاء حياً، حقاً لقد أنست برفقتك وشجاعتك التي إستلهمت منها الإيمان والقدرة على مجابهة ما يحمله القدر لي من مفارقات مضنية.

سيدتي...

حين تصبح هذه الرسالة تحت أنظارك إعلمي أني قد فارقت الحياة وأنا راض للغاية، إذ لم أعتقد أن الإيدز سيمهلني حتى أواخر عام ٢٠١٩، والفرصة لأجل النظر الى حياتنا من زاوية أخرى، وبمنظار يسوق الأمل من خلف الغيوم، وأعلمي أيضاً أن التصالح مع النفس هو جوهر وجودنا الفريد على هذه الأرض.

إياك أن تبكي (فأجهشت بالبكاء نازلة على ركبتيها الى رمل الساحل) وتعالي صديقتي لتنثري رمادي المحبوس في جرة على تلك الجداول، ولتحل روحي في جسد سليم لا يشكو من العلل.

أكملت قراءة الرسالة وهاتفها يرتعش بين يديها لتهرع الى الفندق مسرعة والدموع تكاد تظلل عليها الطريق، وبأعصاب مضطربة لملمت أشياءها طالبة من إدارة الفندق إرسال إحدى العاملات لأجل مساعدتها في ذلك، والحجز لها على أول طائرة مغادرة الى تايلاند من إسطنبول.

أشعر بالتعب والوهن، يستنزف الحزن قدرتي على التجاوب مع الواقع فتغص روحي في الذكريات، لأستفيق منها على نداء رحلتي، أسير الهوينى، تتبع قدماي خطوات الحشود، من خلف الزجاج ألمح لوهلة إمرأة شابة تتخبط في الزحام خائفة، تتلاشى مبتعدة كشبح، ولا يبقى منها سوى عينيها في وجهي.

أعلم أن هذه الصور ليست بالوضوح الكافي، هل عرفتم من يكون هذا الشاب، ألمَ تعرفوه؟! سمعت ردوداً مختلفة وهمهمات متباينة، إلا أن معظمها

لم تتبين هويته، عندها قلت بصوت جهوري واثق وأنا أتطلع في الوجوه المنتظرة بعد أن طغى عليها الفضول بلونه الداكن: إنه أنا يا سادة... إنه أنا.

ران على المكان صمت ثقيل، وإعتلت الملامح دهشة فاجعة مخيبة، فأردفت أردد بالصوت الهاديء ذاته: نعم يا سادة، إنه أنا دون أدنى شك... إنه أنا! ولكم كل الحرية في رفضي أو قبولي، لكن لا أحد بينكم يملك الحق في لومي أو مقاضاتي وفق قوالب صدئة وأحكام جاهزة.

- تمت -

مساء الأحد ١٦ شباط ٢٠٢٠

نادية الابرو
رحلة اليعسوب
رواية

نادية الابرو

رحلة اليعسوب

أعلم أن هذه الصور ليست بالوضوح الكافي، هل عرفتم من يكون هذا الشاب، ألم تعرفوه؟! سمعت ردوداً مختلفة وهمهمات متباينة، إلا أن معظمها لم تتبين هويته، عندها قلت بصوت جهوري واثق وأنا أتطلع في الوجوه المنتظرة بعد أن طغى عليها الفضول بلونه الداكن: إنه أنا يا سادة... إنه أنا.

ران على المكان صمت ثقيل، واعتلت الملامح دهشة فاجعة مخيبة، فأردفت أردد بالصوت الهادئ ذاته: نعم يا سادة، إنه أنا دون أدنى شك... إنه أنا! ولكم كل الحرية في رفضي أو قبولي، لكن لا أحد بينكم يملك الحق في لومي أو مقاضاتي وفق قوالب صدئة وأحكام جاهزة.

للدراسات والنشر والتوزيع
نينوى

رحلة اليعسوب رواية
نادية الابرو

لوحة الغلاف: الرسام العراقي العالمي ستار كاووش

نينوى